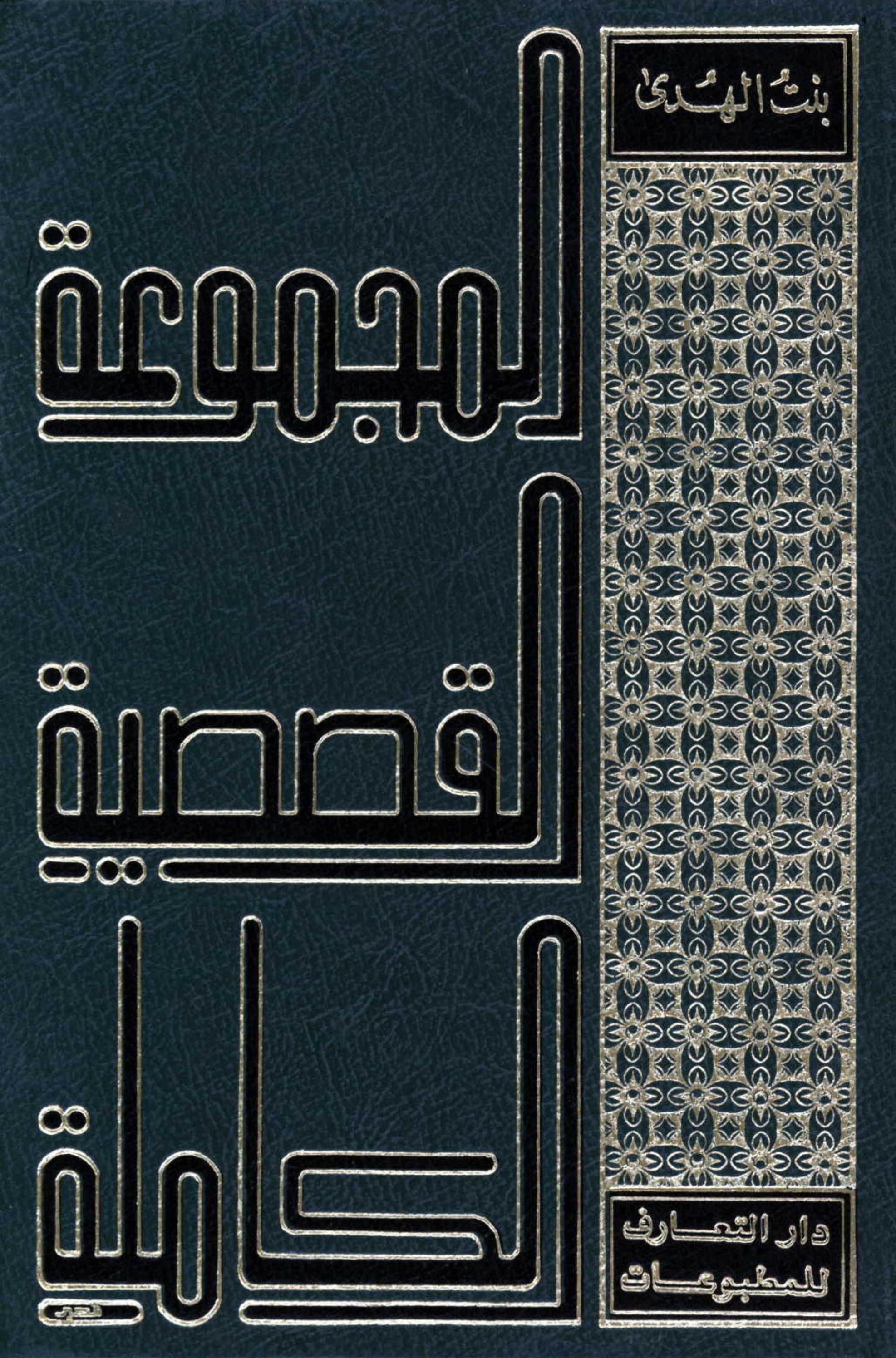

بنت الهدى
المجموعة
القصصية
الكاملة
دار التعارف
للمطبوعات

بنت الهدى

المجموعة القصصية
الكاملة

دار التعارف للمطبوعـــات

بيروت ـ لبـــنان

ص.ب ٨٦٠١

بنت الهدى

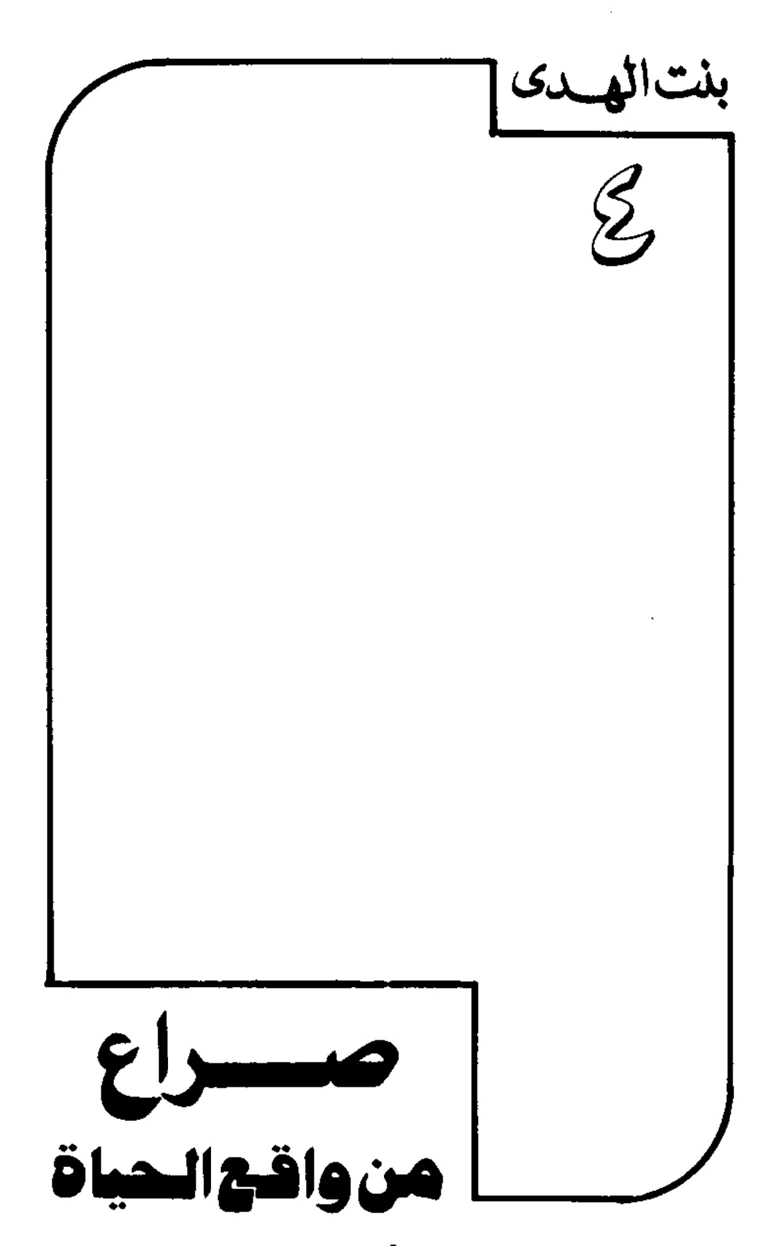
المجموعة القصصية الكاملة

المجلد الثاني

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

المجموعة القصصية الكاملة

- الفضيلة تنتصر
- ليتني كنت أعلم
- إمرأتان ورجل
- صراع مع واقع الحياة
- لقاء في المستشفى
- الخالة الضائعة
- الباحثة عن الحقيقة
- كلمة ودعوة
- ذكريات على تلال مكة
- بطولة المرأة المسلمة
- المرأة مع النبي

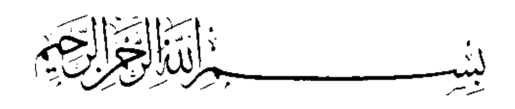


بنت الهدى

٤

صراع

من واقع الحياة



المقدمة

قارئاتي العزيزات :

ان تجسيد المفاهيم العامة لوجهة النظر الإسلامية في الحياة هو الهدف من هذه القصص الصغيرة ، لأني اؤ من بأن اعطاء المفهوم على المستوى النظري لا يمكن أن يحدث من التغيير والتأثير ما يحدثه إعطاؤه مجسداً ومحدوداً في احداث وقضايا من واقع الحياة ، ومن أجل ذلك اهتم القرآن الكريم بأعطاء المثل والقيم عبر صور قصصية من حياة الأنبياء والدعاة الى الله وما تلابسها من ظروف وأحداث .

ولئن كانت هذه القصص القصيرة في هذه المجموعة من نسج الخيال فهي منتزعة دون شك انتزاعاً من صميم الحياة التي تحياها الفتاة المسلمة اليوم . ولهذا فإن أية فتاة سوف تقرأ في هذه القصص أحداثاً عاشتها بشكل وآخر مباشرة ، أو تفاعلت معها ، أو مرت قريباً منها ، وسوف تجد في كل قصة الموقف الإيجابي الذي تفرضه وجهة النظر الإسلامية في

الحياة ، والبون الشاسع بين نظافة هذا الموقف وطهارته وتساميه وبين الأنخفاض والانحطاط الذي تمثله وجهات النظر الأخرى في الحياة .

بنت الهدى

صراع

كانت فاطمة تسير وهي في داومة من الأفكار، تتقاذفها، وتتلاعب بعواطفها المرهفة، ومشاعرها الحساسة. وكانت تحث خطاها، وتستعجل الوقت لكي تصل الى حيث تريد. إلى مصدر النور والإشعاع في حياتها، ومبعث الرضا والطمأنينة بالنسبة لعواطفها وافكارها، فهي تشعر بشعور مبهم تتمنى لو تمكنت من التغلب عليه والتخلص منه، ولكنها لا تزال ضعيفة وفي حاجة الى ركيزة قوية تشدها وتأخذ بيدها لانتشالها مما هي فيه. وكانت تحدث نفسها قائلة: سوف احدثها عن كل شيء، سوف اشرح لها ما الاقيه من صعوبات، وسوف اعترف امامها بأني خائفة من ان يلحقني الجبن او ان اتراجع.

وما أن وصلت الى البيت المقصود حتى اندفعت تطرق الباب في لهفة، وهي خائفة من الخيبة ومن عدم وجود صديقتها في البيت، وحينما انفتحت الباب اندفعت تسأل عن عفاف، ولما علمت بوجودها اتجهت نحو غرفتها بخطوات مضطربة فتلاقت معها وهي قادمة لأستقبالها ببشاشتها

الهادئة ، فصافحتها بحرارة وسارتا حتى استقر بهما الجلوس في غرفة عفاف ، وبنغمة طيبة تصحبها رنة عتاب قالت عفاف : لقد اوحشتيني طيلة الأسبوع الماضي يا فاطمة فأهلا بك وسهلا . ولم تكد فاطمة تستمع الى صوت عفاف ، ونغمتها الرصينة الحنون ، حتى سكنت جذوة ثورتها وكادت ان تنسى ما أتت لأجله ، ولهذا فقد اطرقت دون ان تجيب ومرت فترة ، كانت خلالها عفاف تحدق في وجه فاطمة حتى قرأت مشاعرها مرتسمة عليه ، ثم تقدمت بمجلسها نحو فاطمة ، وابتسمت ابتسامة عطف وتشجيع وهي تقول أراك لست على طبيعتك يا فاطمة فهل لي ان أعرف السبب ؟ وكأن هذا السؤال قد فتح امام فاطمة باب الحديث ، فقالت وصوتها يتهدج ما أراني الا منكرة لحالي يا اختاه ، فقد تنكرت لي عواطفي ، وخانتني الشجاعة بعد أن حسبت أني قد تدرعت من ايماني بدروع تعصمني من الشيطان ، وتصد عني كل ما من حقه ان يصل الى غايتي او هدفي من قريب او بعيد ، ولكن . . . وسكتت فاطمة تحاول أن تستحضر العبارة الواضحة التي تكشف عما تعانيه، ولكن عفاف سبقت افكارها وقد توصلت الى معرفة المحنة التي تعيشها صديقتها ، والدور الذي تمر فيه ، فقالت وكأنها تحاول ان تفتح امام فاطمة باب الحديث ، لتتعرف على جميع ما لديها وما تحسه من مشاعر قالت ولكن ماذا يا فاطمة ؟ قالت فاطمة ولكن شجاعتي بدأت تخونني يا أختاه ، فلم أعد اطيق هذه

الصعوبات التي تعترض طريق الدعوة الدينية ، قالت عفاف : وأي صعوبات هذه يا فاطمة ؟ حدثيني بما لديك فلست سوى أختك في الإيمان . قالت فاطمة ، لقد آمنت بواجبنا نحن المسلمات ، ومسؤوليتنا تجاه ديننا واسلامنا الحبيب ، فأندفعت أدعو اليه ، واحاول ان استنقذ من اتمكن عليهن من بنات الإسلام من الواقع المرير الذي يضللهن ، ولكن المجتمع يا عفاف . وسكتت فاطمة فقالت عفاف وماله يا فاطمة قالت فاطمة إنه مجتمع فاسد لا يقيم للمفاهيم والمثل وزنا ولا ينظر إلا من وراء منظار المصالح والغايات ، هذا المجتمع جعلني أشعر بمرارة لم أكن أريدها او ارغب فيها قالت عفاف او كنت تحسبين ان طريق الخدمة الدينية مفروش بالأزهار ؟ خال من المتاعب والمصاعب ؟ نحن لا ينبغي لنا ان ننكر وجود المصاعب والمتاعب ، ولكن المطلوب منا ان لا نحس بقساوتها ومرارتها ما دمنا قد سرنا في طريق الله ، وفي طريق الحق ، ألم تسمعي قسم الفتاة المؤمنة الذي ينطق عن لسان كل من مشت في طريق الله ؟

اسلامنا انت الحبيب وكل
صعب فيك سهل
ولأجل دعوتك العزيزة
علقم الأيام يحلو

والأن . حدثيني بهدوء عما اثارك يا فاطمة ؟ قالت فاطمة أنه ليس بالشيء المعين يا عفاف ، قالت عفاف ، ولكنه

الجبن امام التيارات المنحرفة ، والخوف من الأفكار المسمومة ؟ وكانت عفاف تحاول بكلماتها هذه ان تثير الحمية في فاطمة وفعلا فقد نجحت بمحاولتها فما كادت فاطمة تسمع كلمة الجبن والخوف حتى انتفضت مستنكرة وهي تقول : ابدا أبدا انا لا اجبن امام تيار ، ولا اخاف من فكرة ، ولكنها المضايقات ، المعاكسات ، عدم التجاوب عدم التفهم و و و

قالت عفاف وماذا أيضاً يا فاطمة ؟ اكملي ما لديك لأجيبك عليه : قالت فاطمة لقد آمنت أن علي أن أخدم ديني بكل صورة وبأي مجال من المجالات ، وآمنت أيضاً أن العقيدة الإسلامية لا تعرف حدودا ومقاييس عدا مقاييس الدين والعمل له .. وهنا سكتت فاطمة وكأنها لا تعرف ما تريد ان تقول ، فقالت عفاف ولهذا فقد آلمك ان وجدت المجتمع لا يزال يرزح تحت وطأة المقاييس الخاطئة ، وينظر للأفراد بمنظار المادة وداخل أطار من القشور الزائفة ، أليس كذلك يا فاطمة ولكن لو كان مجتمعنا مجتمعا مثالياً يؤمن بالمفاهيم الإسلامية وينظر للفرد والمجتمع بمنظار الحقيقة لما استطاعت الدعوة التي حملنا على عاتقنا مهمتها ان تصقل نفوسنا وتتسامى بعزائمنا من خلال صعاب الطريق ومشاكله واشواكه ولو كنا ندعو في مجتمع فاضل ونهدي بنات جنسنا في بيئة صالحة بصورة مواكبة للتيار بدلا عن مجابهته كما نصنع اليوم لما كنا من الصابرين والصابرات الذين عنتهم الآية المباركة ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات

والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثير ا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[1] قالت فاطمة ولكنهم يستهزؤ ن يا عفاف ، انهم يضحكون ، ويشمتون ، عندما نصبح في شدة او نمر بتجربة قاسية ، فابتسمت عفاف وهي تقول دعيهم يضحكون قليلاً فسوف يبكون كثيراً يا فاطمة ، ألم تسمعي الآية القرآنية التي تقول ﴿لتبلون في اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾[2] والآية القرآنية المباركة الأخرى ﴿ولا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم﴾[3] . ان القرآن الكريم قد أوضح امامنا كل شيء ، وخطط لنا طريق الدعوة بما فيه من عقبات ، وبما يليه من نعيم وجنان ، اذن فنحن حينما ندعو الى ديننا يجب أن نكون على ثقة من مواضع أقدامنا لكي لا نتأرجح للعقبات ، او نتداعى امام السدود ، علينا ان نتذكر دائماً

---

(١) سورة الاحزاب الآية ٣٥

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨٦

(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٧

المرحلة الأولى للدعوة الإسلامية ، والمصاعب والأهوال التي صادفت الرسول الأعظم (ص) ، وهو يدعو الناس الى أن يخرجوا من عبادة اصنام ينحتونها الى عبادة الله الواحد القهار ، ثم وهو يهذب امة بدائية تغلغلت فيها العادات الهمجية من النهب والسلب ، والقتل ، والسكر ، والفحشاء ، والمجون ، ويغرس فيها المفاهيم السماوية ، والأخلاق المثالية ، لتكون خير أمة اخرجت للناس ، علينا ان نتصور محمد بن عبد الله وهو سليل اشرف اسرة عرفتها الجزيرة العربية ، ثم وهو انبل رجل في قريش يقر له بالكمال الكبير والصغير والرفيع والوضيع ولا يسمى إلا بالصادق الأمين ، علينا أن نتصور هذا الرجل العظيم وهو يبعث بالنبوة ، ويختاره الله لحمل الرسالة ، فتتألب عليه العشائر ، وتتكاتف ضده القبائل ويحاصر بالتهديد والوعيد ، وهو صامد ثابت ، لا يرجع عن دعوته ، ولا يفتر عن تبليغ رسالته ، ثم يقاطع ويعزل هو ومن معه من المؤمنين وكأنه انسان منحرف ، أو زعيم عصابة ضالة ، ثم يتحمل اشكالا من اساليب الأهانة والاستهزاء فيقال عنه ساحر وهو النبي ، ويقال عنه كذاب وهو الصادق الأمين ، ويقال عنه معلم وهو الذي يتلقى الوحي من السماء ويقال عنه مجنون وهو اكبر عقل تقبل افكار النبوة ، علينا ان نتصور كل هذا ، ثم نتذكر دعاء النبي (ص) حينما ذهب ليدعو الناس في الطائف ، فأرسلوا اليه بأطفالهم يستهزئون ويسخرون ،

ويرمونه بالحجارة والسباب ، حتى التجأ الى جدار هناك ورفع يديه نحو السماء وهو يقول : «اللهم اليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا رب المستضعفين وربي ، الى من تكلني ؟ الى قريب يتجهمني ! أم الى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك على غضب ؟ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي اوسع لي» إن علينا يا فاطمة ان نتذكر خاتمة هذا الدعاء حينما يقول ، ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، بعد بدايته الناطقة بالألم والأسى ، فنحن ما دمنا على ثقة من صواب فكرتنا ، وصدق عقيدتنا ، ينبغي أن لا نتداعى امام التهاويل والأباطيل ، او امام المشاكل والعقبات ، تذكري يا فاطمة ان السيدة زينب بنت امير المؤمنين لما وقفت على جثمان أخيها الإمام الحسين في يوم عاشوراء ، وهو الأخ والحامي والمعيل ، قالت زينب وهي تقف على جثمان الإمام رافعة يدها نحو السماء اللهم تقبل منا هذا القربان ، نعم يا فاطمة علينا أن نتذكر كل هذا ، لكي لا نستهول الأحداث التي تعترض طريقنا . وما ان سكتت عفاف حتى استعبرت فاطمة وهي تقول ، لا حرمني الله منك يا عفاف فما أنت الا بلسمي الشافي ، ومناري الهادي ، فقد اعدت لي بكلماتك الروح التي كدت ان افتقدها ، نعم أعدتيها إلي ولكن بشكل ثابت لا يمكن أن يتزعزع أو يتأرجح ، ما كان اغباني وأنا أندفع الى اليأس يا عفاف ؟ قالت عفاف أبدا يا فاطمة انك لم تيأسي لحظة ، ولم تكوني غبية قط ، ولكنها مشاعر تتولد

من جراء بعض العوامل في المجتمع والمحيط ، وان أحسن دليل على صمودك وايمانك انك اتجهت الي لأساعدك على الوقوف في المزالق التي لا يد لك بإيجادها ، وإنما هي نتيجة انحراف المجتمع الجاهل المسكين ، ثم لعلك قد هجرت المطالعة كما هجرتيني منذ فترة يا فاطمة ؟ قالت فاطمة أنا لم اهجرك يا عفاف ، ولكنني كنت اعيش في دوامة ، وكنت اخشى ، وسكتت فاطمة وكأنها تتردد في اكمال جملتها فأردفت عفاف قائلة كنت تخشين مصارحتي بما يعتلج في افكارك يا فاطمة ؟ أليس كذلك ، ولكنك في هذا فقط كنت غلطانة يا عزيزتي ، اتخشين مصارحتي وتنطوين على هذه المشاعر دون ان تخشي من عواقبها عليك ومضاعفاتها بالنسبة لأفكارك ؟ قالت عفاف هذا ثم حدقت في عين فاطمة وهي تبتسم بلطف فما كان من فاطمة إلا أن قالت كوني على ثقة يا عفاف من اني سوف لن ادع للضعف سبيلا الي بعد اليوم ، واعاهدك أيضاً أن ابثك ما لدي من الألام والآمال ، لتكوني ملاكي الهادي كما كنت دائماً وأبدا فقالت عفاف أنا لست ملاك ، يا فاطمة وما أنا إلا اختك المحبة الناصحة لك ولجميع فتيات الإسلام .

صمود

لم يكد الفجر يلوح طابعاً اول خطوطه على صفحات الأفق حتى نهضت وفاق من فراش لم يجمعها واياه النوم فقد قضت ليلتها تعد ساعاتها بألم ، وتطوي دقائقها بالدموع وما ان لمحت خطوط الفجر حتى شعرت به ينتزعها من فراشها ليستنقذها مما هي فيه ، وليدعوها الى ترك اليأس المرير ، ويفتح أمامها أبواب الأمل والرجاء ، في الصلاة والدعاء ، واتجاه الروح وقربها من الرحمن ، وفعلا فقد اندفعت بلهفة الى تهيئة مقدمات الصلاة ، وكأنها تستعد لموعد يقربها ممن تحب ، ويفتح أمامها ابواب الرجاء ، وسرعان ما اندمجت مع صلاتها تاركة ورائها آلام الحياة ومآسيها ، منصرفة الى خالقها الذي تتجه اليه ، وانتهت من صلاتها فعادت الى واقعها المرير ، وما هي عليه من حيرة قاسية تقف بها على مفترق طريقين ، طريق السعادة المادية في الدنيا الفانية ، وطريق السعادة الروحية في الصمود على الإيمان والذي يصل بها الى السعادة الحقيقية في الحياة الباقية بعد أن يحقق لها في الدنيا ايضاً ، مفهوم السعادة الواقعية ، الناتجة عن السير الصالح في

خط الإسلام ، وتعاليمه ويبتعد بها عن المشاكل والويلات ، التي يجرها الانحراف عن هدى الإسلام ، طريق يفتح أمامها أبواب الدنيا ببهرجتها الخلابة ، واساليبها الخادعة ، ونعيمها الموهوم ، وطريق يأخذ بيدهـا الى مطلع الهـداية ، ويثبت أقدامها على جادة الصواب ، ويشدها الى إسلامها وما فيه ، من مثـل ومفـاهيم ، وقيَم ، واخـلاق ، فيشعـرهـا بلذة الأنتصـار ، ويكللها بـأكاليـل الصمـود ، والثبـات ، وهي بطبيعتها فتاة مسلمة تأبى أن تختار الطريق الدنيوي الخادع ، ولكنها تخشى أن تضعف حيال التيارات ، او تنهار امام الوعد والوعيد ، وهذا ما جعلها تقضي ليلتها ساهرة تتطلع الى الفجر بصبر نافذ ، ولم تكد تنتهي من صلاتها حتى رفعت يديها نحو السماء قائلة ، يا رب انك تعلم اني فتاة يتيمة فقـدت ابوي وأنـا بعـد صغيـرة ، وذهب أخي الى حيث يستكمل دراسته في الخـارج ، فخدعتـه أوروبا بحضـارتها المزعومة ، فنساني أو تناساني ، وانجرف وراء لهوه ومجـونه ولكنك وبرحمتك يا رب ، عوضتني بنور الإسلام الذي أشرق على جنبات روحي فأضاءها ، ونفذ الى العميق من مشاعري واحاسيسي فوهبها الأمن والرضاء ، واستقر في صميم فكري فوجهه الوجهة الصالحة في الحياة ، وقد مكنتني يا مولاي ، بما وهبته لي من سلاح الإيمان ، وقوة العزيمة ان ارتفع بنفسي عن كل وهدة ، واحتفظ بفكري وقلبي نقيين طاهرين ، لم تدنسهما الحضارة الكاذبة ، ولم يستهوهما التمدن الخـادع ،

بأساليبه البراقة ، ولم تضللها الفكر الوافدة ، بسمومها ، وهكذا مكنتني يا رب ، أن أشق طريقي في الحياة قانعة راضية ، وكنت أشعر يا إلهي بعد كل انتصار أحرزه في مضمار هداية البنات المخدوعات أشعر بسعادة تنسيني حرماني

من حنان الأبوة ، والأمومة ، وحماية الأخوة كنت اعوض بتلك السعادة عما الاقيه ، من قساوة عمي الذي تعهدني ، هذا العم الذي يستهين بجميع ما اؤمن به من مثل ، وقيم ، ومفاهيم ، ولكن ؟ هذا الوافد الغريب هذا الشاب المائع الماجن ، الذي سحر عمي ببريق أمواله ، واستهواه بابواق سياراته العديدة ، هذا الذي جعل حياتي جحيما منذ أطل على هذا البيت ، ولاحت لعين عمي عماراته الشاهقة المرتفعة في سماء بغداد ؟ هذا الذي تجرأ على طلب يدي وهو يجهل اني لا انظر اليه من وراء عماراته وسياراته ، بل انني انظر اليه بمنظار الواقع ، فانفر منه بمجونه ، وميوعته واخشاه لتحلله وانحرافه ، ولكن عمي ، هذا الرجل المغرور ، لم يزل يتعقبني بفتاه هذا بالوعد تارة ، وفي الوعيد اخرى ، انه يصور لي الفردوس الأرضي غافلاً عن فردوسك يا رب ، انه يبني لي الصروح الشاهقة من الاماني والآمال جاهلاً ان آمالي واماني منوطة بك وحدك ، أنا اخشى ان افقد فردوسك اذا حصلت على هذا الفردوس المزعوم ، انا اخشى ان انحرف عن تعاليم الإسلام إذا نزلت امام رغبة عمي وقرنت حياتي مع هذا الشاب ، ولكن الضغط شديد ، وأنا وحيدة فريدة

أقاوم ، واصارع ، بدون ناصر أو معين ، إلاك يا رب حتى اخي الوحيد ، انه قد انحرف مع التيار الساحق ، ولا ريب ولا أدري ؟ فلعله لو كان حاضراً لآزر عمى وساعده على ما يريد ؟ فأنا لا اعرف شيئاً عن اخلاقه وما انتهى اليه ، فقد تركني فتية صغيرة ، ولم يعد لحد الآن ، ناسياً أن لديه اختا هي احوج ما تكون اليه ، والى رعايته وعنايته لقد نساني أو تناساني بالمرة ، ولكنني لم انس أخي ، لقد كنت أدعو له بالهداية على طول الخط ، فارحمني يا ربي برحمتك ، ولا تتركني انجرف الى الهاوية راضية أو مرغومة بعد قليل سوف يستأنف عمى عملية التعذيب ، ويعاود كلمات التهديد والوعيد ، انك تعلم يا إلهي انه حبسني في غرفتي هذه منذ يومين ، محاولا اخضاعي لما يريد ؟ ولهذا فإني خائفة يا رباه ولكنني سأحاول الصمود ، سوف اقف امام كل شيء ، حتى تصلني رحمتك ورضوانك ؟ وكأن هذه المناجاة أسبغت على وفاق بعض الشعور بالراحة النفسية بعد ان ناجت ربها القادر على كل شيء واوكلت اليه زمام أمرها في الحياة ، وهل هناك راحة نفسية أعمق من راحة الإنسان السائر في طريق الله ؟ وهل هناك اطمئنان اعمق من اطمئنان الذي يسلم أمره الى الله ؟ وهل هناك شكاية اكثر تأثيراً من الشكاية الى الله ؟ وهذا ما جعل وفاق تشعر بنعاس هو أشبه ما يكون بالاستسلام ، وفعلا فقد أسلمت نفسها للنوم بعد ليلة طويلة قضتها ساهرة ، ولكن اغفاءتها تلك لم تستمر

سوى فترة قليلة فقد استفاقت على صوت عمها وهو يقرع النافذة صائحاً بصوته الحاد ، ألا تزالين نائمة يا عجوز القرون الوسطى ، فنهضت مذعورة واجابت بانكسار ، نعم يا عماه فقد اخذتني سنة من النوم ، قال العم وقد حاول ان يلطف صوته : أراك منبسطة الوجه في صباحك هذا يا وفاق ؟ لعلك قد عدت الى الحقيقة وتركت وراءك عالم الخيال ؟. فحاولت وفاق ان تبتسم ، ثم قالت لقد كنت اعيش دائماً في عالم الحقيقة يا عماه ، قال العم ، ولكنها حقائق القرون الماضية ، وليست حقائق القر ن العشرين ، والآن . فإذا كنت قد عدلت عن فكرتك العفنة فتعالي لأفتح لك الباب بيدي هذه التي سوف تفتح لك أبواب السعادة في الحياة ، قالت أنا لا أريد ان تفتح لي ابواب النعيم الدنيوي لتسد أمامي أبواب الرحمة والغفران ، أنا لا ابيع آخرتي بدنياي يا عماه فارحمني ودعني وما أريد ، فزجر العم قائلاً أنا لن أدع الفرصة تفلت من يدي بسهولة ، أنا لا أريد أن تبقي في صومعتك هذه متلفعة بالأغطية السوداء منطوية على نفسك مع الكتب والأوراق ، انك تجلبين عليّ العار والشنار ، فتهدج صوت وفاق وهي تقول انا هكذا كنت وهكذا سوف أبقى يا عماه قال إذن فاخرجي من بيتي فلم أعد اطيق بقاءك وانت على ما عليه من أسلوب منحرف في الحياة ، فرفعت وفاق وجهها نحو السماء وكأنها تطلب المعونة من الله ثم قالت بقنوط هل تعني ما تقول يا عماه ؟ قال نعم

يكفيني ما سببت لي من مشاكل وما كدرت علي صفو حياتي بأفكارك ومثلك ، انك مخيرة بين ان ترضي بهذا الشاب زوجاً او ان تخرجي من بيتي على أن لا تعودي إليه ، لأرى مدى ما تنفعك مفاهيمك ، ومدى ما ينصرك اسلامك الذي تدعين قرري مصيرك يا وفاق . فأطرقت وفاق برهة ثم قالت لقد قررت . قال اترضين بهذا الشاب اذن ؟ فقالت وفاق بصوت رصين . لا ، انا لن ابيع ديني بدنياي ، فثار العم واندفع نحو الباب يفتحه ويقول اذن تعالى واخرجي فلم يبق لك مكان في هذا الدار ، أما واني لآسف على ما بذلته في سبيلك من جهود ، اذهبي وفتشي عن إسلامك او عن اخيك الذي اهملك وتركك بعد ان عرفت كيف يعيش ، اخرجي بسرعة ، فلم أعد اطيق بقاءك في البيت وكان العم يتكلم ووفاق تلبس ابرادها للخروج ، ولم تكن تملك من مال الدنيا شيئاً عدى حلية ذهبية فحملتها في حقيبتها ثم انثنت الى مكتبتها الصغيرة فاختارت منها المصحف الشريف ، وبعض الكتب الإسلامية ، ثم توجهت الى عمها قائلة ألا تزال تصر على رأيك يا عماه ؟ ألا تندم على ما أنت مقدم عليه ؟ فأزبد العم قائلاً أبدا أنا لن اضمك في بيتي بعد الآن ، فلم يعد هناك من أمل ، فاخرجي وفتشي عن إسلامك ومفاهيمك ونادي اليك أخاك الذي أهمل وجودك وتناساك ، فرفعت وفاق طرفها نحو السماء ثم قالت وهي تتقدم نحو الباب نعم اني ذاهبة يا عماه ، واني لسعيدة لانتصاري هذا ، فقد اكمل

الله نعمته علي . والهمني القوة في العقيدة ، والثبات على الإسلام ، فوداعا يا عماه ، وكانت وفاق تنتظر ان يرجع عمها عن قراره في آخر لحظة لكنه شيعها بكلمات السباب حتى توارت في منعطفات الشارع ، وهناك ، شعرت وفاق بضيعة ما فوقها ضيعة ، انى عساها ان تذهب ؟ والى أية ناحية تتجه ؟ وقد غدت وحيدة في هذا العالم الواسع ، غريبة عن مجتمعها الذي يحيطها ، المجتمع الذي تستنكر عليه أعماله ويستنكر عليها أعمالها ، وتنقم عليه لفساده ، وينقم عليها لصلاحها ، فرانت عليها سحابة يأس مريرة اسلمتها لحيرة قاسية ، وفيما هي غارقة في لجة الإنفعالات طرقت سمعها نغمة محببة وهي ترتل آيات القرآن الكريم ، وانتبهت على المقرىء وهو يتلو هذه الآية ﴿أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾[١] ، فشعرت وكأنها هي المخاطبة في هذه الآية وتجدد في قلبها الأمل وهي تستمع الى وعد الله بالنصر فاستعادت في لحظة بإيحاء من هذه الآية المباركة جميع ما لديها من عزيمة ، وكل ما تملك من ثبات ، وفكرت الى اين تتجه ! ولكن بروح مشرقة ونفس مطمئنة ، فخطرت لها صديقتها وداد : ماذا عليها لو ذهبت الى هناك وطلبت منها

---

(١) سورة البقرة الآية ١١٤

ان تكلف اخاها بالبحث عن أخيها الغائب ؟ فقد كان صديقه قبل ان يسافر ولعلها ان وجدت أخاها او عرفت بمكانه سوف تتمكن ان تكتب اليه وتطلب منه ان يعود بعد ان تحدثه بما هي عليه ، وفعلا فقد اتجهت الى بيت صديقتها وداد وخيوط الأمل تداعب اوتار قلبها ووصلت الى هناك : وما طرقت الباب حتى فتحته لها وداد ولم تكد تراها حتى احتضنتها بلهفة وشوق بالغين ، وراحت تقبلها وهي تردد قائلة تهاني لك على هذه البشرى السارة يا وفاق علم الله لقد استطرت لها فرحاً من اجلك يا اختاه . فأنكرت وفاق على صديقتها هذه التهاني والتبريكات وتساءلت في حيرة عن أي شيء تهنيني يا وداد فانبرت وداد تقول اولم تصلك رسالة من أخيك يا وفاق أولم تعلمي انه في طريقه الينا وانه سوف يصل اليوم او غداً وكانت هذه البشرى السارة اكثر مما تتحمله وفاق فتهاوت بين يدي صديقتها وهي تردد : احقا ما تقولين ؟ فأخذت وداد بيدها وقادتها الى غرفتها حيث جلستا هناك وما ان استعادت وفاق رشدها من أثر المفاجأة حتى خطر لها أمر هالها انها قد غفلت عنه وهو ان أخاها قد إنجرف مع التيار ، وتلونت نظرته للحياة بالمنظار الغربي ، اذن فهو صورة ثانية عن عمها الذي نبذها قبل ساعة . فالتفتت نحو صديقتها تقول بجد رصين وكيف علمت ذلك يا وداد وهل عرفت أي شيء قد دعاه الى العودة ؟ فقرأت وداد ما دار في خلد وفاق فابتسمت لها مشجعة ثم قالت لقد كتب الى اخي يقول انه لم

يعد يستطيع البعد عنك بعد الآن وبعد أن عاش حياة الحضارة المزعومة ، واطلع على مآسيها وفواجعها ، وتعرف على أمراضها وسمومها ، وانه سوف يعود ليحميك من شر الحضارة الخادعة ، والتمدن المزعوم، هاك ورسالته فاقرأيها ليطمئن قلبك يا وفاق وكانت الفرحة قد استولت على وفاق فلم تعد تتمكن من القراءة فها هو الله تبارك وتعالى يستجيب لها وينصرها في احرج لحظة ، وها هو اسلامها يشد ازرها كما كانت ترجو وتأمل وها هي مثلها ومفاهيمها تنتصر وتعيد اليها الأخ الغائب بعد ان كفر بأفكار أوروبا وحضارتها الموهومة ، فطلبت من وداد ان تقرأ لها الرسالة فقرأت لها وداد رسالة الأخ وقد جاء فيها : لقد انخدعت يا صديقي فترة من الزمان ، ظننت فيها ان هذه الحياة المائعة هي الطريق الى السعادة وقد شغلتني دنيا الغرب ببهرجها ، وصرفتني عن واجبي نحو نفسي ونحو اختي التي تركتها صبية صغيرة ، وانا اقر لك بذلك يا صديق الطفولة والفتوة ، ولكن لا عجب فقد نسيت نفسي أيضاً واضعتها على مذبح الشهوات ، وكان ان أخذت الحقائق تنكشف لي واحدة بعد اخرى فإذا بهذه العمارات الناطحة للسحاب الساهرة للصبح على قرع الكؤوس وضرب الدفوف اذا بها تضم افضع المآسي واهول المصائب ، واذا بهذه النوادي الزاخرة باشكال اللهو والمجون ما هي إلا أحابيل تضليل للشباب المخدوع، وعملية وأد لمستقبله وكيانه في الحياة ، وإذا بهذا الجيل من النساء

المزهوات بالمساواة مع الرجـل اذا بهن لسن سوى سلعـة رخيصة جدا بين أيدي الرجال يتحكم فيهن الرجل كما يريد ويبرزهن بالشكل الذي يهوى ، وإذا بهذا الصخب في الحياة العامة ، وهذا الركض وراء كل ما يسمى حضارة ، وكل ما يسمى تمدن ، إذا به يخفي هما دفينا ، ومشاكل كبار ، يعج بها المجتمع الغربي وكل من سار على شـاكلته ولهـذا فقد انتبهت الى نفسي وعدت بفكري الى اختي التي لا ريب انها الآن قد بلغت الروعة في ريعان الشبـاب والفتوة فخشيت عليها مصير هذه الفتيات ، وخشيت عليها أن تنحرف مع التيار الذي أخذ يغزو البلدان الإسلامية تحت اسماء مستعارة من التمـدن والتقدم ، فعـزمت أن أعود الى وطني لأحمي اختي ، واصونها بمهجتي عن الأنحراف ، نعم أنا أريد أن أعود ، لآخذ بيدها نحـو جادة الصـواب ، ولنذهب معـا نلتمس السعادة الواقعية في تعاليم الإسلام .

ثبات

كان المساء كئيباً تلبدت سماؤه بالغيوم ، وزمجرت الريح فيه تنذر بقرب هبوب العاصفة ، وقد ضمت خديجة اليها اولادها الثلاث في غرفة متواضعة وهي تفترش بساطاً بالياً لم يبق من معالمه شيء ، وكانت ترفع طرفها الى السماء خلسة عن أطفالها لتتابع تطوراته خشية ان تهب العاصفة قبل أن يعود زوجها من الخارج ، حتى سمعت صوت المفتاح وهو يدور في الباب فنهضت مسرعة وأهابت بأطفالها قائلة قوموا فاستقبلوا أباكم فهتف صغيرهم قائلا وهل جاء لنا بالخبز يا أماه ؟ فنهرته بلطف قائلة ان هذا لا يهم لا تلق عليه هذا السؤال . واندفع الأولاد نحو الأب مهللين ومعهم أمهم وقد انطبعت على وجهها ابتسامة طيبة وكأنها لم تكن تعيش ساعات القلق المريرة من قبل وكان الأب يحمل على يديه بعض الأرغفة من الخبز مع قطعة من الجبن فسارعت الأم الى استلامها منه ولم تمض فترة حتى أعدت وجبة العشاء المتواضعة في أوان نظيفة وان كانت قد فقدت لونها لكثرة الأستعمال ، وتحلقت الأسرة حول هذه المائدة البسيطة

وحاولت الأم ان توجد جوا من المرح والسعادة بين افراد الأسرة وما أن فرغوا من الطعام حتى استسلم الأطفال لنوم عميق يحلمون فيه بأنواع الحلوى واشكال العرائس واللعب ومضت فترة سكوت على الأبوين قطعها الأب قائلا في مرارة : وهكذا ترين هذه السنة وهي تكاد تنتهي دون أن احصل على عمل ، وقد استنفدنا كل ما كنا قد ادخرناه وبعنا ما تمكنا من بيعه من أثاث البيت ، ولم يبق لدينا ما يمكننا من مقاومة الجوع ، فقالت الأم بصوت حاولت أن تجعله متفائلاً لقد بقى لدينا الإيمان ، وبقيت لدينا الإرادة ، وهما الطريق الى كل خير وسعا دة ، فقال الأب واي خير وسعادة ونحن نرى الإيمان يجرنا الى ان نجد اولادنا يتضورون جوعاً في اسمال بالية ، أما وربي انه الإيمان الذي جعلني اتحمل هذا الشظف من العيش وانها الهداية التي جرعتني كؤوس الفقر والحرمان واحدا بعد واحد ، فقد كنت اتقلب في بحبوحة من العيش قبل أن .. فقطعت الأم كلام زوجها قائلة واية بحبوحة تلك ؟ ومتى كان القمار رصيدا للأسرة ؟ وما قيمة الغذاء الذي يملأ الجوف نارا ؟ والكساء الذي تعقبه سرابيل النار ؟ نحن لم نكن سعداء ومصيرنا تحدده الصدفة او الخدعة ، نحن لم نكن سعداء حينما كنا نشبع على حساب جوع غيرنا ، ونلبس في الوقت الذي يتعرى فيه سوانا ، أية سعادة في ذلك الجحيم ؟ قال الأب ولأجل هذه المفاهيم اقلعت عن القمار ، ولأجل هذه المفاهيم أيضاً وصلنا الى ما

نحن عليه ، قالت الأم ان لقمة خبز يابسة نأكلها ونحن بها احقاء لهي افضل بكثير من الموائد العامرة بأطائب الطعام نأكلها بعد ان ربحنا ثمرها على الموائد الخضراء ، وبعد أن سبب ربحنا الخسارة لسوانا من الناس ما أهمية اكلة لذيذة او بزة انيقة يعقبها عقاب الله ، قال الأب أنا أعرف كل هذا يا خديجة وأنا احمد الله الذي هداني للإيمان واشكرك لمساعدتي على النهوض من ذلك الحضيض ولكن حياة الفقر مريرة وعذاب الحاجة لا يطاق . . قالت خديجة مهما كانت حياة الفقر يا حسان فهي حياة زائلة يخالطها الأمل ويعتمل بها الرجاء وقد يعقبها اليسر او يتبعها الرخاء ولكن الحياة الأخرى الحياة الحقيقية التي لا تنتهي ولا انقضاء لها تلك الحياة التي يجب ان نحسب لها حسابنا ونهيء للرحيل اليها امتعتنا من الأعمال الصالحة الخيرة ، فلا تأسف على ما فات ، واحمد الله على ما أعده لك من نعيم التوبة ومثوبة الصبر على الفاقة وسبيل رضاء الله واجتناب معاصيه ، ولا تدع لليأس اليك سبيلا . قال الأب أنا لست يائساً يا خديجة ولكني اخشى ان أنهار امام هذه الصعاب فيزلني الشيطان وأعود الى ما ابتعدت عنه . قالت الأم لا تزال لدي حلية حرصت عليها كذكرى لزواجنا وسوف ابيعها منذ الغد ونعيش بثمنها لفترة من الزمان سيمدنا الله خلالها بعونه ويفتح امامك طريقاً للعمل الحر الشريف ، قال الأب اذن فلا كن على ثقة من نفسي الى فترة اخرى ! قالت الأم نعم كن على ثقة يا حسان فإن الله

لن يترك عباده ييأسون من رحمته ، ولا يزال في الدنيا أشخاص يثمنون الأعتدال ويقدرون الصلاح ، وسوف ترى كيف يبتسم لك المستقبل ويفتح لك الحظ السعيد ذراعيه ، فتأوه الأب ثم قال اذا صحت امالك يا خديجة فما هي الحكمة من هذه الأزمة التي نجتازها ؟ فقالت الأم انها فترة اختبار ومرحلة تجربة لك ولنا جميعاً ألم تسمع الآية التي تقول ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾[1] فقال الأب ومتى سوف تنتهي هذه الفترة القاسية ؟ قالت الأم متى ما اجتزنا الأمتحان بنجاح فقال الأب وما هو النجاح المطلوب ؟ قالت هو ان نتحمل آلام الجوع وويلات الفقر دون ان نمد أيدينا الى المال الحرام واني لعلى ثقة من أن فترة الأمتحان تكاد ان تنتهي بنجاحنا والحمد لله . . والى هنا انتهى حوار الزوجين فاستسلما للنوم وقد أوكلا امرهما لله الواحد القهار ، واستفاقت الأم عند طلوع الفجر فأيقظت الأب ليؤديا صلاة الصبح ثم انصرفت الأم لتهيء الشاي قبل ان يستيقظ الأطفال وانهمك الأب يقرأ بعض سور القرآن الكريم واشرق الصبح ، واستفاق الأولاد ، فقدمت الأم لهم أكواب الشاي ولكن احدهم احتج قائلاً اين الخبز إذن يا ماما ؟ إن صديقي حامد واخوته يفطرون على الخبز والزبد والبيض في كل

---

(١) سورة البقرة الآية ١٥٥

صباح ، فشعرت الأم بفؤادها وهو يتمزق لوقع هذه الكلمات ، ولكنها طبعت على قسماتها ابتسامة جريحة وقبلت طفلها وهي تقول سوف يكون افطارك منذ الغد كما تحب وتشتهي يا عزيز الروح ان شاء الله ، فتساءل الطفل ببراءة لما قلت ان شاء الله يا ماما ؟ قالت الأم لأن الله هو الذي يرزقنا يا ولدي وهو الذي يمكننا من تهيئة الغذاء والكساء ، ولولا ارادة الله تبارك وتعالى لما تمكنا حتى من استنشاق الهواء ، فقال الطفل وهل سوف يرزقنا الله الخبز والبيض عند الأفطار يا ماما ؟ قال الأم نعم نعم يا ولدي ان ذلك سوف يكون ان شاء الله ، وكان الأب يستمع الى ما يدور بين ابنه وزوجته وهو مذهول امام قوة الإيمان التي تشد هذه الزوجة الصالحة ورأى ان عليه ان يؤازر هذه الأم المجاهدة ويساعدها على بعث روح الأمل والثقة في نفوس الأطفال فبدأ يتحدث اليهم عن المستقبل ، وكيف ان الله سوف يهديه الى عمل يدر عليه الربح الكثير ، فيشتري لهم ما يشتهون ، من الحلوى ، والفواكه ، فيأكلون كما يأكل حامد واخوته ، ويلبسون كما يلبسون ، وما أن اتم حديثه الذي استحوذ على اهتمام الأطفال حتى سمع طرقا على الباب فتوجه ليفتح الباب وهو يتساءل في سره عن الطارق ؟ وقد قلّ من يطرق بابه بعد أن انفصل عن جماعة اللهو والمجون ، وكأن قلب الأم قد آمل ان تكون هذه الطرقات فاتحة خير في حياتهم فوقفت في مكانها تنتظر ومضت فترة ليست بالقصيرة وان كانت في حساب

الأنتظار طويلة جدا وعيون الأم متجهة الى مدخل الدار ، وعاد الأب وقد تهلل وجهه واشرقت اساريره فاندفعت اليه الأم وهي تقول ظني بأن فترة امتحاننا قد انتهت يا حسان فأخذ بيدها في حب وخشوع وقال نعم يا شريكة حياتي ، ورفيقة آلامي وآمالي ، نعم يا عزيزتي ، لقد انهى الله تبارك وتعالى فترة الأختبار واجتزناها بنجاح والحمد لله ، ولكن بجهودك وبصمودك وايمانك . . حقا لقد تمثلت فيك كلمة امامنا جعفر الصادق حينما قال «المرأة الصالحة خير من الف رجل غير صالح» ويبدو ان انكشاف الأزمة كان بتوفيق من الله تبارك وتعالى وبسبب من جهودك ايضاً ؟ وهنا قالت خديجة بصوت تهدج من التأثر لعله كان رسول الحاج صاحب اليك ؟ قال بل انه الحاج صاحب نفسه ، انه زوج صديقتك أم جهاد ، وكان يقول انه منذ مدة يفتش عمن يتمكن ان يأتمنه على ادارة تجارته ومساعدته في انجاز الأعمال وقد علم متأخرا من زوجته بحاجتي الى العمل وبملابسات وضعي الماضي ، والحاضر ، فرأى ان عليه ان يختارني أنا دون سواي ، ليكون الأداة التي يهيأها الله لانتشال عباده الصابرين من وهدة اليأس والقنوط ، وقد قال ضمن ما قال انك الآن اطهر واعف من سواك لأن التائب عن الجرم يكون كمن ولدته امه .

مقاييس

انتهت السيدة سعاد من ارتداء ملابسها وهي تستعد للذهاب الى الاحتفال بمناسبة زفاف بنت صديقتها المفضلة ام سلام ثم جلست على أحد الكراسي تنتظر بنتها دعاء وكأنها عادت فشكت في حسن مظهرها فاتجهت من جديد الى المرآة ووقفت امامها ملياً ثم استدارت لتطمئن من أناقتها ثم عادت الى جلستها تنتظر وكأنها استبطأت ابنتها فقرعت جرسا الى جوارها دخلت على أثره خادمة شابة قد جمعت شعرها على شكل تسريحة عالية وارتدت (فستاناً ميني جوب) مفتوح الصدر ، يكشف عن النصف الأعلى من النهدين ، وصبغت شفتيها بالروج الأحمر ، فنظرت السيدة سعاد اليها برضاء ، وتأملت أناقتها بدقة ثم قالت أراك قد انتهيت من استعدادك قبل سيدتك يا سنية ؟ أذهبي وقولي لها أن امك تنتظر ، فإن الطريق بعيد ، ويلزمنا ساعة من الزمان حتى نصل الى هناك ، ومن الضروري ان نكون أول الوافدات لصلتي الوثيقة بالأم وصلة دعاء بالعروس . فاستدارت الخادمة في غنج وهي تقول امرك يا مدام ، ورأت السيدة سعاد ان

تستغل فترة انتظارها لتتأكد من اناقتها ومكياجها من جديد فتوجهت الى المرآة والقت نظرة عامة على ملابسها، ومكياجها، وتسريحتها ثم عادت الى جلستها وهي تتأفف لتأخر ابنتها، وتمتمت تقول ان الساعة تقارب السابعة والنصف ويلزمنا ساعة للطريق وسوف يبدأ الأحتفال في الساعة التاسعة وما كادت تتم كلماتها حيت دخلت سنية وهي تتأود في مشيتها بدلاعة فنظرت اليها السيدة سعاد مستفهمة فابتسمت البنت في مكر وقالت ان الست دعاء سوف تتهيأ يا ستي، فاستشاطت السيدة سعاد وهي تقول : ماذا؟ سوف تتهيأ؟ إذن ماذا كانت تصنع لحد الآن فتمايلت سنية ثم ضحكت وهي تقول كانت تصلي قالت السيدة سعاد : كانت تصلي؟ اذن فلم تكن تستعد طيلة هذه المدة؟ يا لشذوذ هذه البنت المسكينة، ثم أردفت السيدة سعاد قائلة اذهبي اليها مرة ثانية يا سنية وقولي لها ان امك لن تنتظر اكثر من عشر دقائق اخرى فذهبت سنية ثم عادت لتقول انها آتية يا مولاتي فأثارت هذه الكلمة السيدة سعاد ونهضت واقفة وهي تقول ماذا تقولين؟ وكيف تمكنت من الاستعداد خلال هذه الفترة القصيرة، لا شك انها سوف تجلب علي العارفي هذه الحفلة، اسفي عليها وعلى جمالها الرائع وهي تمحو معالمه باهمالها وشذوذها، وللمرة الرابعة اتجهت السيدة سعاد نحو المرآة وكأنها تريد ان تعوض بأناقتها عن اناقة ابنتها وما أن عادت من امام المرآة حتى رأت ابنتها داخلة وقد انطبعت على

قسماتها بسمة ملائكية زادتها جمالا وبهاءا وهي تقول : ها أناذي على استعداد يا أماه ، ولكن السيدة سعاد تسمرت في مكانها وهي تتأمل ابنتها بعين ناقدة ثم انفجرت تقول بتهكم طبعا طبعا انك على استعداد وأي استعداد هذا أو سوف تذهبين الى الاحتفال بهذا الثوب الطويل المغلق ؟ ومع هذا الشعر البسيط المهمل ؟ وبهـذه الأكمام الـطويلة ؟ ثـم اين المكياج ؟ وهل هناك فتاة لا تعرف ان ترسم عينيها وشفتيها غيرك يا مسكينة ؟ لقـد اخرتيني طيلة هذه المدة وقد كنت آمل ان تكوني مشغولـة باعـداد نفسك للحفلة فـإذا بك كنت تصلين ، ثم تقولين باعتزاز ها انا ذي على استعداد ، وكانت دعاء تستمع الى امها بهدوء ، وبعد أن انتهت الام من حملتها الثائرة قالت دعاء بصوت مؤدب اما أني كنت اصلي فان الواجب الديني كان يحتم على ذلك لأني سوف لن اتمكن من الصلاة خلال الاحتفال وسوف لن ينتهي الاحتفال قبل نهاية وقت الصلاة ، وأما ثوبي فهو ليس بالطويل يا اماه أبدا ولكنه ليس ميني جوب واما شعري فهو مصفف بشكل بديع ولكن بدون أن أجلس ساعات في صالون الحلاقة استمع الى انغام الموسيقى والوث شعري بمختلف أنواع المواد ، وأما المكياج ؛ فأنا لا أجهل طريقة وضع المكياج يا أماه ولكني لا اشعر بالحاجة الى ذلك ولا اريد ان اعتمد عليه في ابراز شخصيتي بين المجتمع ، فهزت الأم رأسها بأسف وتبرم وتمتمت تقول دعينا نمضي قبل ان ترتقي المنبر وتمطرينا بسيل من المواعظ

والحكم كعادتك دائماً ولكني احس بمرارة الأسف وأنا أرى سنية تفوقك زينة واناقة ، فقالت دعاء اذا كانت المقاييس تقاس بهذا الشكل من الاناقة فان لسنية كل الحق ان تتقدم علي في هذا المضمار ، قالت السيدة سعاد الواقع اني لست ادري كيف ستقابلين وجوه المجتمع من سيدات وسادة هناك ! وبأي صورة باهتة سوف تظهرين وسط أجواق المطربات والمغنيات ؟ فردت دعاء بهدوء ان الاحتفال ليس بمختلط يا أماه ولو كان مختلطاً لما ذهبت اليه بأي حال من الأحوال ، ثم ليس هناك أي جوق غنائي ، أو أي مجموعة طرب ، فقهقهت السيدة سعاد وهي تقول مستهزئة اذن فإن الدعوة لأجل القاء خطاب ديني في فضل الحجاب ؟ فكتمت دعاء غيضها وقالت بهدوء : لا ، ليس هناك خطاب ديني ولكنه اجتماع لوداع العروس قبل رحلتها الى شهر العسل ، ولاحظت الأم ان دعاء تتكلم بجد وانها مستعدة لاطالة الحديث ، فخشيت ان تتأخر عن بداية الاحتفال فقالت تريد ان تنهي الحديث هي بنا الآن ، وخلال الطريق حدثيني بما لديك من أخبار الاحتفال ، فاتجهت دعاء الى حيث اتت بمعطف اسود طويل فضفاض وارتدته ثم لفت حول رأسها طرحة سميكة سوداء وكانت امها قد اعتادت ان تراها في هذا الزي ولذلك لم تعترض من جديد واستقلتا السيارة ومعهما سنية تحمل علبة فيها وسائل مكياج سيدتها لتصلح ما يفسد من مكياجها خلال الطريق ، وبعد أن قطعت السيارة

النصف الأكثر من الطريق سألت السيدة سعاد ابنتها كيف عرفت ان الحفلة غير مختلطة يا دعاء؟ وانها خالية من الأجواق الغنائية ، قالت دعاء كان من المفروض ان تكون الحفلة مختلطة وان تقام في احد النوادي العامة وذلك تمشياً مع ذوق السيدة أم العروس ، ولكن صديقتي العروس ابتهال وهي فتاة مؤمنة قوية في ايمانها كما تعلمين ، أبت ان تكون حفلة زفافها على هذا الشكل من التحدي لأحكام الشريعة وآداب الإسلام ، وحصل صراع ، بين الأم والبنت ولكن انضمام فكرة العريس الى فكرة العروس ، وإصرار ابتهال على الغاء الاحتفال بتاتا ، جعل أم العروس تنزل امام رغبة ابنتها وتجعله احتفالاً خالياً من كل انواع التفرنج ، وكانت السيدة سعاد تستمع الى ابنتها وعلامات الاستغراب بادية على ملامحها ثم قالت وهل ان العريس مثل العروس يحمل نفس الأفكار الرجعية؟ فابتسمت دعاء بمرارة لعبارة امها القاسية وقالت طبعاً انه مثلها من ناحية الإيمان والاعتدال ولو لم يكن كذلك لما رضيت به زوجاً فالفتاة المؤمنة لاتقرن حياتها مع زوج ماجن لا يماشيها بأفكارها وعقيدتها لأن اختلاف الأفكار هو أقوى معول في هدم الحياة الزوجية ثم كيف تعتبرين هذه الأفكار افكارا رجعية وهي من صميم ديننا وقد نص عليها قرآننا ، ان افكارنا هي الأفكار الصالحة يا أماه ، وان فكرة السفور والاختلاط هي الفكرة الرجعية التي تعود بالإنسان الى العهود البدائية حيث لا شريعة سماوية ، ولا مبادىء

انسانية ، وكأن حديث دعاء كان قد أثر على أمها لأنها ردت عليها قائلة ولكن بغير حماس ان الحضارة تدعو الى ذلك يا دعاء ، قالت دعاء أية حضارة هذه يا أماه انها حضارة مبطنة بالمآسي والأهوال مغلقة بالاغلفة البراقة التي تخفى وراءها عوامل الشر ، والنزعات الحيوانية ، والأغراض الشخصية ، نحن لا نؤمن بهذه الحضارة الخادعة يا اماه ، قالت الأم بنغمة لا تخلو من أسف ولكنه المفهوم العام في زماننا هذا ، والمقياس الذي تقاس به الشخصية يا دعاء ، فردت دعاء بحماس ولهذا فنحن نسعى الى ابطال هذا المفهوم ، ونحاول ان نثبت للمجتمع أن في امكان الفتاة ان تبرز لسبب من كمالها الشخصي وليس على حساب وسائل المكياج ومستحدثات الموضة ، فهي حينما تبرز بكمالها المستقل تشعر بلذة الكمال ونشوة الانتصار ، خلاف ما لو برزت على حساب تخطيطات مصممي الأزياء وواضعي خطوط المكياج فهي حين ذاك تكون وسيلة للعرض لا اكثر ولا اقل ، وعند هذا وصلت السيارة الى باب الاحتفال فما كان من الأم الا وربتت على ظهر ابنتها قائلة بارك الله فيك يا دعاء ، ليتني اتمكن ان اكتسب منك هذا اليقين ، وهذه الروح المطمئنة الواثقة .

مذكرات

١ / ٢ / ـ١٩٦

لقد عشت بالأمس ساعات عصيبة تقاذفتني فيها عوامل القلق ودانت علي خلالها سحب اليأس ، انها كلمات لمياء ، حينها البت علي بنات الصف وهي تقول . . ما أرى حجاب هدى إلا ضرباً من افكار المراهقة الطائشة انها تحاول بذلك ان تجلب اليها الأنظار ؟ كانت هذه هي كلمات لمياء التي اسلمتني الى حالة نفسية مريرة شككت خلالها الى فترة في حقيقة مشاعري الذي جعلني اعيش تلك الساعات القاسية . بالله ما اقسى ان يشك الإنسان في يقينه او يتردد في واقعه ، نعم انه لشعور مؤلم ، ومؤلم جداً عفا الله عن لمياء ما اقساها وهي تكيل الاتهامات للبنات المؤمنات ، لقد جعلتني كلماتها أعود الى الدار وكل ذرة في كياني تنطق بالحيرة ، والقلق ، والألم ، ثم راجعت نفسي بعد أن تمكنت من تهدئة عواطفي الثائرة ، راجعت نفسي لأرى مدى ما تعنيه بالنسبة لي كلمات لمياء ، وناقشت الموضوع من شتى نواحيه ، فرأيت اولا ، ان دور المراهقة ليس دور الشذوذ في الأفكار كما تدعي

لمياء ، وإنما هو دور النمو نحو الكمال الجسمي والعقلي وان الفكر يتفتح خلال هذه الفترة كما لا يتفتح في فترة سواها . وذلك بعد أن يكون قد تخلص من شوائب الطفولة ولم يتعب بعد من جراء تضارب افكار الحياة ، إذن فإن فكـرتي في خصوص الحجاب لا يمكن لها ان تكون فكرة ناجمـة عن شذوذ فكري ، ثم رأيت ثانياً ، ان لفت الأنظار لا يتأتى بسبب من هذه الابراد التي أتلفح بها بل العكس تماماً ، فقد سبق ان مار ست اساليب لفت الأنظار ، وذلك قبـل ان يهـديني الله للإيمـان ، ورأيت كيف كانت أنـظار الـرجـال تلاحقني بندائهـا الصارخ أينـما اتجهت ، اني كنت المح في وجوههم جوعتهم الشرهة وتلذذهم بالعرض الجاهز السخي ولكن ، الآن ما الذي عساه يلفت اليه انظارهم من هذا الحجاب ؟ ثم حتى لو لفت نظرهم فانه سيعود اليهم خائباً وهو حسير ، سوف تكون كل قطعة من هذه الابراد رادعا لهم عن انتهاك محراب الطهر وتدنيس الكيان المقدس ثم فكرت ثالثاً ان لمياء لم تكن تعني ما تقول ، ولكنها كانت تحاول بذلك ان تثبت قدمها في الطريق الوعر الذ ي سارت عليه .

وبعد كل هذا لم أعد اشعر بوقع كلمات لمياء ، ولم يعد لدي أثر منها عدى الأسف على شبابها ان يصبح في مهب الريح ، ودعوت الله ان يساعدني على التمكن من هـداية لمياء ، وجرها الى طريق الصواب ، ونمت وأنا افكر في احسن طريقة أمد بها يد العون الى لمياء ، وقد اصبحت اليوم وانا

اشعر براحة نفسية عميقة فقد صممت ان أجاهد من أجل لمياء ، حتى اهديها سواء السبيل ان شاء الله .

٥ / ٢ / -١٩٦

لقد كنت بالأمس على موعد مع صديقتي ولاء ، وكان من المفروض ان تزورني عصراً لأجل ان نستذكر دروسنا ونستعد للامتحان ، ولكنها لم تحضر ، وانا جد قلقة من أجلها انتظرتها حتى يئست من قدومها ، حاولت ان اتصل بها تليفونياً فلم اتمكن ، قضيت الليل كله قلقة من أجلها ، ولكنها اتصلت بي قبل ساعة وقالت انها كانت محمومة ولذلك لم تتمكن من الحضور ، فدعوت الله ان يشفيها ويمنّ عليها بأبراد العافية .

أنا احب ولاء جدا وان كانت معرفتي بها لا تتعدى السنة ، ولكنها فتاة مؤمنة ، متدينة ، فاهمة ، انها تشاركني افكاري ، وتعيش معي آمالي واحلامي ، لقد جمعتني واياها الصدفة في بداية العام الدراسي ، فجذبني نحوها ايمانها ، وجذبها نحوي ايماني ، فتعارفنا وكأنا لم نتجانب من قبل ما اصدق قول الشاعر حينما يقول :

قد يجمع الرأي اشخاصا وان بعدوا
وقد يفرق خلف الرأي اخوانا

٦ / ٢ / -١٩٦

اليوم هو اليوم الذي نعقد فيه اجتماعاتنا الدينية من كل اسبوع ، نقرأ القرآن الكريم ، ونفسر آياته ، ونتمرن على تهيئة المواضيع الإسلامية ، والقاء المحاضرات الدينية ، ولا أدري هل سوف تحضر ولاء ؟ ام ان حماها سوف تعقها عن ذلك ؟

٧ / ٢ / ـ١٩٦

لقد كان اجتماعنا ناجحا ، وقد كانت ولاء هي أولى الوافدات ، مع انها كانت محمومة ، وتشكو من بعض الآلام ، ولكنها قوة الإيمان ، هي التي دفعت بها الى الحضور .

وإذا حلت الهداية قلبا
نشطت للعبادة الأعضاء

لله در ولاء ، لقد تحدثت فأبدعت واندفعت في البيان فأجادت ، وكأنها انصرفت عما تعانيه ، وحلقت بروحها وفكرها نحو هدفها الاعلى ، الدعوة الدينية .

١٣ / ٢ / ـ١٩٦ .

لقد تحدثت في اجتماع الأمس حول موضوع لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وبعد الانتهاء من الحديث قالت احدى الاخوات المؤمنات ان امها تحاول ان تفرض عليها

خلع الحجاب في بعض الحالات وتوهمها انها ما دامت مؤمنة يجب عليها اطاعة امها لأن ذلك مفروض عليها من قبل الله ، والحقيقة انني قد تألمت لحال الأم الضالة ، وحال البنت المسكينة ، التي تحاول امها ان تجعلها ضحية تحت شعار اطاعة الأم ؟ ثم اكدت عليها من جديد ان لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق حتى ولو كان المخلوق أما أو أبا .

٢٥ / ٢ / ١٩٦ـ

منذ فترة وأنا أحاول أن أتقرب الى لمياء لغرض التمكن من هدايتها ، وما أكثر ما عانيت من هذه ، وما اكثر ما تلقيت من كلماتها الجارحة ، ولكنني ولأجل غايتي المنشودة كنت اتجرع كل ذلك بصبر واناة ، كنت احدثها بهدوء وهي تجيب بثورة ، وانظر اليها بابتسام ، وهي تواجهني بالتقطيب ، ولكنني اخذت اشعر بأن ابتسامتي بدأت تسري اليها ، وان هدوئي أخذ يشملها وهي تحدثني فتفاءلت بذلك وجعلته بادرة خير ، الشيء الذي شجعني على أن أهدي لها مجموعة من الكتب الإسلامية التي تبحث عن الحجاب واسبابه وفوائده، وعن السفور ومباعثه ، ومفاسده ، وكان منها كتاب الحجاب لأبي الأعلى المودودي والعفاف لمحمد امين زين الدين ، ونظرية العلاقة الجنسية لمحمد مهدي الاصفي ، ومعركة التقاليد لمحمد قطب ، وامس عند خروجها من المدرسة طلبت مني أن ازورها في بيتها لأن لديها

ما تقوله لي ، ومع أن هذا الأمر يبدو غريباً لأن صاحب الحاجة هو الذي يجب ان يزور الطرف الآخر ولكني سائرة وراء غاية سامية ، وهدف معين ، ولذلك سوف أذهب اليها وانا راضية فرحانة .

٢٦ / ٢ / ١٩٦-

لقد ذهبت امس لزيارة لمياء ، فاستقبلتني بحرارة جعلتني لا اندم على قيامي بهذه الزيارة ، وبعد أن استقر بنا الجلوس بدأت تتحدث : تحدثت عما سمعته مني ، وتحدثت عما قرأته في الكتب التي قدمتها لها ، ثم تساءلت أخيراً هل حقا ان في امكانها ان تتعلم لو أرادت ان تتحجب أم ان الحجاب سوف يكون حائلاً دون ذلك ؟ فأوضحت لها ان الإسلام الذي فرض الحجاب على المرأة قد دعاها في الوقت نفسه إلى العلم ، بل ان نبي الإسلام جعله فريضة واجبة على كل مسلم ومسلمة ، وان لها أن تتعلم ولكن مع حفاظها على حجابها ومع تجنبها من الاختلاط مع الرجال بالشكل الذي يؤثر على محو الهالة القدسية التي تحيط بها .

٢٩ / ٢ / ١٩٦-

يالله كم أنا سعيدة اليوم ، فها أنا راجعة لتوى من المدرسة بعد أن شاهدت لمياء تلجها وهي محجبة، وتخرج منها وهي محجبة ، الحمد لله الذي فتح صدرها للإيمان ، اللهم لطفك بالبنات المسكينات ، اللهم هيء لهن سبل الهداية

فإنهن مخدوعـات ، ضللتهن افكار الحضـارة الخادعـة تحت شعارات العلم والتقدم .

فكأنمـــا التعـليم ليس بمـكن
إلا إذا برزت بغـير غـطاء

١٢ / ٣ / ١٩٦ -

لقد قالت مدرسة التاريخ امس لو نزل القرآن في هذا العصر لما أوجب الحجاب على المرأة لأن دور المرأة في هذا الزمان والنظرة اليها لا تمكن من الاستغنـاء عن المرأة ولا تستسيغ عزلها عن الحياة ، كان هذا ما قالته مدرسة التاريخ الست نهاد ، فما كان مني الا ان أطلب منهـا السماح لي بالمناقشة ، ثم قلت لها انني اناقش ما قالته من زاويتين : اولا ، ان وجود المرأة في مختلف الحضارات زمان نزول القرآن او قبله لم يكن أقل من وجودها الآن فقد كان سبق لها أن مارست شتى أنواع الظهور حتى الحكم ، فالتاريخ يحدثنا عن ملكات امثال زنـوبية ،وكيلو باطرة ، وكانت الحضارة اليونانية تركع وتسجد امام معاني الجمال الموجودة في المرأة ، ولا يزال ما نحتوه لها يعدّ من أثمن التحف الفنية ، وكذلك الحال في الحضارة الرومانية والفارسية فهم جميعاً وان كانوا قد وأدوا حق المرأة كإنسانة وشككوا في أن هل لها روح ام لا ، وهم وان منعوها عن اداء الطقوس الدينية عـلى حساب كـونها

مخلوق نجس ، ولكنهم كانوا يستغلون جمالها وأنوثتها بشكل واسع حتى أمروها وملكوها كما هـو الحال في كيلو بـاطرة ولكن ، لما أساءت التصرف قدم لها أحد الرجال ثعبانا ساماً ورجح لها ان تموت مسمومة على أن تقع اسيرة بيد العدو فتجلب لهم العار ، وهذا يدل على تجاهلهم لإنسانيتها وكيانها المستقل وإلاّ فبأي حق يفرض عليها الانتحار؟ وعلى كل حال فإن هذه الصور من تاريخ المرأة في مختلف الحضارات قبل الإسلام تدلنا على أن دور المرأة في تلك العصور لم يكن اقل أو أضيق من دورها في هذا العصر إذن فالتشريع الذي شملها حين ذاك يستمر في شموله حتى الآن . اما الزاوية الثانية التي أود أن أناقش فيها فهي ان الإسلام لم يعزل المرأة ولم يستغن عنها لأجل فرض الحجاب أبدا بل ان الإسلام هو أول من جعل من المرأة شريكة مع الرجل في بنيان الأمة كما جاء في الآية الكريمة ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر او أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾ وكما قال نبي الإسلام «النساء شقائق الرجال» والإسلام لم يفرض الحجاب لغرض عزل المرأة عن الحياة ، لما تدل عليه نفس آية الحجاب المباركة اذ يوجه الأمر فيها اولا الى الرجال لكي يغضوا من ابصارهم ، ولو كان الحجاب عزلا للمرأة عن الحياة لما وجد ما يبرر تشريع غض الرجال لأبصارهم ثم ان التاريخ يحدثنا عن دور المرأة المسلمة في حياة الأمة وكيف أنها كانت تشهد الغزوات مع الرسول تداوي الجرحى وسقي

العطشى ، حتى انها كانت تحمل السلاح في بعض الحالات بمرأى ومسمع من الرسول (ص) وكان رسول الله (ص) يسهم للنساء من الغنائم كما يسهم للرجال . ثم ان التاريخ يحدثنا أيضاً عن سيدات مسلمات باشرن بمهمة الدعوة الى الدين ، وعقدن الندوات للتوعية الدينية ، وروين الاحاديث عن الرسول ، وفسرن آيات القرآن الكريم ، كل هذا يؤكد لنا ان الإسلام لم يعزل المرأة عن الحياة ، ولم يوجه افكار المسلمين الى احتقار المرأة ونبذها ، حتى ان افكار المسلمين في سنة مقتل الصالح كانت تتقبل ان تتولى الحكم امرأة عندما ارتقت شجرة الدر الى العرش ، ويؤكد لنا أيضاً ان فرض الحجاب على المرأة ليس سوى استجابة لما تفرضه طبيعتها وتدعو اليه طبيعة الرجل ، فالرجل بطبعه وتكوينه تواق للمرأة ، والمرأة بطبعها وتكوينها خلقت لاستمالة الرجل ، اذن فظهور المرأة امام الرجل من حقه ان يثير في الجنسين الغرائز المكبوتة ، وهذه الغرائز اما أن تشبع حاجتها فتكون الفوضى الجنسية التي تشمل البيت والأسرة والأفراد وتحطم الرجل والمرأة سواء بسواء كما حدث في البلدان الغربية وكما تدل عليه الاحصاءات الآتية . . . آ ـ ان ٦ / ١ من الفتيات الامريكيات يتزوجن وهن حاملات من علاقة سابقة ـ بـ ـ تقل نسبة الزواج في اميركا بصورة واضحة وبعكس ذلك تزداد نسبة الطلاق حتى شملت ما يقارب من ٢٥ ٪ من مجموعة الزيجات ـ جـ ـ هبوط نسبة الزواج في عرض عشر

سنوات الى النصف .

هذا اذا انطلقت هذه الغرائز على سجيتها اما اذا كبتت فانها سوف تترك وراءها مختلف أنواع العقد وأمراض الكبت من الناحية الفكرية والعاطفية . هذا هو السبب الرئيسي في فرض الحجاب وليس كما يتوهم البعض من انه ختم ملكية المرأة للرجل او عزل للمرأة عن المجتمع .

٢٥ / ٣ / ١٩٦ـ

لقد أصبحت اشعر ان مدرسة التاريخ الست نهاد اصبحت تنظر الي باحترام بعد أن عرفت انني انسانة صاحبة عقيدة ، ومبدأ ، وان تمسكي بالإسلام وآدابه ليس مجرد عادات وتقاليد ، بل أنه نابع عن رغبة وتصميم وإيمان ، لك الحمد يا ربي اذ وفقتني للتمكن من مناقشتها عندما نالت من التشريع الإسلامي ، لو كنت قد سكت في ذلك اليوم ، لو كنت قد جبنت عن مواجهتها بالحق لعدتني فتاة رجعية ، واقعة تحت تأثير العادات ، والتقاليد حتى ولو كنت قد ناقشتها ببذاءة ، لو كنت قد رددت عليها بكلمات نابية ، بأسلوب جارح ، انها ما كانت لتعترف لي بما تعترفه الآن ، لعدتني طالبة غير مهذبة ، ولأوعزت ذلك الى خطأ الفكرة التي اؤمن بها والتوجيهات الإسلامية التي أسير عليها ، ولكنني ناقشتها بهدوء ، وبأدب وبأسلوب منطقي ، وها أنا أرى نتيجة ذلك ، لقد قالت امس للطالبات ليتكن تتمثلن

بهدى ، فإنها فتاة ممتازة . لك الحمد يا ربي ، يا من قلت في محكم كتابك الكريم ﴿ان الله لا يضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى﴾ .

٢ / ٤ / ـ ١٩٦

بالأمس كنت في مكتبة المدرسة اطالع كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي وانتبهت من استغراقي الطويلة في المطالعة على صوت الست نهاد وهي تقول ما الذي تطالعينه يا هدى ؟ فنهضت واقفة بأدب وقدمت لها الكتاب فجلست على احد الكراسي تقلب صفحاته واحتراما لها ، ولأجل ان اتركها تقرأ بدون تحفظ ، غادرت المكتبة ولكنني لاحظتها حين انتهاء الدوام وهي تحشر الكتاب بين كتبها فعرفت انها تريد ان تطالعه باتقان ، انها خطوة هامة ، انها فاتحة خير .

١٦ / ٤ / ـ ١٩٦

منذ مدة وانا اشعر ان صديقتي المؤمنة صفية تعيش في صراع نفسي مرير ، وقد أثر ذلك على نشاطها في العمل ، واندفاعها في الخدمة الدينية ، ومع انها لم تتخلف عن جلساتناواجتماعاتناولكنني احس ان لديها ما يعذبها وهذا ما يحز في نفسي ويجعلني أتألم من اجلها ، ليتني اعرف السبب في الامها . أنا اجهل عن وضعها الداخلي اي شيء لا ادري لعلها في ضائقة مالية ؟ لعلها تخشى ان يتكشف من حالها مالا تريد ؟ ولكنها غلطانة ، فنحن لا نعير زخارف الحياة

اهتمامنا ولا ننخدع ببهرجها وزبرجها ، يكفينا ويكفيها أيضاً انها قد اثبتت شخصيتها في وسطنا وبرزت بين لداتها بعقيدتها وسعة اطلاعهـا ، وعمق مفاهيمهـا الإسلاميـة نحن نثمن الجوهر ولا يهمنا العرض ، فليست وسائل الحياة المادية سوى اشياء عرضية زائلة اما الجوهر الواقعي الذي لا يمحى ولا يزول فهو الفكر الصالح والاتجاه الخير . . ولكن صفية ، يبدو انها غير مطمئنة الى بلوغنا الى هذا المستوى من الواقعية في التفكير ، هذا اذا كانت الأزمة التي تعانيها هي ازمة مادية ، سوف احاول ان اتعرف على اسباب المشكلة التي تعيشها لعلي اتمكن ان امد اليها يد المساعدة .

٢٤ / ٤ / -١٩٦

لقـد اكتشفت السبب الـواقعي لـلازمـة التي تعيشهـا صفية ، انها حالتهم الاقتصادية ، وبيتهم المتواضع وخشيتها من ان يؤثر ذلك على مكانتها بين الصديقات ، ولهذا فهي تعيش في دوامة من الآلام والانفعالات ، ولكنني تمكنت من جرها الى عالم الحقيقة التي نعيشها قلت لها : ان محمد بن عبد الله اعظم رجل عرفه التاريخ ، حمل الى البشرية أقدس رسالة سماوية وهو فقير ، في الـوقت الذي كان يتمكن فيه ، لو اراد ، ان يعيش حياة الترف التي كان يعيشهـا كسرى وهرقل ، وان فاطمة الزهراء بنت الرسول كان بيتها متواضعاً يشمخ في تواضعه على ايوان كسرى وكان اثاثها بسيطاً نتعالى

في بساطته فوق رياش فارس ، وزخارف الروم ، وكذلك الحال لدى صحابة الرسول الأبرار ، فالتاريخ يحدثنا عن حريق هائل‌شب في المدائن خلال ولاية الصحابي الشهير سلمان الفارسي لها ، فكان ان هرع الناس الى رياشهم وأموالهم يستنقذونها بجهد جهيد اما سلمان والى المدائن وحاكمها ووارث عرش كسرى في الأمارة ، فقد حمل على ظهره كل ما يعود اليه ولم يكن ذلك يتعدى صرة صغيرة من الملابس ، وقرآن ومصلاة ، وابريق ماء ، وخرج من منطقة الحريق قائلاً : هكذا ينجو المخفون .

٢٦ / ٤ / ـ١٩٦

بالأمس التقيت بصديقة حميمة لي كانت تجمعني واياها صلة وثيقة ولهذا فقد كنت قد عرفتها عن قرب ، وعن قرب جدا فرأيتها مثال الفتاة الطيبة الطاهرة لم تكن تظن بأحد السوء ، ولم تكن تضمر سوءاً تجاه أحد ، وأكاد اتمكن ان أقول : انها لم تكن تعرف الحقد والبغضاء بمعناها الصحيح ، كانت تثق بكل رفيقاتها ثقتها بنفسها تماما ، وفية مخلصة ، تبذل يد المعونة لكل محتاجة من اخواتها المسلمات ، كانت تعطى من نفسها اكثر مما تأخذ بكثير ، فهي تحسن حبا بالاحسان واشباعا لرغبتها في مساعدة الغير وثقة منها انها بهذا ستكون الرابحة في الدارين ، وعلى كل حال فقد كانت فتاة مثالية ، ثم حدث ان ابتعدت عنها فترة لم اتمكن أبانها من مطالعتها ومراجعتها ، ثم لقيتها أمس فهزتني فرحة اللقاء ،

ولكن صدمني الاطار القاتم الذي شمل الموقف ، فقد طالعني منها منظارها الأسود الذي أصبحت لا ترى الدنيا الا من ورائه ، ثم عرفت انها قد اكتشفت في مجتمعها نواح كانت تجهلها منه ، واطلعت على مفاهيم معكوسة لم تكن تخطر لها على بال ، فرأت كيف تقلب المثل فتقابل بالنقيض ، فهي لم تشعر في يوم من الأيام ان هناك فيمن حولها من يفرق بين المحسن والمسيء في كل ظرف وحين .. وهكذا ، ولهذه النواحي واشباهها اخذت تتبرم بالحياة ، وتسعى الى العزلة والانفراد ، وقد تبدل لهذا سلوكها وتغيرت طباعها وفقدت راحتها النفسية على هذا الوضع رأيت بالأمس صديقتي بعد طول افتراق فعرفت ان هذه المسكينة ليست سوى ضحية من ضحايا المجتمع ، فما كان مني الا ان سألتها قائلة وهل ندمت ياعزيزتي على ما قدمت يداك من احسان وما وهبه قلبك من حب ؟ وهنا شعرت ان صراعا عنيفاً قام بين عقلها وعاطفتها وكنت آمل ان يتغلب العقل فترد علي ـ لا ـ ولكنها لم تتمكن من مقاومة أي من الدافعين فسكتت ولم ترد ، فأجبت انا بدلا عنها فقلت لها برفق : قولي لا يا عزيزتي فان عمل الخير في نفسه شيء جميل ، وصفاء النفس بذاته شعور مريح ، فلا تأسفي على شيء منها ويكفيك سعادة انك تطالعين صفحات ماضيك فترينها بيضاء ناصعة من كل شوب ، فقولي اني لست نادمة يحفظ الله لك أجر ما فعلت .

لا تندمي يا صاحبتي ولا تيأسي فما زالت الدنيا في خير ولا

يزال هناك من يحفظ الجميل ، ويقدر الفضل ، ولهذا فإني ارجوك بل والح عليك ان لا تدفعك الخيبة من المجتمع الى الحقد عليه ، ولا يجرنك الفشل في عمل الخير الى الزهد فيه بل استمري على السير في طريقك الواضح ، وحاولي ان ترفعي عن عينيك هذه الغشاوة القاتمة لتعودي كعهدي بك فتاة طيبة ، حلقي في سماء الكمال ، ولا تهبطي الى حضيض النقص ، فإن اهم ما ينقص من المرأة ويحط من مكانتها هو الحقد ، والظن السوء ، لا تحقدي او تظني بأحد السوء ، احملي اختك على سبعين محمل خير وسوف ترين راحتك النفسية وقد عادت اليك كأروع ما تكون .

وهكذا بدأت احدثها بما يعود بها الى واقعها الذي تنكرت له ، ولم افارقها الا وانا على ثقةٍ من انها سوف تكون في مستقبلها كماضيها .

١ / ٥ / ١٩٦-

سألتني اليوم واحدة من الأخوات المؤمنات عن معنى ما جاء في دعاء كميل بن زياد (رض) «يارب ، اسألك بحقك وقدسك واعظم صفاتك واسمائك ان تجعل اوقاتي في الليل والنهار بذكرك معمورة وبخدمتك موصولة» قالت ليس فينا من تتمكن ان تقتصر في حياتها على ذكر الله والتسبيح والتهليل فنحن اذ نعيش وبحكم لزوم التعاون مع الآخرين مهما أمكن ، لا بد لنا أن نباشر شتى اعمال الحياة ولا يمكننا

التنصل والتزام التكبير والتهليل فقط ، فقلت لها على مهلك يا اخية فنحن لسنا بمكلفين ان نقضي الليل والنهار بالتسبيح والتكبير مثل قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر فهذا وان كان من الذكر المأثور ومن الباقيات الصالحات لكن ليس هو الذكر كله ، فكم يوجد من يذكر الله بلسانه وينساه في قلبه وافعاله ، ولكننا نستطيع بسهولة ان نجعل اوقاتنا في الليل والنهار بذكر الله معمورة وبخدمته موصولة دون أن نعطل شيئاً من أعمالنا للحياة ، فبالأضافة الى العبادات اليومية المفروضة ، ومقدماتها وآدابها ، فأنت مثلاً اذا كنت زوجة صالحة وربة بيت خيرة تكونين بذلك دائماً وأبدا ذاكرة لله مطيعة لأوامره فقد جاء في الأخبار ان امرأة سألت الرسول (ص) عما عندنا نحن النساء من قبال الجهاد وثوابه عند الرجال فقال صلوات الله عليه : الزوجة الصالحة وادارة البيت الناصحة الطاهرة ، ثم ان المرأة وكيفما تكون سيدة أو آنسة تتمكن ان تصبح دائماً وأبدا ذاكرة لله تعالى ، خادمة لأوامره ، متبعة لتعاليمه ، فكل يد معونة تسديها المرأة ولو لأقربائها الأقربين اذا كانت خالصة لله تكون ذكراً لله تعالى ، وكل لفتة طيبة تبديها تجاه الغير بدون أية غاية دنيوية تكون ذكراً لله سبحانه ، وكل سحابة ضيق تتحملها بصبر ، وكل فكرة صالحة تفكر فيها لأجل الخير ، دون أي شيء آخر ، وأي نعمة تحدثت بها لا مباهية ولا متعالية ، وحتى البسمة والضحكة إذا جادت بها خالصة من كل شائبة رياءاو

ملق ، كل هذه تكون ذكرا لله سبحانه ، ولكن يتفق لنا ان تحين لنا فرصة نتمكن فيها من افشاء سر او الجهر بسوء يكون لنا من ورائه نفع اولنا به مصلحة شخصية ثم لا نأتي بشيء من ذلك بوازع ديني لا غير فنكون ذاكرين لله تعالى مطيعين لأوامره ، ولذلك فمن الجدير بنا أن نبتهل الى الله تبارك وتعالى ان يجعل اوقاتنا في الليل والنهار بذكره معمورة وبخدمته موصولة .

٥ / ٥ / ١٩٦٠

ان الامتحان النهائي يقترب ولا بد لي ان اتفرغ للتحضير لأتمكن من اجتياز هذه المرحلة بتفوق ولكي اثبت ان العمل الإسلامي لم يقعد بي عن الدراسة ولم يشل تفكيري عن المطالعة بل فتح ذهني اكثر وركز تفكيري بصورة اعمق . ولهذا سوف أترك كتابة المذكرات الى حين بداية العطلة ان شاء الله .

قلب يتعذب

أتراني سوف أقوى على الثبات ؟.. اتراني سوف اتمكن من التمسك بهذه الخيوط التي تشدني الى الأمل ؟.. اتراني أستطيع ان ابقي قدمي راسختين مع كل ما يدميهما من شوك ؟.. اتراني اتمكن أن اشد بصري نحو مطلع النور مع كثير ما يحول بيني وبينه من ضباب ؟ يا لله ، أي ضباب هو هذا الذي تكاثف ويتكاثف لكي يحجب عني بريق الضياء ؟.. نعم ، أي ضباب هذا الذي يأبى إلا أن يلاحقني فيسد علي منافذ الحياة بعدما احاول أن أفتحها واسعة رحيبة لكي انفذ منها ما اريد ؟... ولكنني طالما نفذت من خلاله وأنا أعرف انه ضباب !... ولكنه الآن عاد اكثر ظلمة وأعمق كثافة .. انه تمكن ان يستغفلني فيرسل بعض خيوطه الى فكري لتعشعش فيه .. ولهذا فأنا أتساءل كما لم أتساءل من قبل .. اتراني سوف أقوى على الثبات ؟ . أية قوة هذه التي ستشد من عزيمتي التي أكاد أفتقدها .. وأي حارس هذا الذي سوف يحرس فكري عن انفتاحه على خيوط الضباب الكثيف التي سربتها اليه قساوة الحياة .. نعم

قساوة الحياة .. فما أقسى أن يتابع الإنسان الذبالة الأخيرة من مصباح أمانيه وهي تنطفىء عطشاً للزيت وهو يعلم أن لا زيت هناك ، ولكن عليه أن يتابع ذبذبتها بعطف وحنان ؟!.. ما أقسى الشعور بالنهاية والأقسى منه اذا كانت النهاية بطيئة ؟.. ما أقسى أن يكافح الإنسان أمواج الحياة وهو يعلم أن لا ساحل هناك !.. إنه الكفاح اليائس العقيم .. ما أقسى أن تكون خيوط الغد غير واضحة ، والأقسى من ذلك أن توجد الخطوط ولكنها متشابكة الأطراف غير واضحة الأبعاد لما يكتنفها من ضباب ؟!... ياالله الضباب مرة ثانية ؟!... انه لا يريد أن ينفك عني ويأبى أن يتركني بأي شكل من الأشكال .. لعن الله هذا الضباب الظالم المظلم ... انه يشيع في القلق ليل نهار ، والقلق ما هو إلا أداة لدك الأرادة مهما كانت قوية ... ولكن أية ارادة هذه التي سوف يبقي عليها الضباب ؟... أتراني سوف أعود فأزهو بارادتي من جديد ؟...

١٩٧٠ / ٨ / ٢٥

فكر في مهب الريح

ها أنا ذي أعود اليك يا مذكراتي لأبثك ما أجد بعد أن لم أعد أقوى على الكتمان . . . ان آنية الماء التي توضع على النار لا بد لها من تنفس وإلا لانفجـرت تحت وطأة الغليان . . وهكذا هي آلامي يا وريقاتي ، فهي تكاد تنفجر في أعمـاقي كبركـان من نار يحيـل أعصابي الى هشيم . . ولكنك أنت الوحيدة التي أتمكن أن ابثها ما أجد لأخفف الضغط عن هذا الكيان الذي أخذ يتداعى تحت ضربات الأحداث . . صحيح انني لا استطيع ان أقول ولكني استطيع أن اكتب . . فقد يوجد ما يكتب ولا يقال ، وقد يوجد ما يقال ولا يكتب . . نعم أنا أريد أن احدثك عن ليلي وآلامه ونجومه التي تتضاحك عـلي لسهري ، وتـرنو إلي بفضـول لتتعرف على الشيء الذي باعد بين اجفاني ، وولد النفرة بين عيني والنوم وبين جسمي والفراش . . أنا اريد ان احدثك عن نور القمر الذي أضحى يعذبني باشراقته التي طالما تغنيت بها من قبل ، وطالما أشرقت لها جنبات روحي تتجاوب معها في حنان . . اريد أن أحدثك عن الأطياف التي تتراءى لي

وكأنها نذر الشقاء تتلاعب بأفكاري وعواطفي كما يتلاعب الـذئب بفريستـه وهو يحـاول تمزيقهـا بأنيـابـه . . نعم يـا وريقاتي ، انها أطياف كانت تتراءى لي منذ زمان رفيقة بي تارة وعنيفة أخرى . . ولكنها منذ هذا الأمد الذي لا اقوى على تشخيصه لما يتلفعه من ضباب انها منذ هذا الأمد لم تعد تفـارقني ولم تعد تـرفق بي أبـداً فهي عنيفـة ومفـرطـة في العنف . . الشيء الـذي جعلني أنقاد اليهـا ملقية سـلاح المقاومة الذي طالما استنقذني منها فيما مضى . . فـالى أين ستقودني هذه الأطياف يا ترى ؟ . . وهل هناك من يستنقذني منها أو يساعدني في التغلب عليها الحقيقة انني يائسة ، فالى أين سيقودني هذا اليأس ؟ . . ليتني اجد من يقودني الى مطلع النور من جديد . . حتى هذه الكتب التي كـانت سلاحي الذي أصد به هجمات الضباب فيما مضى لم تعد تؤدي مهمتها بالشكل المطلوب ولم تعد حروفها تعني عندي اكثر من خِطوط سوداء قاتمة لقد حاولت بـالأمس ان استعير بعض الكتب من المكتبة العامة ولكني عدت فسلمتها بعد استلامها بثلاث ساعات لانني عجزت عن القراءة . . انا التي طالما سحـرتني الكتب بأفكـارها . . فـالى أين سـوف ينتهي بي الحال ؟ . .

١٩٧٠ / ٨ / ٣٠

حشرجة روح

هل ترى حرم علي النوم الهانيء ؟ أو هل سوف تعود الى مقلتي تلك الاغفاءة اللذيذة فأتذوق من جديد طعماً للاستغراقة الحالمة التي كانت تلفني كلما عسعس الليل ، أم تراني سأبقى أستجدي السنة فلا تجيبني ، واستدعي الرقاد فلا يواتيني ؟ . . وحتى اذا تسلل النوم الى عيني على غفلة من الضباب وعلى غرة من الاطياف ، فهو رقاد فزع متقطع لا يكاد يغلبني حتى يغلبه الضباب وأطيافه القاسية الهوجاء فيوقظني لا واجه من جديد واقع الحياة . . ما أحلى النوم الذي يبعدني عن الواقع المرير ، وما أمر النوم الذي تلاحقني خلاله ظلال اليقظة القائمة . . أتراني اتمكن ان اعده نوماً أم هو أحد اشكال العذاب وبعض أنواعه ؟!. ولهذا فأنا لا اتمكن أن أقول أنني لا انام ، فأنا أنام ، ولكن أي نوم ؟ . . وأنا لا أريد أن اقول انني لا أضحك فأنا أضحك ولكنها ضحكة جريحة وكأنها حشرجة روح وأنا لا أريد أن أقول انني لم أعد أحيا كما تحيا الاخريات أنا أحيا ، ولكن أية حياة ؟ . . انها أشبه ما تكون بالحجر الكاوي الذي تغطيه طبقة من

الرماد الهادىء فلا يوحي للناظر بما يخفى من اوار . . هكذا كنت ، ولا ازال اضحك ليضحك سواي واتظاهر بالسعادة ليسعد من يهمه أمري فيفرح لـذلك صـديقي ويأسى لـه عدوي . . ولكن أتراني سوف اتمكن المقاومة ، أم ان معالم الضباب ، هذا الضباب القاتم الذي يحاكي لونه لو ن عباءتي السوداء أتراه سوف يرسم خطوطه على قسماتي فيبـدي ما احاول اخفاءه ويفضح ما أود ستره . . ليتني أتمكن الثبات ، فأنا لا أطيق نظرات الرحمة وهي منصبة عـلي ، ولا أريد ضحكات الشماتـة وهي تتردد في مسمعي تحمـل صداهـا المشؤوم . . ليت هناك من يحاول ان يستنقذني مما أنا فيه !

١٩٧٠ / ٩ / ٨

بقايا كيان

ما أراني إلا وقد انتهيت .. فقد اتسعت سطوة القلق حتى شملت جميع اتجاهاتي في الحياة .. فما أن أمسك القلم حتى يحيله القلق الى اداة عاطلة لاتعرف كيف تخط الكلمات ، وما اكثر ما حاولت أخط به - على جموده وفتوره - ولكنها أية خطوط ؟..

انها كلمات جوفاء تفتقد الحياة والرواء لأن هذا الضباب اللعين يأبى إلا أن يمتد اليها فيتسرب بين حروفها ليحيلها الى احرف باهتة لا تعني شيئاً ولا تمكن من شيء وهل يقوى الإنسان أن يعيش دون أن يكتب ودون أن يقول ؟.. أية حياة هي هذه ؟ انها الحياة التي تحكى عن الميت الحي .. لا أدري ، هل سأعود فأعرف انني احيا من جديد ، او هل سأجد اليد الرحيمة التي تمسح على جروحي والصدر الحاني الذي اسند رأسي اليه ، لا بالله ما اجد ؟؟..

فلا بد من شكوى الى ذي مروءة
يواسيك أو يسليك أو يتوجع

٦ / ١٠ / ١٩٧٠
بيداء

إلى هنا انتهت رباب من مطالعة دفتر المذكرات الذي هو ضيفها منذ ساعة بعد أن ألقته المقادير بين يديها وهو ملقى على جانب الطريق . . فشعرت بشعور الألم لهذا القلب المعذب ولهذا الكيان الذي يوحي بالانهيار . . ثم استسلمت الى استغراقة طويلة استعادت خلالها ما جاء في المذكرات مثل قول الكاتبة «ليت هناك من يحاول أن يستنقذني مما أنا فيه» وقولها «اتراني سوف أعود فأزهو بارادتي من جديد» . . إذن فإن بيداء هذه الكاتبة المجهولة قوية بطبيعتها ، ثابتة بشخصيتها ، وانها لم تتهاو إلا تحت وقع سياط قاسية وقاسية جداً . . وهي مع ذلك تتمنى لو تمكنت من الوقوف وتتوق الى عهدها السابق من الثبات . . ورددت رباب في ألم : ليتني كنت أعرفك يا بيداء لكي أصل اليك يا طعينة الحياة ، يا حبذا لو كنت أقوى على انتشالك يا ضحية الضعف البشري الذي لا يتخلص منه الإنسان الا بسلاح الإيمان . . نعم ليتني كنت اعرفك يا بيداء . . . وما كادت رباب تكمل جملتها حتى أحست انها مخطئة ، فلا ينبغي لها أن تتنصل من المسؤولية بقول (ليتني) ، فإن الليت لا مجال لها في قاموس العاملين ، فالإرادة عند المخلصين تعمل المستحيل ، والتصميم الصادق لدى النفوس الصالحة يحيل ما هو عسير الى سهل يسير ، ولهذا فقد عادت رباب لتقول في تصميم :

سوف أجدك يا بيداء وسوف استنقذك مما أنت فيه إن شاء الله .

* * *

نشطت رباب في استقصاء آثار بيداء بعد أن أعادت قراءة المذكرات ، واستخلصت منها نقاطاً جعلتها دليلها الذي يقودها الى ضالتها المنشودة ، وكان من تلك النقاط ان الكاتبة المجهولة محجبة او نصف محجبة ، لأنها مثلت سواد الضباب بسواد عباءتها ، ومنها انها استعارت كتاباً من المكتبة العامة وأعادته في نفس اليوم . . ولهذا فقد انتظرت اليوم الذي خصصته المكتبة العامة لزيارة النساء وذهبت الى هناك واختارت أحد الكتب لاستعارته ، وقدمت لها العجوز المسؤولة عن الاستعارة دفتر التواقيع لتذكر اسمها وعنوانها امام موعد الاستلام ، فأجالت عيناها في الصفحة التي أمامها عسى أن تجد اسم بيداء فلم تلاحظ وجود أي اسم لأمرأة في تلك الصفحة ، ولم تشأ أن تقلب صفحات الدفتر لكي لا تثير فضول الموظفة فأخذت الكتاب وانصرفت . وبعد ثلاث ساعات عادت لتسلمه كما صنعت بيداء بالضبط وهي على أمل أن تجد اسم بيداء في دفتر التسليم . . وتقدمت الى المسؤولة تمديدها بالكتاب وبثمن الأستعارة الخارجية ليوم واحد . . فظهر الاستغراب على وجه الموظفة وقدمت لها دفتر التسليم وهي تقول : عجيب امركن يا بنات اليو م ، فما هو

جدوى الاستعارة لبضع ساعات ؟ فكان لنون الجمع الذي نطقت به المسؤولة اثره لدى رباب ، فتساءلت بلهفة : وهل هناك غيري من أرجعت الكتاب بعد بضع ساعات ؟ فأجابت الموظفة بعدم اكتراث : نعم انهن كثيرات من بنات هـذا الجيل . . فرأت رباب ان احسن طريقة لمعرفة عنوان بيداء هو اثارة هذه العجوز ، فأجابت متحدية : لا اظن ذلك ، فانك تظلمين بنات جيلنا يا سيدتي . . فضحكت المـوظفة وقالت بتهكم : لا تظنين ذلك ؟ أنا لا اتكلم اعتباطاً ، انها التواريخ تدل على ذلك . . قالت هذا واشارت الى الدفتر الخاص الذي أمامها . وصممت رباب ان تسير في خطتها حتى النهاية فهزت رأسها في تشكيك وقالت : اظنك مبالغة في حكمك ، فما ارجعت الكتاب الا لعارض طارىء ، ولا تتفق العوارض الطارئة لكل واحدة ، فأثار هذا التشكيك الموظفة فقلبت الدفتر بعصبيـة ثم اشارت تقـول : اظنك تعرفين القراءة فانظري ! . . فنظرت رباب في لهفة فطالعها اسم نهلة عبد الكريم ، فرفعت نظرتها الخائبة وهي تقول : هـذه واحدة وهي لا تكفي للحكم فعـادت المسؤولة الى تقليب الصفحات ثم اشارت من جديد قائلة : وهذه ايضاً لم يدم عندها الكتاب اكثر من ساعات ولم تستمع رباب الى جملتها الأخيرة لأنها كانت قد وجدت امامها اسم بيداء محمد صالح . . شارع . . رقم الدار . . ت . . ورفعت ربـاب عينها وهي تخشى أن تنسى الأسماء والأرقام ولهذا لم تزد على

أن تقول : نعم انك على حق . . ثم غادرت المكتبة حيث وقفت وسجلت الأسم ورقم الدار . . ونظرت الى ساعتها فوجدتها تشير الى الثانية عشرة والنصف فتوجهت الى بيتها تنتظر العصر الذي سوف يجمعها مع بيداء .

* * *

سارت رباب في شارع . . وهي تقرأ أرقام البيوت وقد حملت معها دفتر المذكرات الذي قادها الى هناك . . واخيراً وجدت البيت المقصود فوقفت امامه مترددة واستحضرت الخطوات التي سوف تتبعها للدخول في حياة بيداء ، والأخذ بيدها الى عالم الإيمان لتهبها السعادة في الحياة . . ثم وضعت يدها على الجرس وها لها أنها وجدت يدها لا تخلو من رعشة تنبىء عن قليل من الارتباك وخاطبت نفسها قائلة : ما دمت أعمل بدافع من الخير ، وما دام الدين رائدي في هذا فليس لي أن أتردد . . وقرع الجرس وسرعان ما فتحت لها الباب طفلة صغيرة ذات جدائل ذهبية وعيون خضراء ملونة . . وتطلعت اليها الطفلة في حيرة فابتسمت لها رباب وسألتها : هل ان بيداء موجودة في البيت ؟ فردت الطفلة في لهفة : بيداء ؟ نعم ، انها هنا ولكن . . وسكتت وكأنها في حيرة كيف تكمل جملتها . . فأردفت رباب . ولكن ماذا يا حلوة ؟ قالت : ولكنها لا تستقبل احداً ، قالت رباب : لعلها مريضة ؟ قالت الطفلة : لا أدري . . وشعرت رباب ان الطفلة تدري ولكنها لا تريد أن تقول فقالت لها برفق : اذهبي يا عزيزتي وقولي لها ان في

الباب واحدة تحمل اليك شيئاً ثميناً أضعتيه اسرعي يا شاطرة فإنها سوف تشكرك على ذلك .. وكأن الطفلة قد ارتاحت الى نغمة رباب الهادئة اللينة فقالت لها : تفضلي وادخلي حتى أذهب واخبرها بما تقولين .. فدخلت رباب واغلقت الباب خلفها فوجدت نفسها في حديقة مهملة لم تمسها يد التشذيب منذ زمن بعيد ، فرفعت نظرها نحو البيت فوجدته بيتاً يجمع بين الفخامة والقدم اصباغه باهته ، ونوافذه متداعية ، وجدرانه متآكلة ، فظنت انها توصلت الى بعض خيوط المأساة .. كانت تنتظر عودة الطفلة لتقودها الى بيداء ولكنها فوجئت برؤية بيداء وهي تتقدم نحوها وقد شاعت على وجهها ابتسامة حزينة مصحوبة بشيء من اللهفة ، وهل هناك طابع أقوى من طابع الحزن عندما يلون تعابير الإنسان بألوانه فيحيل اشراقة العين الى ذبذبة نور باهت ، ويصبغ لون الوجه بدهانه الأصفر الشاحب وهكذا كانت بيداء ... ومرت لحظة سكوت طالعت كل منهما صاحبتها وكأنها تحاول أن تحدد موقفها منها ، أو تحاول ان تتعرف على ما يتطلبه منها الموقف ، وكانت بيداء البادئة في الكلام فقالت بلهجة مهذبة : أهلا وسهلا .. فابتسمت رباب ومدت يدها نحو بيداء مصافحة وهي تقول : السلام عليكم .. وحاولت أن تبقى يدها في يد بيداء لمدة اطول وكأنها تريد بذلك أن تركز على معنى تحيتها فتقول : لك مني يا اختاه الامان والاطمئنان والسلام ، وما أنا الا رسولة الرحمة الالهية اليك لأسبغ على

قلبك السلام وعلى فكرك الأمان . . وما كان من بيداء إلا أن دعتها الى الدخول وقادتها الى غرفة الاستقبال وكانت غرفة تفصح عن فخامة متداعية وثراء منـدثر ، وجلست ربـاب حيث انتهى بها المجلس وجلست بيداء بالقرب منها وهي تحاول أن تبدو طبيعية ، ولكن عينيها كانت تبحث عن شيء تحمله لها رباب . . واشفقت رباب من ان تطيل انتظارها فأخرجت الدفتر من حقيبتها وقدمتـه نحوهـا قائلة : لقـد وجدته ملقى على رصيف شارع . . قبل ثلاثة ايام . . فمدت بيداء يدها لاستلامه وقد ترقرقت الدموع في عينيها وأخذته وهي تقـول : الحمد لله لقـد وجدته اخيـراً . . يالـدفتري العزيز . . وضمته الى صدرها في حنان وكأنها عادت فانتبهت الى واجبها نحو من حملت اليها ضالتها الثمينة ، فمدت يدها نحو رباب وهي تقول بنغمة صادقة : اعطني يدك لاصافحك من جديد فأنا لا ادري بأي شكل يمكنني شكرك يا اختاه . . فمدت رباب يدها وقالت : لم اقم الا بما يمليه علي واجبي يا بيداء ولا داعي للشكر والثناء . . قالت بيداء : ولكن كيف تمكنت الاهتـداء الي ؟ أرجو أن لا تكـون المصـاعب قـد صادفتك لذلك . . قالت رباب : أبداً فالأرادة تذلل كل ما هو صعب ، وتقرب كل ما هو بعيد ، وقد كنت اريد ان اجدك يا بيداء وقد وجدتك أخيراً والحمد لله . . فرددت بيداء كلمة (الارادة) بـألم وكأنها تنعى عـزيزاً افتقـدته . . الارادة . . نعم ما أحلاها حينما توجد لدى الإنسان ، قالت

رباب : نعم انها المنار الذي يرشد الى مرفأ النجاة ، وهي الملاذ الذي يحمي الإنسان من الانهيار . . قالت بيداء : صحيح ما تقولين ، ولكنها قد تضعف أحياناً أو تتلاشى في بعض الحالات . . قالت رباب : هناك نوعان من الأرادة ارادة خيرة ترتكز على اسس صالحة ، وارادة طائشة تعتمد على رغبات وقتية أما الأرادة الطائشة فهي تتلاشى مع الرغبة وتضعف امام أول مقاومة ، ولكن الأرا الخيرة هي التي تمتلك عناصر الثبات التي تخولها الصمود امام كل شيء فهي حينما تعتمد على اسس ثابتة يقترن وجودها بوجود تلك الأسس . . وسكتت رباب تنتظر رد الفعل الذي احدثته كلماتها لدى بيداء ، واطرقت بيداء برهة ثم رفعت رأسها في تصميم وقالت : ما اراك الا وقد قرأت ما كتبته في مذكراتي ، فهل لي أن أعرف بعض ما عرفت عني ؟ فابتسمت رباب برفق وقالت : ان لك كل الحق في هذا يا عزيزتي وما أتيت الا لأعرفك بنفسي ومن ثم أضع بين يديك بجميع امكانياتها . . أنا رباب فاضل الـ . . أسكن في شارع . . وما قرأت مذكراتك الا لأجل التعرف على كاتبتها ومحاولة اعادتها اليها . . وفعلا فقد قادتني اليك كما ترين ، ولهذا أرجو أن تغفري لي ذلك يا اختاه . . قالت بيداء : أنا لا أغفر لك فقط بل انني اشكرك على هذه البادرة ، فما أقسى الأيام التي عشتها بعيداً عن هذا الدفتر العزيز ، افتقدته وكأني افتقدت بعضاً من وجودي .

قالت رباب : أنا لا اقرك على هذا التعبير ، فمتى كان وجود الإنسان مرتبطاً بخواطر طارئة تحملها صفحات ؟ قالت بيداء : ولكنها صفحات تعبر عن واقع وجودي في الحياة ، وتعطي صورة عن الأجـواء التي اعيشها ، قـالت رباب : ولكنها صورة ليست متكاملة الجوانب ، فالحياة مسرح لمختلف عوامل الانطباعات ، وهي كالروضة التي تحتضن تربتها شتى انواع الزهور او مختلف اشكال النبات زهرة عاطرة وشجرة ناظرة ، وعشب متطفل ونبات مجهول وأشواك مدمية . . هذه الروضة هي صورة مصغرة للحياة بتباين ما حوت وارتباط وجود محتويـاتها مـع بعض ، فإن من طبيعـة الأرض التي تحتضن الزهرة ان تفسح مجالا للعشب ومن متطلبات الصعيد الذي يتقبل البذرة ليحيلها الى شجرة ان يخضع لعوامل تطفل الأشواك عليه . . . وكانت بيداء تستمع إلى رباب بهدوء ثم قالت : ولكنها قد تبقى تحتضن الشوك وحده فتدمي بدون اريج وتنبت العشب المتطفل فقط فتعيق السير بدون ثمر . . قالت رباب : ان هذا غير ممكن يا اختاه ، فإن من طبيعة الحياة تعاقب الألام والآمال ، فلا ألم بدون أمل ولا أمل بدون ألم . . قالت بيداء* : ولكن قد يفترق أحدهما عن الآخر كما حدث بالنسبة لي ، قالت رباب : انهما لم يفترقا ولكن فترة التعاقب هذه لعلها قد استمرت بشكل اطول . . قالت بيداء ولعل زمن هذه الفترة سوف يمتد مع الحياة فيبعث في النفس معاني اليأس القاتلة ، وهل هناك أقسى واقوى من

اليأس ؟.. قالت رباب : ان في مقدرة الإنسان ان يتغلب على قساوة اليأس بحلاوة الأمل ، فتأوهت بيداء بمرارة ثم قالت : وكيف ، وبأي سلاح ؟ قالت رباب : بسلاح الإيمان يا بيداء ، ففي الإيمان ورجاء الله واليوم الآخر يتسامى الإنسان فوق هذه الحياة الفانية فتمر همومها حوله ولا تصدمه بعد أن استهان بجميع آلامها واهوالها ومتاعبها ومصاعبها .. إذا تمكن الإنسان ان يسود نفسه عن طريق رجاء الله وحده والإيمان برحمته كان سيد نفسه ، ومن كان سيد نفسه كان سيد من حوله يصرفه بحكمة كيف يشاء .. قالت بيداء : ولكن قد يخيب الإنسان بالتحكم في نفسه ، قالت رباب : انا لا اؤمن بالخيبة فليست الخيبة هي الشر كله بل ان الشر كله في العقل اذا توجه الى حالة واحدة من الأمل الخائب مع وجود طرق اخرى ، والشر في الأرادة اذا ضعفت وظلت متمسكة بشيء غير موجود أو بشيء كان موجوداً فانعدم .. اما اذا كانت النفس على مستوى من الإيمان الذي يجعلها تتحصن ضد الإنهيار ولا تعيش متطلعة الى سراب وهي واثقة من انه ما اغلقت باب الا وفتحت اخرى ، وما انقطع خيط الا وهناك خيط موصول ، فلتفتش عن الباب المفتوحة والخيط الموصول تاركة وراءها اليأس الذي سببه انقطاع ذلك الخيط ، حين ذاك لا يخيب الإنسان بل تخيب الخيبة نفسها ... وكانت بيداء تستمع الى الحديث بانجذاب وقد ترقرقت دمعة حارة في عينها .. وسكتت رباب تنتظر الرد من

بيداء ولكن فترة سكوت بيداء طالت بعض الشيء وكأنها تراجع وقع كلمات رباب في مشاعرها . ثم قالت : لا أدري فلعل يد الرحمة قد ارسلتك إلي يا رباب لتستنقذني من اليأس . . قالت رباب ألم تسمعي الآية المباركة التي تقول ﴿ولا تيئسوا من روح الله انه لا ييئس من روح الله الا القوم الكافرون﴾ ؟ وعند ذلك نظرت رباب الى ساعتها فرأتها تشير الى السادسة مساء ، وكان عليها ان تذهب الى البيت فتململت في جلستها مؤذنة بالقيام ، فاهتزت بيداء لذلك وقالت في لهفة : وهل ستذهبين يا رباب ؟ . . فابتسمت رباب وقالت بلطف : نعم فإن لدي ما يدعوني الى العودة الى البيت . . فتساءلت بيداء : هل هو موعد هام يا رباب ؟ قالت رباب : نعم انه اهم موعد في حياة الإنسان ، انه الزمن المحدد لصلة العبد بالمعبود والفترة المخصصة لأتجاه المخلوق الى الخالق قالت بيداء : انها الصلاة ولا ريب ، ولكن يمكنك اداءها هنا ، نعم يمكن أن نؤديها معاً ، فأشاعت هذه الكلمات الغبطة لدى رباب ورددت في نفسها تقول الحمد الله انها مصلية فهي اذن صالحة بفطرتها وطيبة بطبيعتها ، ثم اجابت على الفور : لا مانع لدي من ذلك . . وفعلا فقد ادتا فريضة الصلاة معاً وعادتا الى مجلسهما ، فافتتحت رباب الحديث قائلة : ألم تسمعي الآية التي تقول ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص في الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصالحين﴾ إذن فإن جميع ما نلاقيه

على مسرح الحياة ما هو إلا اعداد للنفس البشرية لرفعها الى مستوى الارادة وسيادة النفس ، فقد نعد النازلة تنـزل بنا خسارة وهي ربح ، أو نقول مصيبة نزلت لتكدير الحياة وما هي إلا طريق لبلورة الفكر وصقل المشاعر بشكل يساعد على مجابهة الحياة بطريقة صالحة ناجحة هيأها الله تبارك وتعالى لعبده لتتبلور عنده حقيقة ايمانه . . قالت بيداء : انني مؤمنة يا رباب ولكنني لم أقو على المقاومة فأوشكت ان انهار . . فردت رباب قائلة : ولكن الإيمان هو قتل الخوف الدنيوي بالتسليم والرضى ، وبالارادة المؤمنة الصالحة القوية يتمكن الإنسان ان يجعل النكب طريقاً من طرق القدر في التعليم وقد يكون ابتداء المصيبة في انسان هو بداية تسرب الحكمة اليه اذا تمكن من الثبات امامها . . وسكتت رباب وهي ترى ان عليها ان تديـر دفة الكـلام لكي لا تثقل عـلى بيداء بنصائحها ، فضحكت وهي تقول : والآن ألم تعرفي كيف اهتديت اليك يا بيداء ؟ قالت بيداء وقد عرفت ما تقصده رباب : لا ولكني اؤمن ان الله هو الذي ارسلك الي مهما كانت الظروف والوسائل ، فأخذت رباب تحدثها عن الخيط الذي اوصلها اليها واعقب ذلك بعض الأحـاديث العامـة نهضت على اثرها رباب وهي تستأذن بالخروج فتعلقت بها نظرات بيداء في رجاء وهي تقول : او سوف تزوريني ثانية يا رباب ؟ فترددت رباب برهة ، فهي مصممة على أن تزورها ثانية وثالثة ولكن طبيعة الموقف كانت تقتضي أن تقول :

وهل ترغبين في ذلك يا بيداء ؟ قالت بيداء في تأكيد صادق : نعم فأنا اتمنى ذلك من صميم قلبي يا رباب ، قالت رباب : اذن فقد اتفقنا فأنا أيضاً أتمنى ذلك ولهذا فسوف أعود ان شاء الله .

* * *

كان اللقاء الثاني الذي جمع بين رباب وبيداء لقاء يسبقه الشوق وتغمره اللهفة . وحاولت رباب أن لا تتسرع في الدخول الى صميم الموضوع بل تنتظر ما تنفذ منه اليه بشكل يبدو عفوياً ، وفعلاً فقد واتتها الفرصة خلال حديث بيداء عن اختها الصغيرة ورغبتها الشديدة في الدراسة حيث قالت : ان حوراء جد مثابرة على دراستها ولكني اخشى ان لا يدوم لديها هذا الاندفاع . . فتساءلت رباب : ولماذا ؟ فهزت بيداء رأسها في أسى وسكتت ، فأردفت رباب تقول انني اتنبأ ان تتعمق عندها هذه الرغبة ويتضاعف لديها هذا الاندفاع ، قالت بيداء : أرجو ذلك ولكني اشك فليس من طبيعة الحياة ان تعطي للنفس حريتها في الانطلاق وتحقيق الرغبات . قالت رباب : ولكن ليس من طبيعة الحياة ايضاً أن تغلق أمام الإنسان جميع المنافذ ، فليس من حق من يمر بمصيبة ان يخيل اليه ان ايامه القادمة ما هي الا سلسلة من المصائب والنكبات ، وليس من حق من يمر بأزمة مالية أن يحسب ان الحرمان قد كتب عليه وان حياته قد اقترنت مع الفاقة ، وليس من حق من يصادف في حياته نكراناً لجميل أو

خيانة لوفاء أو استهانة بعاطفة أن ينظر الى من حوله بمنظار أسود . . وهكذا مهما وجد للشر أثر في الحياة كانت للخير آثار أيضاً ، ومهما تكاثفت الغيوم في سماء الإنسان كان من الممكن أن تتلاشى ، ومهما ادلهم الافق الممتد أمام النظر لا ينعدم الأمل باشراقة فجر وليد يتلألأ به الافق المعتم الحزين كما قال الله تعالى ﴿فَلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعين﴾ . . قالت بيداء : ولكن المصائب والأزمات على اشكال فمنها ما يصبر عليها ومنها مالا يمكن من ذلك ، قالت رباب : أما النكبات بافتقاد الاعزاء فان المؤمن العاقل المتفهم لحقيقة الحياة وقصة الخليقة التي منّ الله تبارك وتعالى بها على الوجود ليمنحها فرصة التزود من العمل الصالح ولأجل أن يفتح امامها أبواب السعي لتحقيق مفهوم العبادة الشامل لجميع نواحي الحياة ، فالعبادة هي كمال للإنسان واكتمال لشخصه والطريق الذي يفتح أمامه ابواب البلوغ الى الغاية القصوى في الحياة الثانية ، الحياة الحقيقية الباقية ، ان تفهم كل هذا منواقع الحياة يمكن الإنسان من الثبات امام نكبة افتقاد الأعزاء ، فما دام الإنسان قد بدأ لينتهي وما دامت الحياة تعطي وتأخذ وما دام الاعزة هم السابقون والمنكوبون هم اللاحقون ، فإن من واجب المؤمن العاقل أن يصمد وان يعرف أن هذا الأمر ليس به ابتدا ولا عليه اعتدى وليس هو أول من اكتوى بهذه الجمرة اللاذعة وليس اول من ادمته هذه الشفرة الجارحة ، اما بالنسبة للنكبة التي تجرها

الفاقة أو يجلبها الحرمان فإن الإنسان اذا كان مؤمناً عاقلاً عرف ان الفاقة الحقيقية هي الفاقة الروحية والحرمان الواقعي هو الحرمان الأدبي .. هذه هي الفاقة وهـذا هو الحـرمان الحقيقيـان اللذان يجران عـلى صاحبهـما شتى انواع الفـاقة والحرمان في الحياة ، ومع تمكن الإنسان من هذين العنصرين فإن الأمل بانفتاح المستقبل امامه سوف يصبح املا منطقياً يهبه سعادة الانتظار ولذة ترقب الوضع الأفضل ، ثم ان مراجعة التاريخ ودراسة احوال الامم والشعوب الماضية وتبدل احوالها واختلاف اوضاعها ، وسلسلة الصعود والهبوط لدى افرادها تحـدث الإنسان المؤمن العـاقل ان قلما استمـر وضع من الأوضاع على وتيرة واحدة مهما تسامى او تردى ومهما طال او قصر ، كما ذكر ان الرسول (ص) خرج يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك ويقول : لن يغلب عسر يسـرين ﴿فإن مـع العسر يسراً ان مع العسر يسرا﴾ . وقد نظم احد الشعراء هذا المعنى في بيتين فقال :

اذا ضـاقت بـك الدنيـا
تفكـر في « ألم نشـرح »
تجـد يسريـن بعـد العسـر
ان فكرتــه تـفـرح

قالت بيداء : ولكن الفقر قد يمنع من مواجهة الحياة

قالت رباب : عن أي طريق يحول دون ذلك ؟ فترددت بيداء ثم قالت : عن طريق الخجل مثلاً . . قالت رباب ولماذا الخجل ؟ وليس في الفقر ما يخجل ، فقد يكون لدى الإنسان ما يخجله من مواجهة الحياة وهو مثقل بحمل ملاينة مثل ان يكون ضعيف الشخصية تافه التفكير ، او يكون قد جاء بما يتنافى مع الفضيلة وما يخالف خط الاستقامة في الحياة ، اما الفقير المؤمن الذي يشعر باكتفائه الذاتي فهو قد يحسب فقيراً ولكنه في الحقيقة اروع معلم انساني يلقي على الناس دروس نفسه القوية واكتفائه الذاتي في الحياة ، فهو لأجل ذلك سوف يلذ له ان يواجه المجتمع مرفوع الرأس قوي الجنان ، ومتى كان الفقر عيباً وهو كما سمي في الروايات بشعار الصالحين ؟ أم كيف يعد الفقر مخجلا وهو الامتحان الالهي الذي يصقل فيه الله تبارك وتعالى نفوس عباده فيميز بين الصابر والجازع ، والطامع والقانع كما جاء في الآية المباركة ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ولو كان في الفقر ما يشين لما عاشه نبي الإنسانية الاعظم محمد بن عبد الله (ص) . وسكتت رباب تنتظر الجواب ولكن بيداء ابتسمت ولم تجب ، فأردفت رباب تقول : ثم ان الإنسان المؤمن العاقل يعيش دائماً وأبداً مفهوم هذه الآية المباركة ﴿فلا تعلم نفس ما اخفي لها من قرة أعين﴾ ولا ينظر الى الصدف السعيدة التي تمر بغيره على انها من مختصات سواه فيحسده عليها ويستكثرها عليه ، بل انه

يتفاءل بسماعها ويسعد بمشاهدتها بانتظار وصول الدور اليه كما قال الشاعر :

وكم لله من لطف خفي
يدق خفاه عن فهم زكي
وكم يسر أتى من بعد عسر
ففرج كربة القلب الشجي
وكم أمر تساء به صباحاً
فتأتيك المسرة بالعشي
إذا ضاقت بك الأحوال يوماً
فثق بالواحد الفرد العلي
ولا تجزع اذا ما ناب خطب
فكم لله من لطف خفي

وكذلك فإن المؤمن العاقل سوف يتمكن من ان يتحكم بعواطفه ويسيطر عليها بزمام الارادة فيما يحب وفيما يكره ففي الوقت الذي يصادف خيانة لوفاء او تجنياً على وداد سوف يقدم عقله الحارس ليلقنه ان الخائن غير مأسوف عليه ، فهو منذ تلك اللحظة موكول الى قائمة االاهمال ، لا وداد ولا عداء ، لا مديح ولا سباب . . اذن فلم الألم ؟ بل ولماذا الأسف ؟ ولعل تكشف الخائن عن نفسه هو من مصلحته لكي يحول ذلك دون اندفاعه في الاخلاص اكثر فأكثر مع من لا يستحق الاخلاص . قالت بيداء : ولكن الا يتألم

الإنسان اذا قوبل جميله بالنكران وجوزي فضله بالعدوان ؟ قالت رباب : ان هذا هو شعور الإنسان الذي يتاجر بعواطفه او يرابي بها وليست من اخلاق الفرد العاقل الذي يحسن حباً بالاحسان ويساعد رغبة في المساعدة ويخلص تمشياً مع طبيعته الصالحة التي تدعوه للاخلاص ، فإن هذا المؤمن العاقل لا يندم على ما اعطى ولا يأسف على ما بذل وان بقي بدون بدل ، لأنه كان مستجيباً بذلك كله الى نداء الإيمان وتعاليم الإسلام ، فهو يزهد في جزاء البشر ويأمل بما عند الله من مثوبة ورضوان ، ثم ان عمل الخير ما هو الا طبيعة الإنسان المؤمن ، ولهذا فهو لا يبيع ما يمليه عليه طبعه بالأثمان وحتى لو اراد فإن العواطف الخيرة لا تقدر بثمن مهما كان . . قالت بيداء : الحقيقة ان العواطف الخيرة لا تقدر بثمن يا رباب ، فأنا مثلا سوف لن استطيع أن أفي عواطفك تجاهي حقها ، مهما حاولت . . قالت رباب : أرجو أن تكوني واقعية معي يا بيداء واتركي كلمات المجاملة والاطراء ، فإن تجاوبك معي هو أغلى ما أتوق اليه الآن ، قالت بيداء : ولكني أرى ضرورة التعبير عن المشاعر اذا كانت صادقة . . قالت رباب : نعم فإن العاطفة الصادقة المنبعثة عن وحدة العقيدة والإيمان من المستحب لها أن تطبع بعض آثارها في الظاهر كما قال الرسول (ص) «إذا احب احدكم أخاه فليخبره انه يحبه» وكما قال الإمام أمير المؤمنين (ع) : (لا تجعل المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ، فإن في ذلك تزهيداً لأهل

الإحسان في الإحسان وتحريضاً لأهل الإساءة على الإساءة) ، وكذلك الشكر أيضاً ولكنه ينبغي ان يكون شكراً صادقاً معبراً عن الحقيقة لا اكثر ولا أقل . . قالت بيداء : إذن ؟ فأجابت رباب : اذن فإن أثمن ما تتحفيني به يا بيداء هو انعطافك نحو افكاري وتجاوبك معها تجاوباً واقعياً يفتح امامك أبواب السعادة في الحياة ، فنحن كما نؤمن بوجود الطرق المادية التي تجر الى الشقاء نؤمن أيضاً بأن هناك طرقاً روحية عديدة تقود الى السعادة ، كما قال الإمام (ع) : (اصلح آخرتك يصلح لك أمر دنياك) وكما قال أيضاً (اصلح ما بينك وبين الله يصلح الله ما بينك وبين الناس) فليست الأخلاق الإسلامية الا الطريق المهيع الذي يقودنا الى عالم السعادة الواقعية ، ولنأخذ على ذلك مثلاً القناعة ، وهي مما يحلي بها الإسلام المؤمنين من افراده ، هذه القناعة كما هي كثيرة معطياتها الروحية لحاملها ، والطمع الذي هو نقيضها والذي حذر منه الإسلام ونهى عنه ، هذا الطمع كم هي قاسية نتائجه وآثاره لدى الإنسان . قالت بيداء : لقد فتحت لي يا رباب بكلماتك هذه أبواباً من الأمل لم اكن أحلم بوجودها من قبل . قالت رباب : وهذه الأبواب هي التي سوف تبرز هذه الآمال الى حيز الوجود ، فالأمل يبعث الى العمل والعمل يؤدي الى تحقيق المأمول ، وهكذا بالنسبة لليأس فاليأس يورث العجز والعجز يقود الى الفشل ، والفشل هو أصدق مفاهيم اليأس . قالت بيداء : سوف لن

أيئس يا رباب وسوف أتسلح لذلك بسلاحك الذي قدمته الي ، سلاح الإيمان عسى أن أعود فأزهو بارادتي من جديد . قالت رباب : لا تقولي عسى يا بيداء بل قولي انني سأزهو بارادتي كما لم أزه بها من قبل ، فالإيمان هو الذي يهب النفس الإطمئنان على زلازلها وكوارثها ، وإذا لم يكن كذلك فما هو الا دعوى باللسان فقط ، وغريزة الإيمان هي نفسها معنى الرضى بالقدر خيره وشره ، فتبرز هموم الدنيا ونكباتها داخل اطار من المعاني الشريفة التي تنتزع منها شرها وأذاها للنفس فيستحيل الفقر الى احد انواع الزهد ويصبح المرض ضرباً من الجهاد ، والخيبة طريقاً إلى النصر ، والحزن بلورة للروح ، وهكذا يستحيل البلاء الى ثواب وحسنات . قالت بيداء : أرجو أن أكون كذلك يا اختاه ، قالت رباب : ان كلمة أرجو تدخل على الأمر الذي لا بد لنا بإيجاده ، أما الاتجاه الى الله والسير على هداه فهو ما نتمكن أن نختاره بأنفسنا ونحققه بمطلق حريتنا ، أتعلمين يا بيداء كم هو لذيذ هذا الشعور ؟ شعور الإنسان الذي اوكل امره الى القدرة الالهية ، القدرة الحقيقية في الوجود ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ أتدرين يا بيداء كم هو رائع هذا التكيف الروحاني للنفس الإنسانية تكيفها لعبادة الله بكل معاني العبادة التي تشتمل كل شيء حتى الصبر على المكاره والثبات في الشدائد .

إذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجني عليه اجتهاده

وكما قال الإمام : (ان الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط) قالت بيداء : إذا كان انفلاتي على مشاعر اليأس هو الذي قادك نحوي فهل سيضع انفتاحي للأمل نهاية لمهمتك بالنسبة الي ؟ أقصد هل ستتركيني بعد أن تطمئني الى تحقيق غايتك يا رباب ؟ قالت رباب : وكيف لي أن اتركك يا بيداء وتحقيق غايتي هو أقوى حبل يشدني اليك لأنه قام على أساس الإيمان ، ورابطة الإيمان هي أقوى رابطة لدي ، بل هي الرابطة الحقيقية التي اؤمن بوجودها ، فأنا لا اعترف بارتباط يقوم على اساس كلمات مجاملة او ضحكات مرح ، ولا اقر اتصالا تتحكم فيه بروتوكولات واتيكيتات ، وأنا اؤمن أيضاً أن أية صلة لا تستمد وجودها من الوحدة الفكرية الصالحة والاتجاه الروحي الخير سوف لن تمتلك مقومات الاستمرار مهما طالت او تعمقت ، لأن الصلة بين اثنين لا بد لها ان تستند الى قاعدة تدعو اليها ، وليس هناك قاعدة ثابتة لدى الإنسان عدا القاعدة الفكرية والروحية ، والا فطبع الإنسان وذوقه وانفعالاته العاطفية ما هي الا عرضة للتقلبات والتغيرات ، ومع تقلبها وتغيرها تتلاشى معالم الصلات التي كانت قد نشأت منها ، ولهذا فإن صلتي يا بيداء سوف لن تمحوها يد الأيام مهما كانت ، بل انها سوف تتعمق مع تعمق افكارك المؤمنة ان شاء الله ، قالت بيداء :

إذن فما أحلى الإيمان الذي من مكاسبه اخوتك الصادقة يا رباب ، قالت رباب : وما احلى الإيمان الذي يفتح القلوب للمؤمنين يدخلونها بدون استئذان ، وما أحلى الإيمان الذي يتسع بقلب المؤمن حتى يشمل العالم بحبه ويسبغ على الدنيا الخيرة رحمته وحنانه ، كما وصفت الآية المباركة التي تقول ﴿محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ قالت بيداء : ولكن القلة هم الذين يبنون صلاتهم على أمثال هذه الأسس الثابتة قالت رباب ولهذا ترين فشل أغلب العلاقات وانفصام العديد من الصلات بل تحولها الى صلات عدائية في أغلب الحالات ، قالت بيداء : اذن فإن صلتنا سوف تبقى ثابتة مع أنفاس الحياة التي تتردد ، قالت رباب : نعم ما دام الإيمان رائدنا والصلاح هادينا ، وسوف ترين كيف تحقق لك هذه الصلة اشكالا من الولاء الصادق في الجهر والخفاء والتضحية الخالصة حتى في الستر والمساندة والمعاضدة في جميع الحالات ، فإن من طبيعة المؤمن أيضاً أن يساند اخاه المؤمن ، يقف الى جانبه حتى أمام الملأ ليشد من أزره ويقوي معنوياته ، قالت بيداء : نعم ان خير التضحية ما كان مستتراً وافضل المساندة ما كان ظاهراً ، فلا خير في مساندة مخفية ولا خير في تضحية مكشوفة ، قالت رباب : وسترين أيضاً يا بيداء كيف سيستحيل محيطك الذي ستقيمين بنيانه بوحي من هدى الإيمان كيف سيستحيل الى محيط هادىء مريح يهبك الراحة والأمان ، لا عتاب ولا اعتذار ، لا

عقاب ولا جزاء ، لا عداء ولا اعتداء ، لا ظن سوء ولا تضخيم مشاكل ، لأن جميع هذه الحالات تستند الى جذور قد نهى عنها اسلامنا ، قالت بيداء : لقد شوقتني الى هذا الحلم الساحر يا رباب ، قالت رباب : انه ليس حلماً يا بيداء ، بل انه الحقيقة بعينها والواقع الذي تعيشه كل مؤمنة واعية لطبيعة الإيمان ، قالت بيداء اذن فسوف اعيشه الى جوارك يا رباب ان شاء الله ، فأردفت رباب تقول : نعم ان شاء الله يا بيداء .

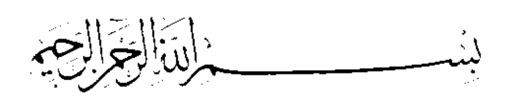
بنت الهدى

بنت الهـدى

٥

لقــــاء في المستشفى





تقلبت الدكتورة معاد على فراشها وهي تستمع بين اليقظة والمنام إلى رنين جرس الهاتف وكأن جسمها كان يعاني صراعاً بين سلطان النوم ونداء الواجب، فاستمر الجرس يرن ويرن بأسلوبه الرتيب، وبقيت هي تعاني صراعاً بين عالمي اليقظة والمنام، حتى انتبهت مشاعرها وأحست بمسؤولية اليقظة فاندفعت نحو الهاتف وهي تلاحظ الساعة فتجدها تناهز الواحدة بعد منتصف الليل.

إذن فلا شك أنها حالة مرضية مستعجلة وهكذا كان، فقد كانوا يستدعونها من الطابق السابع لوجود حالة خطيرة وما كان منها إلا أن أسرعت بلبس قناعها وأبرادها وخرجت مسرعة إلى حيث تجد المريض.

وأمام غرفة العلاج وجدت ممرضة أخبرتها أن المريض امرأة عجوز تشكو من آلام شديدة في صدرها فأسرعت الدكتورة في الدخول حيث استقبلتها فتاة شابة جميلة الوجه، رشيقة القوام، قد ارتدت الحجاب الكامل، وكأن الدكتورة

قد ارتاحت لمنظرها فشدت على يدها مسلمة بحرارة وهي تقول:

ـ خير إن شاء الله.

قالت الفتاة: إنها جدتي يا دكتورة، وقد انتابتها آلام قاسية منذ ساعات تعرضت خلالها لاغماء طال بضع دقائق.

قالت هذا وسارت مع الدكتورة حيث كانت الجدة ترقد شاحبة الوجه على طاولة الفحص وهي تئن من الألم.

فسارعت الدكتورة باجراء الفحوص اللازمة واستدعت معها من يعينها على ذلك وكانت تعمل بجد واندفاع وكأنها الطبيبة والقريبة في وقت واحد، وكانت الفتاة تتجول خارج الغرفة تقطع الردهة بخطواتها القلقة جيئة وذهاباً، حتى اكتملت الفحوص وثبت أنها مصابة بذبحة قلبية وأن عليها البقاء في المستشفى إلى فترة، عند ذلك تم نقلها إلى غرفة خالية أعطيت بعض المهدئات، الشيء الذي مكنها من النوم.

وكانت الدكتورة حتى ذلك الوقت مشغولة بتعهد أمر المريضة وتهيئة وسائل الاسعاف المطلوبة لها، ولهذا فهي لم تتمكن أن تتحدث مع الفتاة بضع كلمات قصار تتعلق بحال المريضة، ولكنها عندما اطمأنت على راحة المريضة ووثقت من أداء مهمتها بالشكل المطلوب التفتت نحو الفتاة التي كانت

تقف في قلق إلى جوار سرير جدتها وقد تندت أهدابها بالدموع، فبدت عيناها من خلالها وكأنها نجمتان تتلألأن من وراء الغيوم. فشعرت أن عليها أن تقول لهذه المسكينة كلمة تبعث في نفسها الأمل، فحاولت أن تبتسم وهي تقول:

أرجو أن يكون العارض بسيطاً سيما وقد أجريت لها الاسعافات اللازمة منذ البداية.

قالت الفتاة: أنني جد شاكرة لك اهتمامك بأمرها يا دكتورة.

قالت الدكتورة: إن هذا واجب علي تجاه كل مريض، وهنا لاحظت الدكتور أن لون الفتاة أخذ يبدو شاحباً، فأمسكت بيدها فوجدتها باردة كالثلج فقالت لها بحنو بالغ: أجدك مرهقة جداً فلماذا لا تنامي ولو لبعض الوقت؟ قالت الفتاة: آه نعم أنني متعبة ولكن جدتي كيف أتركها وحيدة؟

قالت الطبيبة: أليس لديها بنت سواك لتشاركك السهر؟

فترددت الفتاة لحظة ثم قالت: كلا ليس لديها بنت سواي وليس لدي أم سواها، قالت هذا وانحدرت من عينيها قطرات من الدموع زادتها جمالاً على جمال.

فتألمت الدكتورة لحالها وقالت لها وهي تشد على يدها بحنو: سوف أسهر أنا عليها بدلاً عنك.

قالت: كلا إن هذا لا يمكن أن يكون. ان عليك أن تنامي أنت فقد أجهدت نفسك بما فيه الكفاية.

فابتسمت الدكتورة وقالت: أنني اعتدت على هذه الاتعاب ولم أعد أحس بثقلها علي، ثم أنني نمت ساعتين في بداية الليل ولهذا فأنت أحوج مني إلى الرقاد، ولكن انتظريني حتى أذهب إلى غرفتي وأعود.

قالت هذا وخرجت من الغرفة دون أن تنتظر جواباً من الفتاة، فأحست الفتاة بعد خروجها أنها كانت أمام انسانة رائعة من حقها أن تعتمد عليها وتركن إليها.

وسرعان ما عادت الدكتورة وهي تحمل بيدها كتاباً ثم قالت للفتاة: حاولي أن تنامي يا عزيزتي وسوف أقضي وقتي مع هذا الكتاب وأرجو أن تطمئني على جدتك لأنني سوف أهتم بأمرها جداً يا...

وسكتت الدكتورة لأنها لم تكن تعرف اسم الفتاة.

فأسرعت الفتاة تقول ورقاء، إن اسمي ورقاء يا دكتور

قالت الدكتورة: وان اسمي معاد يا ورقاء. والآن هيا إلى السرير الثاني فأنت مرهقة جداً، ولم يسع ورقاء إلا أن تمتثل لأنها كانت تشعر باعياء شديد وسرعان ما استسلمت للنوم.

أفاقت ورقاء من نومها فوجدت أنها نامت أكثر من ساعة

وأن معاداً ما زالت جالسة عند رأس جدتها تقرأ، والجدة ما زالت مستسلمة لنوم مريح نتيجة تأثير الاوكسجين عليها، فقامت عن السرير وتوجهت نحو معاد تحييها بلهفة وتسأل عن جدتها فطمأنتها معاد ثم ألقت الكتاب من يدها ونهضت وهي تقول:

سوف أذهب الآن لكي أستعد لصلاة الفجر ثم أحاول أن أنام بعد ذلك ساعة قبل بداية الدوام وسوف أمر عليك غداً ان شاء الله.

فشكرتها ورقاء وشدت على يدها وهي تقول: لست أدري كيف أشكرك يا دكتورة معاد فقد كنت بالنسبة لي يداً رحيمة ساعدتني على تحمل الصدمة وأنا وحيدة.

قالت معاد: أنك لست وحيدة يا ورقاء ما دام الله معك، فأنا الاحظ من حجابك أنك فتاة مؤمنة والايمان كفيل بأن يشدك ويسندك خلال جميع أدوار الحياة.

فأعادت ورقاء كلمات الشكر من جديد وودعت الدكتورة حتى باب الغرفة، ثم عادت لكي تجلس إلى جوار جدتها وحيث كانت تجلس معاد من قبل فلاحظت أن معاد قد نسيت الكتاب الذي كانت تقرأ فيه واسترعى انتباهها اسمه الذي بدا وكأنه غريب عليها أو مستغرب لديها. فقد كان اسم الكتاب هو: (الطب محراب للإيمان).

وتساءلت مع نفسها في تفكير ساذج قائلة: ما معنى هذا يا ترى؟

وما هو ارتباط الطب مع الإيمان؟

أو ليس الطب علماً لدواء الأجسام بينما الدين عبادة للنجاة من النار؟

إذن فكيف يصبح الطب محراباً للإيمان؟

ودفعها فضولها إلى أن تقلب صفحات هذا الكتاب. وقد اهتمت بشكل أولي بتصميم الغلاف إذ وجدته يحمل صورة ممثلة لدماغ الانسان وقد كتبت تحتها هذه الآية المباركة: ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾.

واستمرت تقلب صفحات الكتاب فتقرأ فيه سطوراً قصاراً تسلمها إلى تفكير طويل، ولم تترك الكتاب إلا خلال أداء صلاة الفجر أو قضاء حوائج جدتها حيث كانت تعود إلى الكتاب لتغرق بين صفحاته بالمطالعة والتفكير.

وأشرق الصبح ودخلت الممرضة المسؤولة لاعطاء دواء المريضة ثم خرجت، وعندما ارتفع النهار جاء الدكتور المختص وفي صحبته دكتورة فأعاد الفحص وطمأنها بكلمات قصار وخرج ومن ورائه الدكتورة مشكلة بمشيتها التي تتراقص فيها أردافها وأكنافها وخصلات شعرها مع رنين كعب حذائها مشكلة في كل ذلك جوقة موسيقية راقصة.

واستدارت قبل أن تخرج لتؤكد على ورقاء أن لا تدع المريضة تتعرض لأية حركة. وكأن هذه الكلمـات القصار مكنت ورقاء من دراسة وجهها عن قرب فوجدته مثل لوحة بالغ النقاش في صبغها وتلوينها، وسرعان ما خطر لها الفارق بين هذا الوجه الناطق بالتكلف ووجه الدكتورة معاد الناطق بالصفاء والنقاء.

وهنا أحست أنها تنتظر قدوم معاد بلهفة، فهي تحس بالحاجة إلى أن تسمع منها بعض كلمات التشجيع ثم أنها تريد أن تسألها عن بعض ما جاء في هذا الكتاب فألقت نظرة على ساعتها وحدثت نفسها قائلة:

لماذا تأخرت يا ترى؟

وعـادت تجلس إلى جـوار الجـدة التي كـانت منتبهـة ومرتاحة، فجلست أمامها وهي سعيدة لتحسنها وقالت: لكم أنا سعيدة بتحسنك يا جدتي ليتك تعلمين كم عانيت القلق من أجلك البارحة.

قالت الجدة في كآبة نعم لقد كنت أحس ذلك منك سيما وأنك كنت وحيدة يا عزيزتي.

قالت ورقاء: ولكنني لم أشعر بالوحدة لوجود الدكتورة معاد. فقد كانت لطيفة ورقيقة إلى أبعد حد. تصوري أنها أصرت علي أن أنام وجلست هي إلى جوارك لمدة ساعة أو أكثر.

فابتسمت الجدة وقالت: الحمد لله الذي أرسلها لك في ساعة المحنة يا عزيزتي.

وهنا طلبت ورقاء من جدتها أن تخلد للنوم لكي لا تجهد نفسها في الحديث. وعادت لتأخذ الكتاب تقرأ فيه من جديد، وكانت تنظر إلى الساعة بين حين وحين وهي تنتظر قدوم معاد. حتى حان وقت الظهر فأدت فريضة الصلاة وهي تشعر أنها تفتقد شيئاً. واستغربت هذا الشعور من نفسها وحدثت نفسها قائلة:

ما الذي يدعوني إلى هذه اللهفة وما رأيتها إلا ساعات قلائل؟

وهل هي سوى دكتورة أدت واجبها تجاه مريضة لا أكثر ولا أقل ولعلها سوف لن تعود إلينا ثانية.

وهنا أحست أن نداء من ضميرها كان يلح عليها بعنف قائلاً: إن من حقك هذا التلهف والانتظار. لأنها انسانة وجدت لديها الكثير من العطف والحنان، أنها لم تؤد واجب الطبيبة فقط ولكنها أدت واجب الانسانة الكاملة ولولاها لكنت الآن منهارة وأنت في وحدتك المرة مع جدة مريضة.

وأفاقت ورقاء من أفكارها هذه على طرقات خفيفة على الباب، فنهضت تستقبل القادم وإذا بالدكتورة معاد تدخل وقد أشرق وجهها بابتسامة رصينة.

فتقدمت ورقاء نحوها لتصافحها بحرارة لم تكن أقل مما أبدته معاد من حرارة ولهفة ثم قالت:

لقد عرفت من الدكتورة عبير تحسن حال الجدة، وقد كنت مشغولة منذ الصباح إذ أنني مسؤولة عن ردهة التوليد اليوم ولهذا أرجو أن لا تكوني عاتبة علي لتأخري عنك.

فارتبكت ورقاء وقالت: ولكن كيف لي أن أعتب عليك يا دكتورة، ولكنني كنت في حاجة إلى حضورك ولهذا كنت أنتظر.

فاكتسى وجه معاد بطابع الاهتمام إذ حسبت أن المريضة في حاجة إليها فمشت نحو الجدة وهي تقول:

كنت في حاجة إلي؟

ماذا ؟

هل تشكو جدتك من شيء؟

فزاد ارتباك ورقاء وابتسمت في براءة وهي تقول:

كلا أن جدتي بخير والحمد لله ولكني أنا التي كنت في حاجة اليك فهل تسمحين بالجلوس؟.

فعادت الابتسامة إلى وجه معاد وقالت وهي تجلس: لقد جئت في هذا الوقت لكي أجلس معك إلى فترة يا ورقاء ولكي أرى إذا كنت متعبة أو في حاجة إلى النوم.

قالت ورقاء: كلا أنني لا أشعر بالحاجة إلى النوم بل أنا في حاجة إلى اليقظة الكاملة ولهذا أريد أن أسألك عن شيء قرأته في هذا الكتاب، ثم أخذت الكتاب بيدها وجلست إلى جوار معاد، فقالت معاد:

آه لقد نسيت هذا الكتاب هنا، لعلك قرأت فيه يا ورقاء؟

قالت ورقاء: نعم وقد أسلمني إلى الكثير من التفكير.

قالت معاد: لماذا؟

قالت: لأنني لم أكن أحسب أن هناك ربطاً بين الطب والايمان، فالطب حسبما أعرف عنه: علم يتناول جسم الانسان، والايمان عبادة لا أكثر ولا أقل.

قالت معاد: ولكن العلم هو الذي يدعو إلى الايمان يا ورقاء، وكلما اتسعت أمام الانسان معارفه العلمية تصاعد لديه مستوى إيمانه بالخالق. قالت ورقاء: وكيف؟

قالت معاد: إن كل من يجهل شيئاً لا يثمنه يا ورقاء، فأنت الآن مثلاً لو نظرت إلى هذه المدفأة الكهربائية لما تمكنت أن تقدري مدى ما توخاه الصانع من دقة وعناية في تكوينها، ولما خمنت ما يتطلبه ذلك من معرفة مسبقة وتجارب متعددة خلافاً لمن يعلم شيئاً ولو يسيراً عن أدواتها، وأجهزتها، وتركيبها المتقن الرقيق.

وهنا لاحظت معاد شبح ابتسامة يلوح على وجه ورقاء وهي تحاول أن تخفيها تأدباً أمام الكلمات، فسكتت لحظة ثم خطر لها خاطر فسألت ورقاء قائلة:

هل أنت طالبة يا ورقاء؟

قالت ورقاء: نعم أنني ما زلت في السنة الأخيرة من الجامعة.

قالت ورقاء هذا ولم تذكر اسم الكلية التي تدرس فيها فأردفت معاد تقول:

أنك في كلية الهندسة فرع الميكانيك اليس كذلك؟

فاستغربت ورقاء وقالت: نعم، ولكن من أين عرفت هذا؟

قالت: من شبح الابتسامة التي لاحت على شفتيك عند حديثي معك عن المدفأة، فقد عرفت أن المثل لم يكن لينطبق عليك بالذات لأنك تعرفين عن صنعها بعض الشيء. ولكنك لم تحاولي أن تردي علي، وهذا يدل على منتهى الذوق منك وحسن الاستماع.

قالت ورقاء: ولكن مثلك كان مطابقاً لعين الحقيقة يا معاد سواء انطبق علي أو لم ينطبق. ولهذا أرجو أن تستمري بالحديث.

قالت معاد: نعم، ولكن العلم بالشيء ولو علماً إجمالياً من حقه أن يضاعف تثمين ذلك الشيء نجد أن العلم على مختلف صوره وأشكاله يقرب أفكاره العلماء إلى الايمان بالله، وبما أن على الطب من أهم العلوم وأدقها فأنه بالنسبة للعالم المنصف أوضح طريق للايمان.

قالت ورقاء: هل تسمحين لي بمزيد من التوضيح فأنا لا أعرف عن ديني سوى بعض التزاماته التقليدية، مثل الصوم، الصلاة، والحجاب، وطالما تعرضت للعديد من المواقف الحرجة بسبب ذلك إذ أن حجابي يوحي بأنني أعرف عن الدين الشيء الكثير. . .

قالت الدكتور: أنني أرحب بكل سؤال يا ورقاء.

قالت ورقاء: حتى ولو كان سطحياً يا دكتورة؟

قالت معاد: أنني مستعدة للجواب عن كل سؤال مهما كان ولكنني أرجو أن تتركي كلمة الدكتورة جانباً ما دام حديثنا حديثاً أخوياً تجمعنا فيه كلمة الايمان. ناديني بمعاد وهذا يكفي، ثم هاتي ما لديك بعد ذلك.

فابتسمت ورقاء وقالت: أريد أن أعرف لماذا اختار المؤلف رسم الدماغ بالذات لكي يجعله على الغلاف؟

قالت معاد: لأن الدماغ يا ورقاء هو أهم جزء من أجزاء جسم الانسان، وهو بمثابة الحاكم العامل في مختلف أجزاء

الجسم وأعصابه وخلاياه، وجسم الانسان بجميع ما فيه من خلايا عصبية خاضع في طاعة الدماغ، والدماغ، هذا الدماغ الصغير يحتوي على ألف مليون خلية عصبية!.

وهنا رددت ورقاء قائلة في تعجب: ألف مليون خلية عصبية؟!.

قالت معاد: نعم، ولكل من هذه الخلايا وظيفة خاصة وعمل محدد لا تتجاوزه ولا تتعداه، ولكنها في الوقت نفسه مترابطة في العمل، تستند كل خلية منها إلى الخلية الأخرى لكي تساعدها في النجاح، وإذا تعطل أي منها كان لعطله أسوأ النتائج.

وهنا سكتت معاد.

قالت ورقاء: الحقيقة أنني لم أكن أحسب أن دماغ الانسان على هذا المستوى من الدقة.

قالت معاد: أن أحد العلماء وهو (جودسون هريك) قال عن الدماغ خلال محاضرة ألقاها في معهد التاريخ بنيويورك عام (١٩٥٧) قال: «لو أننا جمعنا كل أجهزة العالم من التليفون، والتلغراف، والرادار، والتلفزيون ثم حاولنا أن نصغر هذه الكومة الهائلة من الأجهزة المعقدة حتى استطعنا وبمجهود جبار أن نوصلها إلى حجم مثل حجم الدماغ فانها لا تبلغ في تعقيدها مثل الدماغ»..

وهنا قالت ورقاء: لطيف أن يحمل الانسان في رأسه هذا الجهاز المتقن الدقيق، ولكن أليس من المؤسف أننا لا نعرف عن حقيقة أجسامنا شيئاً يا معاد؟

قالت معاد: ان الحديث عن جسم الانسان طويل جداً يا ورقاء.

قالت ورقاء: وكيف ذلك يا معاد؟ ألا يمكنك أن تعطيني بعض الأمثلة؟

قالت معاد: مثلاً هل تعلمين أن أعصاب الانسان متصلة مع جسم الانسان بصورة كاملة، ولكن هذا الاتصال على شكلين:

فهناك أعصاب تسمى بالاعصاب الارادية، وهي التي تسيطر على مجموعة مخصوصة من العضلات التي في الجسم وتسمى بالعضلات المخططة والتي منها عضلات اليد، والرجل، واللسان، وهي العضلات التي لا يمكن لها أن تعمل بدون ارادة.

وهناك أيضاً نوع ثان من العضلات ليس للارادة أي دخل فيها وإنما هي محكومة لجملة عصبية خاصة ومن تلك العضلات أجهزة الهضم.، والتنفس، وعمل القلب، وهنا يبدو جانب من جوانب حكمة الخالق في التصميم، فلو كانت جميع الأجهزة خاضعة لعمل الارادة لما أمكن للانسان أن

يغفل عنها لحظة حتى وفي حال النوم وإلا لتوقف القلب عن الحركة وتعطل جهاز الهضم، والتنفس عن العمل، وكذلك الحال بالنسبة للعضلات المخططة التي تخضع في عملها للأعصاب الارادية، فهي لو لم تكن خاضعة للارادة ومنشدة إليها، ولو لم تكن غير قادرة على العمل بدونها لاستمرت بعلمها كما استمرت العضلات الغير خاضعة للارادة.

قالت ورقاء: وماذا كان يحدث إذن؟

قالت معاد: لاستمر الانسان يمشي ويمشي ويتكلم ما دام حياً وما دام قلبه ينبض بالحياة.

وكانت ورقاء تستمع في اهتمام بالغ، وحينما سكتت بادرت تستزيدها قائلة أن حديثك شيق جداً يا معاد.

قالت معاد: يمكنك أن تقرئي هذا الكتاب لتعرفي الكثير عن أسرار جسمك يا ورقاء.

فسكتت ورقاء برهة ثم قالت في خجل: ولكنني لا أرغب في المطالعة يا معاد، أنني أحب أن أسمع من أن أقرأ.

قالت معاد: ولكن السماع وحده لا يكفي ولا يغني يا ورقاء فما لم يعتمد الانسان على ذهنه في فهم ما يريد لما تفهم ما يكفيه. فالانسان الذي يسمع أكثر مما يقرأ يصبح اتكالياً في فهمه للأمور، لأنه يستقبل الحقائق مشروحة وموضحة ولا يكلف نفسه مشقة مطالعتها واستيعابها شرحاً وتوضيحاً وما

دام الفهم معتمداً على الآخرين كانت المعلومات محدودة لأن السماع مهما كان لا يبلغ إلى مستوى القراءة في الكم والكيف.

وهنا تململت الجدة على فراشها فقامتا إليها معاً. وانحنت عليها معاد تسأل عن راحتها فابتسمت الجدة وشكرتها على موقفها منها في الليلة الماضية وقالت لها:

أنني دعوت لك كثيراً لموقفك البارحة مع ورقاء وسوف أدعو لك ما دمت حية.

قالت معاد: أنني أشكرك جداً وأرجو لك العمر الطويل.

قالت الجدة: ولكن ما هو اسمك يا ابنتي؟

قالت معاد: ان اسمي معاد.

فسكتت الجدة لحظة ثم قالت: لقد سبق أن سمعت بمثل هذا الاسم من قبل ولكن ما هو اسم أبوك يا معاد؟

وهناك لاحظت ورقاء أن معاداً قد تجاهلت السؤال حيث قالت: أنني سوف أزورك في كل يوم يا خالة وأرجو أن تتقدم صحتك بسرعة بفضل الله وبفضل عناية ورقاء.

فضحكت ورقاء وهي تقول: وبفضل الدكتورة معاد أيضاً. ثم عادتا للجلوس، وكانت ورقاء تود لو استأنفت

معاد حديثها ولكن خشيت أن تطلب منها ذلك فتثقل عليها فيه، ولهذا مرت عليهما فترة سكوت تتخلله بعض الكلمات وعندما أرادت معاد أن تذهب طلبت منها ورقاء أن تترك الكتاب عندها لتقرأ فيه.

* * *

استمرت معاد تزور المريضة في كل يوم الشيء الذي شد أواصر العلاقة بينها وبين ورقاء، سيما وأن ورقاء كانت تستفيد منها فكرياً فيضاعف ذلك من إعجابها وحبها لمعاد، ولكن فجأة مر يوم ويومان دون أن تزور معاد غرفة المريضة جدة ورقاء، وفي اليوم الثالث عندما مرت عليهم الدكتورة عبير سألتها ورقاء هل أن الدكتورة معاد مجازة منذ يومين؟

قالت: كلا ولكنها مريضة!

فندت عن ورقاء آهة تألم وقالت:

مريضة؟ ولكن أين هي في البيت أم في المستشفى؟

قالت: أنها في المستشفى ثم انصرفت لكي لا تفسح الطريق لسؤال جديد.

وبقيت ورقاء في قلق حائرة فهي تود أن تذهب إلى معاد ولكنها لا تعرف كيف؟ وهل يمكن لها ذلك؟

وبعد ساعة دخلت الممرضة المسؤولة فسألتها عن معاد فقالت: أنها مريضة منذ يومين.

قالت: وهل يمكن عيادتها في غرفتها؟

قالت الممرضة: أنها ليست في غرفتها.

قالت ورقاء: أين هي إذن؟

قالت: أنها نقلت إلى الغرفة المقابلة لغرفتكم من الجهة الثانية.

فردت ورقاء في فزع قائلة: آه أنها مريضة جداً إذاً!!

فردت الممرضة: أنها مصابة بانفلونزا حادة ولهذا ومن أجل صحتها ووقاية لقسم الطبيبات من العدوى رجح الطبيب نقلها إلى غرفة العلاج.

فاطرقت ورقاء تفكر في مرض معاد بألم ثم قالت:

ليتني أتمكن أن أذهب لعيادتها.

قالت الممرضة: وماذا يمنعك من الذهاب؟

قالت: جدتي كيف أتركها وأذهب؟.

قالت الممرضة: ان جدتك بخير وسوف أمر عليها أنا خلال فترة غيابك عنها.

قالت ورقاء: ولكن متى يمكنك الحضور؟

قالت: بعد الثانية عشر ظهراً.

فشكرتها ورقاء وبقيت تنتظر ساعات بعد الظهر على لهفة وقلق حتى حان الوقت فتوجهت نحو غرفة معاد وطرقت الباب بهدوء خشية أن تكون المريضة نائمة، وفوجئت أن وجدت شاباً يفتح لها الباب، فارتبكت وحاولت أن تتراجع ولكن مظهر الشاب الوقور بعث في نفسها شيئاً من الثقة، فسلمت ثم قالت: كيف حال الدكتورة معاد؟

فأفسح الشاب لها الطريق قائلاً: تفضلي اليها فهي مستيقظة.

فدخلت ورقاء تمشي بخطوات مرتبكة ولاحظت أن الشاب خرج من الغرفة وأغلق الباب وراءه فقالت في نفسها: لا شك أنه الطبيب، ثم مشت إلى حيث ترقد معاد على السرير، فانحنت نحوها تحييها بعطف وتسأل عن صحتها بلهفة، فوجدت الحمى لديها مرتفعة وسمعت أنيناً خافتاً يصدر عنها، الشيء الذي آلمها جداً فنادتها بصوت خافت قائلة:

دكتورة معاد! دكتورة معاد! كيف أنت يا أختاه؟ فحاولت معاد أن تبتسم وأجابت بصوت واهن:

أرجو أن أكون بخير، كيف هي جدتك يا ورقاء؟

قالت: أنها بخير تسلم عليك وتدعو لك بالصحة.

ثم جلست ورقاء إلى جوار المريضة ولاحظت أن معاداً مستغرقة في بحران من الحمى، وأن غدائر شعرها مبعثرة على الوسادة مع حمرة قانية تصبغ وجهها الجميل الذي كانت تراه بدون حجاب لأول مرة، فودت لو تمكنت من مساعدتها بأي ثمن.

ومضت الدقائق طويلة ومتعبة وهي جالسة إلى جوار المريضة يعز عليها أن تذهب وتتركها وحيدة، ومن ناحية ثانية كانت تحس بالقلق من أجل جدتها المريضة ولا تتمكن أن تتأخر عنها أكثر من هذا.

ثم فتحت معاد عينها ورأت ورقاء ما زالت إلى جوارها فقالت لها بصوت متقطع: لماذا أنت ما زلت هنا يا ورقاء؟ عليك أن تعودي إلى جدتك المريضة يا عزيزتي.

قالت ورقاء: ولكن كيف أتركك وحدك يا معاد؟

قالت معاد: أنني لست وحدي يا ورقاء نادي لي أخي إذا خرجت.

قالت ورقاء: وأين أجد أخاك يا معاد؟

قالت: أحسبه في غرفة الاستعلامات، فظهرت الحيرة على ورقاء وقالت:

ولكن ما هو اسمه؟ أقصد كيف أتمكن أن أعرفه فأستدعيه؟

فابتسمت معاد رغم حالها وقالت: ان اسمه سناد وهو الذي فتح لك الباب.

قالت ورقاء: آه لقد حسبت أنه الطبيب.

قالت معاد: صحيح أنه الطبيب كما خمنت ولكنه أخي في الوقت نفسه ولولا ذلك لما كنت أمامه هكذا.

قالت هذا وأشارت إلى خصلات شعرها المبعثرة.

قالت ورقاء: لقد حسبته طبيباً غريباً حين رأيته قد خرج ولم يعد.

قالت معاد: لقد خشي أن يضايقك بوجوده ولهذا خرج.

وهنا قامت ورقاء وقبلت معاد متمنية لها الشفاء وخرجت من الغرفة متوجهة إلى غرفة الاستعلامات، وكانت تشعر بالحراجة لهذه المهمة ولكنها وجدته أمام الغرقة وقد لاحظ انصرافها دون أن تقول له شيئاً وبذلك تخلصت مما كانت تستشعره من إحراج، وذهبت إلى جدتها مسرعة فوجدتها ما زالت نائمة فجلست إلى جوارها تقرأ ولم تطل مع الجدة سنة النوم إذ فتحت عينها ونظرت إلى ورقاء فسألتها ورقاء عن راحتها فردت قائلة بارتياح:

أنني بخير ولكن كيف وجدت الدكتورة معاد؟

قالت ورقاء بألم: إنها مريضة جداً يا جدتي.

قالت الجدة؛ شفاها الله وعافاها، ولكن من كان معها.

قالت ورقاء: يبدو أن أخاها طبيب وكان إلى جوارها حين ذهبت ولكنه خرج عند دخولي.

فقالت الجدة: من هذا يبدو أنه انسان مهذب.

وفي صبيحة اليوم الثاني ذهبت ورقاء إلى عيادة معاد من جديد فوجدتها أحسن حالاً مما كانت عليه وقد رحبت بها وشكرت لها زيارتها الماضية فقالت ورقاء:

لقد عز علي جداً أن أراك في تلك الحالة سيما عندما تحسست جبينك فوجدته يلتهب من الحرارة، فقد أحسست بأنني أشاركك الألم ولكن بشكل روحي.

فابتسمت معاد وقالت: يبدو أن أعصاب الحس لديك مرهفة جداً يا ورقاء؟

فضحكت ورقاء وقالت: أنه أمر طبيعي وبسيط ولا يحتاج إلى مزيد في الحساسية.

قالت معاد: صحيح أنه أمر طبيعي ولكنه ليس بالأمر البسيط كما تتصورين، فأن عملية الاحساس وسرعتها أمر يسبقه العديد من العمليات داخل الجسم.

فاستغربت ورقاء وقالت: العديد من العمليات وكيف؟

قالت معاد: هل تريدين أن أشرح لك ذلك بالتفصيل أم باختصار؟

قالت ورقاء: كما تحبين يا معاد.

قالت معاد: تنتشر على مستوى سطح الجلد شبكة هائلة يا ورقاء ومهمتها هي نقل الأخبار التي تصلها من مختلف طرق الحس، وتنتهي جميع هذه الألياف العصبية التي تتشكل منها الشبكة تنتهي بجسيمات خاصة ينفرد كل منها بنقل حس معين محدد، فهناك مثلاً جسيمات تنقل الحر، وجسيمات تنقل البرد، وأخرى تحس الألم، وهكذا نجد أن كل جسيمة من هذه الجسيمات تنفرد بمهمة خاصة لا تؤديها سواها.

قالت ورقاء: وما هو عدد هذه الجسيمات يا معاد؟

قالت معاد: أنها تتصاعد أعداد هذه الجسيمات في سطح الجلد إلى أعداد هائلة.

قالت ورقاء: فما هو عدد أجهزة إحساس الألم مثلاً؟

قالت معاد: هناك (٣ ـ ٥) ملايين جهاز حساس للألم و(٣٠٠,٠٠٠) جهاز حساس للحر و(٥٠٠,٠٠٠) جهاز حساس للمس والضغط.

قالت ورقاء: وما هي هذه الأجهزة يا معاد؟

ـ قالت معاد: مهمتها هي نقل التنبيهات عن طريق الأعصاب الحسية حتى توصلها إلى المنطقة الخلفية من النخاع الشوكي حيث تبلغ الأخبار إلى الخلايا. وعند ذلك تقوم الخلايا بالاتصال بالمنطقة الأمامية من النخاع الشوكي حيث ترقد هناك مفاتيح السيطرة على العضلات، ولهذا تجدين أن اليد إذا لامست الحرارة ترتد عنها بسرعة تبلغ جزء من مائة من الثانية، هذه السرعة الهائلة التي تمر بنا أو نمر بها دون أن نعلم أي تخطيط هائل جبار سبق هذه العملية البسيطة ودون أن نستشعر الصغار أمام عظمة الخالق المبدع المدبر.

كانت معاد تتحدث وورقاء تستمع إليها بانجذاب وقد جلست على الكرسي الذي أمامها مصغية بكل انتباه. وودت لو أن معاداً بقيت تتكلم أكثر وعندما سكتت أرادت أن تطلب منها الاستمرار ولكنها خشيت أن ترهق صحتها فبقيت ساكتة تنظر إليها في اعجاب واكبار ثم قالت: إن حديثك شيق يا معاد فأنني محرومة ممن يزودني بالمعلومات الدينية سيما عن إثبات وجود الخالق فليس لدي من يعينني على مجابهة الشبه والتشكيكات مع كثرة ما يواجهني منها في مختلف المناسبات، وليتني كنت مثلك لكي أفهم ما تفهمين وأعرف من أمر ديني وخالقي ما تعرفين، لقد كنت أتمنى أن أدخل الكلية الطبية ولكن درجاتي لم تساعدني على ذلك.

فابتسمت معاد وقالت: إن معرفتي لا تستند إلى الكلية

الطبية فلو لم أكن أعرف لما استفدت شيئاً مما قرأت هنا.

قالت ورقاء: إذن فأنت كنت تعرفين المزيد عن دينك قبل أن تدخلي الكلية؟

قالت: نعم، لأن أخي كان يوجهني ويدفعني إلى القراءة والمطالعة منذ الطفولة، وقد ساعدني على تفهم الكثير مما كان يعسر علي، ولم تعلم ورقاء لماذا خطر لها أن تسأل قائلة:

أي إخواتك هذا الذي تعهدك بالتربية والتوجيه؟

فابتسمت معاد وقالت: ليس لي إلا أخ واحد وهو الذي ما زال يتعهدني بكل شيء، حتى بالتمريض إذا مرضت، أنه كل شيء بالنسبة لي.

قالت ورقاء: أدامه الله لك وأدامك له يا أختاه.

قالت معاد: تصوري أنه عطل عيادته من أجلي خلال أيام شدة حماي!

وهنا قالت ورقاء: إذن فهو ليس معك هنا في نفس المستشفى؟

قالت: كلا فهو قد أكمل ما عليه وفتح له عيادة خاصة، عند هذا لاحظت ورقاء أن مدة غيابها عن جدتها قد طالت أكثر مما ينبغي فنهضت لكي تودع معاداً وهي تقول: يعز عليّ أن أتركك وحيدة ولكن عليّ أن أذهب من أجل جدتي.

قالت معاد: لا عليك يا عزيزتي فإن سناداً يأتي بعد قليل إن شاء الله.

قالت ورقاء: وسوف أزورك غداً أيضاً.

قالت معاد: سوف أعود صباح غد إلى غرفتي فتفضلي إلى هناك.

قالت ورقاء: ولكنني سوف أتعبك بالأسئلة يا معاد.

قالت معاد: إن تعبك راحة يا ورقاء، فتعالي إليَّ متى أحببت وستجدينني سعيدة بزيارتك يا أختاه.

فضحكت ورقاء وقالت: إذن فأستودعك الله إلى لقاء غد إن شاء الله.

* * *

وفي عصر اليوم الثاني ذهبت ورقاء إلى عيادة معاد في غرفتها الخاصة بقسم الطبيبات، فاستقبلتها معاد مرحبة.

فقالت ورقاء: كيف أنت اليوم يا معاد ومتى سوف تمارسين أعمالك لكي تعودي إلينا من جديد؟

فقالت معاد: أنني اليوم بخير ولكنني أشعر بشيء من الألم في منطقة الطحال وأخشى أن يكون ذلك من تأثير الأنفلونزا ولهذا فأنا أنتظر نتيجة التحليل.

قالت ورقاء: أرجو أن يكون الطحال سالماً. ثم أنني أتصور أن آلام الطحال ليست مهة جداً.

فابتسمت معاد وقالت: ولكن الطحال منطقة مهمة جداً في جهاز جسم الإنسان لأن الله عز وجل لم يخلق عضواً من أعضاء جسم الانسان دون أن يكون له أكبر الأثر في سلامة الجسم.

قالت ورقاء: فما هو أثر الطحال يا ترى؟ وما هي مهمته التي جعله الله تبارك وتعالى أميناً على ادائها؟

قالت معاد: أنه مقبرة سيارة مع الجسم تستقبل جثث الكريات الحمر عندما ينتهي عمرها الذي لا يطول عادة أكثر من شهرين واللطيف في عملية الدفن هذه أن ذرة الحديد التي تنقل الكريات حين موتها إلى الطحال تدفنها هناك ثم تعود خالية.

قالت ورقاء: ولكن لماذا تعود هي إذن؟

قالت معاد: لأن الجسم يستفيد منها في عملية بناء الكريات الحمر الجديدة.

قالت ورقاء: ولكن هل أن ذرة الحديد هذه هي التي تصنع الكريات الحمر؟

قالت معاد: كلا أنها عنصر يستفاد منه في ممنع الكريات، أما المصنع الرئيسي للكريات الحمر وحتى البيض منها فهو النخاع الموجود في باطن العظام، وهكذا ترين عظمة هذا المصنع الهائل الذي يسمى بجسم الانسان وكيف أن كل عضو منه ينفرد بمهمة خاصة وعمل معين.

قالت ورقاء: حدثيني عن ذلك يا معاد.

قالت معاد: سوف أعطيك مثلاً عن ذلك. وهو أن جهاز الدوران الذي ينقل الغذاء والأوكسجين إلى الأنسجة العطشى له مهمة ثانية في الوقت نفسه وهي إرجاع بقايا الاحتراق ونفايات الغذاء.

قالت ورقاء: إذن فهو يقوم بمهمة المعبد للطرق والمسهل للمواصلات بين الأمعاء؟

قالت معاد: نعم أنه كذلك، وهكذا أيضاً جهاز التنفس الذي نعيش معه العمر دون أن نلتفت إلى عظمة خالقه المخطط والموجه له، فهو يستورد الغازات الضرورية للبدن

مثل الاوكسجين ويطرح غاز الفحم. وهذه عملية تنقية للدم من كل ما لعله يعلق له من أكدار. يستورد ما يحتاجه البدن، ويصدر ما لا حاجة له به، أنها الدقة الهائلة في الخلق والرحمة المعطاء في تدبير شؤون الحياة.

قالت ورقاء: أزيديني بالله عليك يا معاد.

قالت معاد: أننا نأكل كل ما يلذ لنا، ونشرب كل ما يطيب لنا شربه غافلين عما هيأته لنا الرحمة الآلهية من ممون مخلص أمين ينقل إلى الأمعاء النشويات، والبروتينات، والدسم، والماء والأملاح المعدنية، والفيتامينات، وكل هذه هي مما يحتاجه جسم الانسان، ومن ناحية ثانية لا يغفل هذا الممون الأمين عن إلقاء الفضلات التي لا يحتاجها البدن خارج الحدود.

قالت ورقاء: وما هو هذا الممون يا معاد؟

قالت معاد: ليس هذا الممون الأمين سوى الجهاز الهضمي لدى الانسان.

وكانت ورقاء تستمع إلى معاد باهتمام بالغ فلما سكتت أردفت قائلة: والكبد ما هي وظيفته إذن؟

قالت معاد: الكبد هو مركز الجمارك العام في جسم الانسان.

قالت ورقاء: وكيف؟

قالت: أنه ينقي كل ما يدخل إلى البدن عن الطريق الهضمي فلا يسمح إلا بمرور ما هو مرغوب فيه وصالح للجسم. أنه من خطوط الدفاع المهمة التي خلقها الله تبارك وتعالى للدفاع عن سلامة هذا الجسم القاصر الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

وعند ذلك سكتت معاد وكأنها أرادت تبديل مجرى الحديث. فأعطت لورقاء فترة سكوت وتفكر ثم قالت: والآن حدثيني عن صحة جدتك يا ورقاء.

فانتبهت ورقاء من استغراقتها الفكرية وقالت أنها أحسن حالاً والحمد لله. ولهذا تمكنت من تركها وأتيت اليك وقد ألحت علي أن أعود إلى الدوام في الأسبوع القادم ولكنني ما زلت مترددة في موضوع الدوام.

قالت معاد: لقد طال انقطاعك عن الدراسة يا ورقاء وأنا أيضاً أرجح عودتك إلى الدوام وسوف أحاول أن أمر أنا عليها خلال غيابك فليس من الصالح تخلفك عن الدراسة أكثر من هذا.

قالت ورقاء: أن جدتي المسكينة وفرت لي جميع أسباب الراحة، وبذلت لي المزيد من الحب والحنان ولكنني ما زلت أشعر بالوحدة والغربة في أمثال هذه الحالات لأنني البنت الوحيدة لأبنها الوحيد الذي توفى شاباً وكان عمري حين وفاته

سنة واحدة، أما والدتي فقد كانت قد توفيت على أثر ولادتي مباشرة.

قالت معاد: إذن فأنت بدون أخت، وأنا بدون أخت، فلتكن كل منا أختاً للثانية إذا وافقت على ذلك.

فأشرق وجه ورقاء وقالت في لهفة: أتـراك جادة فيـما تقولين؟ هل تقبلين أخوتي يا معاد؟

قالت معاد: وأكون سعيدة بها فهل توافقين أنت؟

قالت ورقاء: نعم وكيف لا!.

قالت معاد: إذن فقد اتفقنا يا أختاه والآن أن عندي لك كتاباً حبذا لو قرأتيه.

قالت ورقاء: الحقيقة أنني أصبحت أفكر جدياً بالمطالعة ولكنني لم أجربها لحد الآن.

قالت معاد: إذن جربي مع هذا الكتاب، ثم أعطتها كتاباً قرأت ورقاء اسمـه فوجـدته (التكـامل في الاسـلام) ولاحظت أنه الجزء السابع منه، فأخذته شاكرة ثم ودعت معاد وذهبت إلى جدتها.

ومضت الأيـام، وكانت معـاد قد عـادت إلى عملهـا واستمرت تمر على ورقاء في كل يوم وتعنى بجدتها حال ذهابها إلى الكلية وكانت ورقاء قد قرأت كتاب التكامل في الاسلام

وطلبت الأجزاء الباقية منه، لأنها شعرت ولأول مرة بالرغبة في استيعـاب الكتاب، فكـانت تختلس الوقت بـين دوامها وتمريض جدتها لتقرأ من الكتاب بعض المواضيع وهي في كل ذلك تسأل معاد عما يخطر لها حول ما تقرأ. ولهذا أخذت تشعر بأنها أصحبت مشدودة إلى معاد فكرياً، وروحياً، وأن من العسير عليها أن تبتعد عنها بعد الآن.

وفي يوم من الأيام كانت ورقاء تجلس أمام معاد تستمع إليها وهي تتحدث عن عظمة الخالق التي تظهر بعض آثارها في دقة خلق الانسان فقالت لها:

هل حقاً يا معاد أن خلايا جسم الانسان تتغير وتبدل؟

قـالت معاد: نعم أن الانسـان يتغـير بشكـل مستمـر الاخلاط، والخلايا، والكريـات، والشحوم، والبـروتينات، والماء، إلى آخر ما في جسم الانسان من خلايا، وحتى بالنسبة للخلايا العصبية فأنها تتغير وتتبدل أيضاً، وعلى العموم فأن الجسم كله يتجدد كل فترة قد تقدر ببضع سنين ولا تزيد بحال على عشر سنين.

وهنا قالت ورقاء مستغربة: حتى الخلايا العصبية تتبدل أيضاً؟ ولكن كيف أليست الذاكرة ترتبط بالخلايا العصبية؟ فإذا تبدلت كان معنى ذلك أن الانسان يفقد ذاكرته وكل معلوماته السابقة؟

قالت معاد: وهذا هو جانب مدهش من جوانب الخلق ونحن عن هذا الطريق نستدل على أن الذاكرة والذهنية الانسانية عموماً ليست ظاهرة مادية ولا يمكن تفسيرها كما يقول الماديون وإنما هي ظاهرة روحية مجردة عن المادة ولا تخضع لقوانينها من التبدل والتغير والتحلل، وهكذا تلاحظين أن الذاكرة لو كانت مجرد ظاهرة مادية في الخلايا العصبية ومرتبطة بها لنسي الانسان كل شيء بعد مضي فترة من الزمن تبعاً لتغير تلك الخلايا العصبية، وأصبح عليه أن يتعلم حتى اسمه واسم أبيه من جديد، في الوقت الذي نجد أن الانسان العادي يجمع في كل يوم من الصور التي يراها فقط مقدار نصف مليون صورة، تجتمع كلها في مستودعات الذاكرة العظيمة، ومعنى ذلك أن ما يقرب من عشرة مليارات من الصور تختزن في مستودعات الذاكرة خلال متوسط حياة الانسان العادي، هذا بالاضافة إلى المسموعات، وغيرها مما يلمس ويحس.

وكانت ورقاء تستمع بانجذاب وعندما سكتت معاد قالت: إنها أرقام هائلة لا يكاد يتصورها الانسان.

قالت معاد: نعم أنها أرقام هائلة وقد قدر البعض أن ما تخزنه الذاكرة يتسع إلى تسعين مليون مجلد زاخر بالمعلومات، فردت ورقاء تقول: تسعين مليون مجلد!!

قالت معاد: نعم ولك أن تعرفي بعد هذا دقة الخالق وحكمة الخالق.

قالت ورقاء: ألا يمكن لنا إثبات وجود الخالق للمنكرين عن هذا الطريق يا معاد؟

أليس في خلق الكون وما فيه حجة بالغة لنا قبالهم يا أختاه؟

فابتسمت معاد ثم قالت: أنها حجج بالغة يا ورقاء ولكن فيهم من إذا أردنا أن نثبت وجود الله له عن طريق الاستشهاد بخلق الكون وما فيه قال أنه يشك بوجود الكون ولا يعترف به كموجود حقيقي لم يصوره الوهم والخيال!

قالت ورقاء: ومن هم هؤلاء يا معاد؟

قالت: أنهم المشككون الذين ينكرون وجود كل شيء حتى أنفسهم، أنهم يتحدثون ويفكرون بشكل يدعو الانسان إلى فقدان الشعور بقيمة ما حوله ولهذا فهو يعيش حياة الوهم والخيال ما دام لا يجد في الكون إلا وهماً وخيالاً.

قالت ورقاء: وما هو موقفنا من هؤلاء يا معاد؟

قالت: أننا نتمكن أن ندحض شبههم ببساطة.

فتساءلت ورقاء في لهفة: ولكن كيف؟

قالت معاد: أن المشككين يقولون أن جميع القضايا مشكوك فيها أليس كذلك؟.

قالت ورقاء: نعم.

قالت معاد: إذن دعينا نعرف مـاذا يقولـون عن هذه القضية نفسها القائلة أن كل القضايا مشكـوك فيها فهـل يشكون فيها أو لا يشكون؟

قالت ورقاء: طبعاً أنهم لا يشكون فيها لأنهم يؤكدونها.

قالت معاد: إذا كانوا لا يشكون فيها فقد اعترفوا إذن بأن بعض القضايا غير مشكوك فيها وهذا يناقض مبدأهم في الشك وإذا كانوا يشكون في هذه القضية أيضاً فهذا تنازل منهم عن مبدئهم ويعتبر تخلياً عن تبني مبدأ الشك.

قالت ورقاء: هذا نقاش رائع فزيديني بالله عليك.

قالت معاد: يمكنك يا أختي أن تسأليهم منذ البدء هل تفترضون أن موقفنا الذي يتحلى باليقين يتعارض مع موقفكم الذي يتسم بالشك في كل شيء أو لا ترون تعارضاً بين الموقفين فإن سلمتم بالتعـارض والتناقض بينهـما فهذا يعني انكم تسلمون بأن النقيضين لا يمكن أن يجتمعا. وهذه إذن حقيقة لم يرق إليها شككم وبذلك يثبت أن بعض الحقائق يجب التسليم بها، وإذا لم تسلموا بوجود أي استحالة في أن يكون الموقفان معاً على صواب فلماذا تعارضوننا وتعتبروننا في إيماننا مخطئين؟

أليست هذه الحجة رائعة يا ورقاء؟

قالت ورقاء: نعم أنها رائعة ومنطقية تماماً.

قالت معاد: وان هناك بعض الحجج الأخرى لا يسع الوقت لذكرها الآن ولهذا سوف أؤجلها إلى اللقاء القادم إن شاء الله.

قالت ورقاء: انني أقدر ظروفك ومسؤولياتك يا معاد وأرجو ألا يطول انتظاري للقاء الثاني فأنا جد مشوقة إلى تكملة الحديث.

فضحكت معاد وقالت: أنه لن يتعدى ظهر يوم غد إن شاء الله يا ورقاء وقد أتيت لك بكتاب أرجو أن تطالعي فيه خلال هذه الفترة ثم ناولتها الكتاب وذهبت إلى دورتها المعتادة على المرضى.

وفي عصر اليوم الثاني جلست ورقاء تنتظر حضور معاد وأمسكت بيدها كتاباً تقرأ فيه فترة ثم تستسلم للتفكير فترة أخرى، حتى أتت معاد، فاستقبلتها بحرارة وجلست أمامها تنتظر تكملة الحديث، ولما وجدت أن معاداً لا تريد أن تتطرق إلى حديث أمس قالت لها: أكملي حديثك عن أفكار المشككين.

فابتسمت معاد وقالت: أراك مهتمة جداً بهذا الموضوع؟

قالت ورقاء: نعم لأنني قرأت وسمعت الكثير عنه.

قالت معاد: نحن نتمكن أن نقول لهم متسائلين: أنكم آمنتم بمبدأ الشك هذا من خلال برهان أم لا؟ فإذا قالوا أننا

آمنا به من دون برهان فلن تبقى لادعاءاتهم قيمة ما دامت لا تستند إلى برهان.

قالت ورقاء: وإذا اعترفوا بوجود برهان يـدعوهـم إلى الايمان بمبدأ الشك؟

قالت معاد: أما إذا اعترفوا بوجود برهـان جرهـم إلى الايمان بمبدأ الشك فنعود لنسألهم، هل أن بين البرهان الذي جركم إلى مبدأ الشك وبين النتيجة التي حصلت من ذلك البرهان صلة أم لا؟

قالت ورقاء: هبيهم قالوا بعدم وجود صلة بين النتيجة والبرهان.

قالت معاد: أما إذا قالوا بعدم وجود صلة بين البرهان والنتيجة التي هي (الشك في كل شيء) فنحن نقول لهم، إذن فأي قيمة تبقى للأدلة على هذه النتيجة (نتيجة الشك) ما دامت لا تمت للبرهان بسبب؟

قالت ورقاء: هذا إذا لم يعترفوا بوجود صلة بين النتيجة والبرهان أما إذا اعترفوا بوجود صلة فماذا؟

قالت معاد: أما إذا اعترفوا بوجود صلة بين البرهان ونتيجته التي هي الشك في كل شيء فنحن نقول لهم:

إذن فان البرهان هو العلة والسبب الذي أدى إلى هذه النتيجة! ومعنى هذا أنكم آمنتم بضرورة وجود علة ومدلول

هذا الاعتراف هو الاعتراف بوجود قانون العلية (أي قانون السببية) إذن، فهناك شيء موجود غير مشكوك فيه إلا وهو قانون العلية.

قالت ورقاء: وإذا حاولوا نفي قانون السببية؟

قالت معاد: أنهم إذا حاولوا نفي السببية أي (العلية) فنفيهم هذا منهم على شكلين:

أولاً: أن هذا النفي يستند إلى دليل.

ثانياً: أنه لا يستند إلى دليل.

قالت ورقاء: فإن قالوا أنه لا يستند إلى دليل؟

قالت معاد: نقول لهم: أنه فقد قيمته إذن لافتقاده الدليل مع حاجته اليه.

قالت ورقاء: وإذا قالوا أنه يستند إلى دليل؟

قالت معاد: أما إذا قالوا أنه يستند إلى دليل فأن معنى ذلك الاعتراف منهم بقانون العلية. إذ اعترفوا بوجود سبب لهذا البرهان حيث قدموا هذا السبب كدليل لصدق مدعاهم.

وعند هذا سكتت معاد فقالت ورقاء: هل تسمحين لي أن أكتب خلاصة هذا النقاش؟

قالت معاد: نعم ومن الصالح أن تكتبي لكي لا يذهب عن بالك بعض نقاطه.

فأخذت ورقاء تكتب حتى فرغت من الكتابة ورفعت رأسها نحو معاد وكأنها تستزيدها من الحديث ولكن معاداً قالت:

لقد جئتك في مهمة خاصة يا ورقاء راجية منك مساعدتي عليها.

قالت ورقاء: أنني أرحب بكل مساعدة مني لك.

قالت معاد: أنها تتعلق بـزواج أخي سناد فهـل أنت مستعدة لمساعدتي يا ورقاء لأنني مهتمة جداً بهذا الموضوع.

قالت ورقاء: إذن، وما دام الأمر يهمك فأنني سوف أساعدك بكـل جهدي يـا أختاه، ولكن كيف؟ وعن أي طريق؟.

قالت معاد: قالت معاد: إن أخي سناداً عزيز علي جداً وهو جدير بكل محبة وإعزاز إذ أنه انسان مؤمن ويجسد في سلوكه جميع معاني الايمان، ولهذا فهو رائع في كل شيء، ومحبب إلى كل قلب، ومريح لكل انسان وأنا منذ مدة أتمنى له أن يحصل على زوجة تسعده وتصبح له قرينة بكل شيء وقد وجدتها أخيراً والحمد لله.

فردت ورقاء قائلة: الحمد لله.

قالت معاد: وقد كنت أريد أن أطمئن إلى اقتناعه بها لكي أصبح واثقة من سعادة الطرفين وترحيبهما بهذه الوصلة. وهنا ردت قائلة بصوت تشوبه اللهفة: وهل اقتنع؟

قالت معاد: نعم ولم يبق سوى اقتناعها هي وهذا ما أريد مساعدتك عليه.

قالت ورقاء: وكيف؟

قالت معاد: أن تحاولي إقناعها بصلاحه لها معتمدة بذلك على شهادتي بحقه وأنا ضمينة لك أنك سوف لن تندمي على ذلك أبداً.

وكانت ورقاء تستمع في حيرة وارتباك ثم قالت: ولكن من هي؟ وأين يمكنني أن أجدها؟

فابتسمت معاد وقالت: ألا يمكنك أن تحزري من تكون؟ قالت ورقاء: كلا...

قالت: خمني يا ورقاء.

قالت ورقاء: لا أتمكن أن أخمن.

قالت معاد: أنك تعرفينها أكثر من كل انسان وهي قريبة إليك وقريبة جداً يا ورقاء فهل عرفت من تكون؟

فأطرقت ورقاء وقد علت وجهها حمرة الخجل ولم تجب.

قالت معاد: أراك عرفت الآن من هي يا ورقاء. أفلا يحق لي أن أطلب منك المساعدة في أمرها؟.

ولم تجب ورقاء. فعادت معاد تقول: ما لي أراك ساكتة يا ورقاء؟ ألا تثقين في بابداء رأيك يا عزيزتي؟ ألم نتفق أن نكون اختين؟ ثقي أن أمرك يهمني كما يهمني أمر سناد. وقد درست هذا الموضوع من ناحيتك كما درسته من ناحيته هو. ولو لم أكن أعرف فيه الصلاح والخير لما عرضته عليك. ولك أن تسألي عن سناد كل من يعرفه لكي يشهد لك بحقه.

هنا رفعت ورقاء رأسها وقالت في خجل: إن شهادتك وحدها كافية يا معاد. ولكنني قد فوجئت ولم أكن أتـوقع هذا. ولهذا فأنني سوف أفاوض جدتي في الأمر.

قالت معاد: ولكن المهم أن تكوني أنت مقتنعة فيه يا ورقاء فهل أنت مقتنعة؟.

فكادت ورقاء أن تقول: نعم، لأنها كانت تحس بكامل الاقتناع والارتياح ولكنها وجدت أن من الخير لها أن تأخذ فرصة للتفكير أكثر لكي يكون جوابها بعيداً عن الارتجال فقالت:

أعطيني فرصة للتفكير يا معاد.

قالت معاد: طبعاً. فإن من حقك ذلك يا ورقاء. ولكن ما هو مدى هذه الفرصة؟

قالت: يوم أو يومين.

قالت معاد: لك ذلك يا عزيزتي وأرجو أن يقودك تفكيرك لما فيه الخير.

فضحكت ورقاء وقالت: هل تعلمين أنني لم أعود نفسي على التفكير في أموري الخاصة من قبل لأن جدتي عودتني أن أتكل عليها بكل شيء.

قالت معاد: إذن جربي تفكيرك المستقل في هذه المرة.

قالت ورقاء: نعم سوف أجرب والتجربة هي طريق كل معرفة كما يقولون.

فابتسمت معاد وقالت: ولكن هذه القاعدة غير صحيحة يا ورقاء.

قالت ورقاء: وكيف؟؟ أليست التجربة هي الأساس لكل معرفة وتصديق.

قالت معاد: كلا. وليست هذه القاعدة سوى دعوى من ادعاءات التجريبيين الذين لا يريدون أن يؤمنوا بتصديق أي قضية مسبقة بتجربة تؤكدها. متجاهلين أن إيمانهم هذا هو دليل على إمكان الايمان بقضية خالية عن التجربة.

فظهر الاهتمام على ورقاء وقالت: هل لك أن تشرحي

لي ذلك يا أختاه فأن لدينا معيدة في قسم الميكانيك ما برحت تؤكد هذه القاعدة بمناسبة وبدون مناسبة.

قالت معاد: سوف أشرح لك ذلك غداً إن شاء الله لأن وقتي قد انتهى وعلي أن أبدأ بتفقد المرضى بعد دقائق.

جلست ورقاء بعد انصراف معاد تستعيد كلماتها فتستشعر الغبطة والسرور، وحدثت نفسها قائلة:

أتراني سوف أستجيب لمعاد، فأكون إلى جانب أخيها آخذ عنه كما أخذت هي عنه من قبل؟

أتراه سوف يأخذ بيدي ليفتح أمامي أبواب المعرفة والهداية كما فتحها أمام معاد؟ لكم سوف أكون سعيدة لو تم لي ذلك، وكادت تلوم نفسها على إرجاء اعطاء الموافقة وهي لا تجد ما يحول دونها لأنه وعلى ما يبدو لها متكامل الجوانب.

* * *

وهكذا بقيت ورقاء تنسخ تصوراتها المشرفة حتى استيقظت الجدة من نومها فنهضت نحوها وقدمت إليها ما كانت تحتاج إليه ثم جلست إلى جانبها تحاول أن تخبرها بما تحدثت به معاد فقالت:

لقد كانت الدكتورة معاد هنا يا جدتي.

قالت الجدة باقتضاب: طيب...

فأردفت ورقاء تقول: وقد تحدثت معي في موضوع خاص.

وهنا نظرت الجدة نحوها باهتمام وقالت: موضوع خاص وما هو؟

قالت ورقاء في تلعثم: أنه موضوع خطبة.

قالت الجدة في شبه حدة: وما أنت وذاك؟

قالت: انه أمر يخص أخاها يا جدتي.

فأجابت الجدة بنفس الشدة قائلة: وما هي علاقتك بأخيها؟

فاستغربت ورقاء هذه الشدة من جدتها وقالت: أنها كانت تعرض علي خطبتي لأخيها يا جدتي.

وهنا ظهر الرعب على وجه الجدة وقالت: وبماذا أجبت يا ورقاء؟

فارتبكت ورقاء وقالت: لقد ارجأت الأمر إلى ما بعد مشورتك يا جدتي.

فأدارت الجدة وجهها نحو الجدار وهي تقول: كلا أن هذا أمر لا ينبغي أن يكون أبداً، أنه غير ممكن يا ورقاء...

فانتفضت ورقاء انتفاضة ألم وقالت: لماذا يا جدتي؟ فسكتت الجدة ولم تجب.

فألحت عليها قائلة: لماذا تقولين لي أن هذا شيء غير ممكن؟ ولكن الجـدة بقيت معتصمة بالصمت.

فأردفت ورقاء تقول: أرجوك يا جدتي أن تشرحي لي السبب لأنني مقتنعةِ بالموضوع اقتناعاً كاملاً.

ولكن الجدة استمرت ساكتة لا تجيب. فعادت ورقاء تقول: لماذا لا توضحي لي الأمر يا جدتي؟ فلعلك مخطئة في تشخصيك هذا؟

وهنا هزت الجدة رأسها في اصرار وهي تقول: كلا فأنني لست مخطئة وأنا أعرف ماذا أقول يا ورقاء، وها أنا أقول لك من جديد أن تنصرفي عن التفكير في هذا لأنه لا يمكن أن يتم. ولهذا فأنا لا أريد أن تعودي إلى ذكره ثانية.

فسكتت ورقاء لحظات ثم قالت: ولكن أليس من حقي أن أعرف السبب فليس من السهل عليَّ أن أحدد مستقبلي نتيجة أمر لا أعرف منشأه.

وهنا قالت الجدة: نعم أن من حقك ذلك يا ورقاء فهل أنت مستعدة للسماع؟

قالت ورقاء: وراغبة فيه أيضاً.

قالت: ولكنك بعد سماع ما أقول سوف يتحتم عليك أن تقطعي علاقتك مع معاد أيضاً.

فردت ورقاء في ذعر قائلة: أقطع علاقتي مع معاد وكيف لي بذلك وقد أصبحت بالنسبة لي ضرورة من ضرورات الحياة؟

قالت الجدة: إذن فلماذا تريدين أن أقول؟

فسكتت ورقاء لحظة ثم قالت: قولي ما لديك يا جدتي فأنا على استعداد لاستماعه مهما كان.

قالت الجدة: إذن فاسمعي ماذا أقول. إنك تعلمين أن أباك قد توفي وأنت صغيرة.

فخفق قلب ورقاء بشدة وقد توقعت أن تسمع أحاديث غير مريحة ثم قالت: نعم أنني أعلم ذلك.

قالت الجدة: ولكنك لا تعلمين السبب في وفاته.

قالت: كلا. ولا أعرف سبباً لموته سوى حياته.

قالت الجدة: كان هناك رجل تعرف إليه وفرض عليه صداقته واستأثر بثقته حتى اتفقا أن يعملا معاً فأقاما معملاً لصنع الأواني البلاستيكية، وتم إنشاء المعمل وكان أبوك سعيداً بذلك مرتاحاً إلى عمله فيه، محدثاً نفسه بالكثير من المشاريع، وقد اتفقا أن يكون المال من أبيك والعمل على ذاك لما إدعاه من خبرة مسبقة في الموضوع، ولم يكن أبوك يملك المال المطلوب فأراد أن يبيع نصف الأرض الزراعية التي يملكها ولكن النصف كان أقل من المقدار المسموح به للبيع

في ذلك العهد، ولهذا فقد اشترى الاقطاعي حامد أفندي نصف الأرض على أن يكتبها جميعها باسمه وأن يعطيه نصف المحاصيل عن تراض وأن يكون له حق استرجاعها بالقيمة التي باعها متى ما أراد، وأنت تعلمين استغلال حامد أفندي وجبروته في هذه المعاملات ولهذا فلم يكن في وسع أبيك أن يبيعها لسواه وهي ضمن الأرض التي تقع تحت سيطرته.

وكان نصف الأرض هذا لا يكفي بمتطلبات المعمل ولهذا فقد رهن هذا البيت عند حامد أفندي أيضاً على أن يستوفى ذاك حقوق الرهن من محاصيل نصف الأرض التي في حوزته.

وعلى كل حال فقد تم إنشاء المعمل، وكان هو وصاحبه يتناوبان على حراسة المعمل في الليل.

وفي صباح يوم من الأيام ذهبت إلى المعمل مبكرة لحاجة عرضت لي فوجدت الناس متجمعين على باب المعمل وسيارات الشرطة تقف أمام الباب، فاندفعت إلى الداخل مرعوبة وهناك عرفت أن أول عامل دخل المعمل وجد أباك جريحاً مضرجاً بدمائه وقد أغمي عليه ويبدو أن القاتل كان قد حسبه ميتاً.

فدخلت الغرفة حيث كان رجال الشرطة يدرسون الموقف وشريكه واقف يبكي بدموع التماسيح فانحنيت عليه ألتمس منه نفساً أو كلمة، وسرعان ما تم نقله إلى المستشفى فذهبت معه إلى هناك واتفق أن كنت إلى جانبه وحدي وإذا به يفتح

عينيه وينظر إليَّ ثم قال أنه فلان، ثم أغمض عينيه إلى الأبد.

وسكتت الجدة وقد تهدج صوتها من التأثر.

فسألتها ورقاء من خلال دموعها التي انهمرت لتأثرها من حديث جدتها سألتها قائلة بلهفة: وما هو الاسم الذي ذكره يا جدتي؟

قالت: إنه عبد المجيد محمود الراجي!

فصدرت عن ورقاء آهة جريحة وقالت معيدة كلمات جدتها: عبد المجيد محمود الراجي؟ والد معاد وسناد؟

قالت الجدة: نعم، انه هو، وقد أدليت بشهادتي في وقتها ولكنها لم تكف وقد أثبت بعده عن مسرح الجريمة بمختلف وسائل الغش والخداع فسجلت الحادثة على أنها حادثة قتل في سبيل الاختلاس من قبل مجهول.

قالت ورقاء: وهل حصل اختلاس أيضاً.

قالت: طبعاً. وقد اختلس مع المال الذي كان موجوداً في الصندوق الحديدي هناك الأوراق الرسمية للاتفاق الذي بينهما، والأوراق التي تخص بيع نصف الأرض وحق استرجاعها وأوراق تصفية حساب رهن هذا البيت، وهكذا خسرنا كل شيء حتى حق المطالبة بأرضنا، وحق ملكية هذا البيت فإن لدى حامد أفندي أوراق رسمية تؤيده حقه في

الأرض والرهان، في الوقت الذي لا نملك نحن ما يؤيد الاسترجاع، وما صبر علينا كل هذه المدة إلا لغاية لا يعلمها إلا الله.

وقد كنت أعرف أن لدى عبد المجيد هذا توأمان باسم سناد ومعاد ولهذا سألت معاد عن اسم أبيها فتجاهلت السؤال. ولكنني بعد ذلك عرفت اسمه من الممرضات فهل تجدين أن من الممكن لك أن تتزوجي إبن قاتل أبيك يا ورقاء؟.

فأجابت ورقاء في مرارة قائلة: كلا سوف لن أتزوجه يا جدتي ولكنني لن أقطع علاقتي مع معاد.

قالت هذا وقد بللت الدموع وجهها وهي تفكر في معاد أكثر مما تفكر في سناد.

مر اليوم كئيباً حزيناً على ورقاء. وفكرت كثيراً وهي تحدث نفسها قائلة: ولكن أي ذنب له ولها في الموضوع؟ لنفرض أن أباهما مجرم فهل يحق لنا أن نأخذهما بجريرته؟ كيف سوف أرد على معاد؟ وبأي حجة سوف أرفض أخاها؟ أتراني سوف أحدثها بالحقيقة؟ ولكن هل يجوز لي نبش الماضي ووصم هذين الأخوين الطاهرين بمثل هذه الوصمة؟ لعلهما يجهلان ماضي أبيهما فكيف لي أن أكشف لهما ما يجهلان؟.

وصممت أخيراً أن تبقى على علاقتها مع معاد وقد تذكرت موعدها معها في يوم غد. وانتظارها لشرح ما طلبته منها فزاد شعورها بالخسارة وبصعوبة الانقطاع عنها، وهكذا قضت يومها وليلتها في شدة من الحيرة والألم.

وأشرق عليها الصبح بعد ليلة ما نامت خلالها إلا القليل وإذا بها تجد جدتها وقد صممت على ترك المستشفى بأي حال من الأحوال، وكلما حاولت أن تثنيها عن ذلك ألحت تلك وألحت حتى رضخت لرغبتها وجمعت ما لديها من حوائج ثم طلبت من جدتها أن تؤجل الخروج إلى حين إخبار الطبيب المختص.

ولكن الجدة كانت مندفعة إلى الخروج فلم توافق على التأجيل وكأنها كانت تريد أن تبتعد بورقاء عن طريق معاد بأسرع وقت خشية أن تضعف ورقاء أمام الاغراءات.

وعندما يئست ورقاء من التأجيل ذهبت تسأل عن معاد وهي لا تعلم ماذا سوف تقول لها ولكنها كانت تريد أن تراها بأي شكل من الأشكال، وفوجئت عندما علمت أن معاداً مجازة خلال ذلك الصباح فاحتارت ماذا تصنع؟ وهل يمكنها أن ترحل عنها هكذا وبدون كلمة وداع؟ وما أبعد هذا عن أحاسيس الوفاء وعرفان الجميل وما أبعده أيضاً عن عهود الأخاء التي أبرمتها لمعاد؟ ثم خطر لها أن تترك لها ورقة فكتبت سطوراً جاء فيها ما يلي:

عزيزتي معاد:

لا أدري ماذا أقول؟ وأنـا أواجه دوامـة لا سبيل لي بالنجاة منها، وها أنا راحلة مع جدتي التي فرضت علي هذا الرحيل، يبدو أن الله عز وجل شاء أن يطردني عن فردوسه بعد أن وجدت السبيل إليه. سوف أتركك بقلب باك لأواجه المستقبل المجهول وأنا وحيدة مهيضة الجناح، سوف أعود ثانية إلى الضيعة الفكرية والحيرة النفسية فليرحمني الله، وأرجو أن لا تغضبي علي فإن هناك ما يفرض علي هذا التصرف أما أخوك فأرجو من الله أن يبدله بخير مني وما رفضته لمنقصة فيه ولكن هكـذا شاء الله، وإذا رأيت أنني مـا زلت استحق أخوتك فاكتبي لي على عنوان صديقتي وهو... زقاق... رقم الدار... ثم طوت الرسالة وسلمتها لاحدى المرضات لكي تسلمها إلى معاد عند عودتها ورجعت إلى جدتها لتتوجه معها إلى البيت.

تعاقبت الأيام بطيئة وثقيلة بالنسبة إلى ورقاء فقد ساءت صحة جدتها على أثر الحركة وبعدها عن الطبيب وبقيت هي موزعة بين تمريضها ودروسها وباقي الالتزامات إضافة إلى فكر حزين يلازمها، وحنين إلى معاد لا يفارقها، وحاجة إلى فهم جديد تلح عليها، وكثيراً ما لاحظت الجدة على عينيها آثار الدموع فعز عليها ذلك ولكنها تجاهلته واعتبرته ضرورة

كان لا بد منها، وبعد مرور أكثر من عشرة أيام سلمتها صديقتها رسالة تحمل طابعاً داخلياً.

فخفق قلب ورقاء وتساءلت مع نفسها قائلة:

أتراها من معاد؟

أتراها لم تنكر علي موقفي منها؟

ثم سارعت إلى فتحها وألقت نظرة عجلى على الاسم فوجدتها من معاد، فاتنحت جانباً وقرأت الرسالة فوجدت فيها ما يلي:

عزيزتي ورقاء:

سلام الله عليك ورحمته وبركاته وسلامي وأشواقي وصادق دعائي وأخائي... ها أنا أكتب إليك بعد أن تخلصت من آثار المفاجأة التي أملتها علي سطورك وكم عز عليَّ ذهابك دون أن أطبع على جبينك قبلة أخاء صادق. وقبل أن تعرفي بأن معاداً ليست تلك التي تتنازل عن اخوتك بسهولة، لقد وجدتك يا ورقاء كالزهرة العطرة التي وجدت لتتفتح فتنشر من حولها الأريج، ولتعطر بعطرها أجواء الربيع. ولكنها افتقدت اليد التي تسقيها الماء، ولم تحصل على الظل الذي يحميها من وهج الشمس، فقبعت في أكمامها وهي تنتظر الذبول، قبل أن تتفتح وتؤدي رسالتها في الحياة.

وجدتك هكذا يا ورقاء وأحسست بروحك وهي تناديني

اليها طالبة مني السقاية والحماية وسمعت نداء الواجب يدعوني للاجابة. ففتحت لك قلبي، ومددت نحوك يدي، وعرضت عليك أخوتي فوجدت عندك الاستجابة المطلوبة والتجاوب الذي أقر عيني.

ثم اخترتك لتكوني قرينة أخي الذي هو أهم شيء عندي، ثم وفجأة، وبدون سابق إنذار، وجدتك تختفين ولا تخلفين وراءك إلا بضعة سطور، ولا أكتمك بأن المفاجأة لم تكن بسيطة بالنسبة إليَّ، ولهذا فقد أقعدتني آثارها عن المبادرة في الكتابة.

أما الآن وقد عدت إلى نفسي وجدت أن علي ألا أدع أواصر أخوتنا تتقطع هكذا، وبسهولة، ولهذا فها هي سطوري بين يديك تحدثك عني وتقول لك بأنني ما زلت أختك في السراء والضراء. وأنا لا أريد أن أسألك عن السبب في كل ما حدث لكي لا أحرجك وإحراجك مما يعز عليَّ كما تعلمين، وإذا أردت مراسلتي فإن ذلك ممكن على عنوان المستشفى، هذا واستودعك الله الذي لا يخون الودائع.

معاد

إنتهت ورقاء من قراءة الرسالة وكان شعورها مزيجاً بين الفرحة والألم، وقررت أن لا تخبر جدتها بأمرها وأن تبقى على

اتصال مع معاد، وفعلاً فقد بادرت إلى الكتابة في تلك الليلة، فكتبت إليها تقول:

عزيزتي معاد،

دعيني أقبلك عن بعد، فالله وحده يعلم كم أنا متشوقة إليك وخجلة منك يا أختاه، وأنت التي وجدتك على ظمأ معينا رياً رويا فما شربت منه سوى نهلات حتى صدت الكأس عن شفتي يد الزمان القاسية فأعادتني إلى الظمأ اللاهب، وأسلمتني إلى حياة الوحدة المريرة، لقد عشت عمري أفتش في صفحات سجل حياتي عن مرفأ أمين يشدني عبر مسيرتي الطويلة في مدرجات الحياة، وطالما هفوت لصدر حنون يحتضنني وينفتح إلي، فأسند إليه رأسي المكدور، وأكشف أمامه مشاعري وأفكاري المؤودة، وقد كنت يا عزيزتي أعيش الضيعة الفكرية وأتمنى لو وجدت فكراً يفتح أمامي مغاليق المعرفة ويأخذ بيدي إلى طريق الهداية والدراية وما أكثر ما رددت قول الشاعر:

وأني لمحتاج إلى ظل صاحب
يروق ويصفو إن كدرت عليه

في يوم من الأيام، حتى رأيتك... فوجدت فيك تجسيداً للأخت التي نسجت شخصيتها في أحلامي وسبق أن تصورتها في أفكاري فتغلغل حبك في قلبي، وملأ الاعجاب بك جوانب نفسي، وأحسست أن سفينة حياتي قد وجدت لديك

مرفأها الأمين وقد آن لها أن تلقي قلاعها على ساحل أخوتك فركنت إليك كأخت، واعتمدت عليك كموجهة، واحللتك من نفسي المحل الرفيع الرفيع، وفجأة بدأت الحياة تلعب معي لعبتها القاسية من جديد، فأخذتك مني أو أخذتني منك، وجعلتني أحس بالضيعة مضاعفة وبالوحدة بشكل أعمق. فأسلمني ذلك إلى دنيا اليأس المريرة، وعرفت أن الحياة تقسو حتى على أنبل المشاعر والعلاقات، وأن الأقدار لا تقيم وزناً للعلاقات والصلات، وأن الدهر لا يصفو بعد كدر، ولا يهادن بعد حرب، وإن فاء إلى المهادنة يوماً ندم على ذلك وعاد يشن حربه العتيدة من جديد وما أحسن قول إبن هاني الأندلسي في هذا حين يقول:

وهب الدهر نفيساً فاسترد
ربما جاد لئيم فحسد

أو كما قال المتنبي:

أبداً تسترد ما تهب الدنيا
فيا ليت جودها كان بخلاً

وهكذا بقيت أعاني من غلواء أحاسيسي الكثير حتى استلمت رسالتك صباح اليوم، فوجدت فيها خيطاً فضياً من خيوط الأمل. هذه الخيوط التي تشدني إليك وبالتالي فهي تشدني إلى خالقي يا أختاه، فقد أصبح من العسير عليَّ أن ابتعد عنك لأن قربك هو طريق قربي إلى الله ولهذا فقد

فـرحت برسـالتك يـا معاد، كـما أنها زادتني بك إعجـابـاً ولشخصك إكباراً. وعلمتني درسـاً من دروسك في مغـالبة النفس ووأد مشاعر الانانية، والتلبس بالنظرة الواقعية المجردة عن المصالح الشخصية. فالشكر لله أولاً ولك ثانياً يا أختاه. واعلمي بأنني كنت ولا أزال تلك التي تعهدين ومـا زلت أنتظر منك موعداً لـزيارتـك في أي مكان تعيشـين، هذا واسلمي لي دائماً وأبداً يا أختاه.

ورقاء

أبردت ورقاء رسالتها ومرت عليها أيام الانتظار وهي أحسن مما كانت عليه حتى وصلها الجواب. وكانت معاد تحدد لها فيه موعداً لتزورها فيه في المستشفى ففرحت ورقاء بذلك. وفي اليوم الثاني أخبرت جدتها عند خروجها بأنها سوف تتأخر لكي لا تقلق عليها ثم توجهت من الكلية إلى المستشفى. ويبدو أن معاداً كانت قد أوصت بها إذ أنها لم تصادف أي مضايقة حتى انتهت إلى غرفة معاد فوقفت أمام الباب محاولة التغلب على آثار الارتباك التي كانت تحسها، ثم طرقتها برفق فطالعها وجه معاد مشرقاً واستقبلتهـا بالتـرحاب. فجلست ورقاء وهي تغالب دموعاً طفرت إلى عينيها. وبادرتها معاد قائلة:

أهلاً وسهلاً بك يا ورقاء، لقد أوحشني غيابك وكأنني

عشت معك العمر كله مع أن معرفتي بك لم تتجاوز الأسابيع.

فقالت ورقاء: وأنا كذلك يا معاد والله وحده يعلم كم عانيت وعانيت لخشيتي أن تكوني ناقمة عليَّ.

قالت معاد: لكنك حرة في اختيارك يا ورقاء فلماذا أنقم عليك يا عزيزتي وبأي حق؟ لعل أخي لم يرق لك أو لم يحتل الثقة المطلوبة عندك.

فقطعت ورقاء كلامها قائلة: أرجوك يا معاد، لا تقولي هذا فإن كل ما حدث لم يكن نتيجة عدم الاقتناع لأن شهادتك في حقه كفيلة باقتناعي به ولكن...

فقالت معاد: ولكن ماذا يا ورقاء؟

قالت: ولكن جدتي هي التي رفضت ذلك.

قالت معاد: وهل عرفت السبب في رفضها يا ترى؟

فارتبكت ورقاء ولم تعلم بماذا تجيب. ولهذا بقيت ساكتة، ولكن معاداً أعادت السؤال...

فقالت ورقاء: إنه سبب من الأسباب.

فابتسمت معاد لهذا الجواب وقالت: ولكن هل هو سبب كاف للرفض؟

فسكتت ورقاء لحظة ثم خرج صوتها جريحاً وهو يقول: نعم أنه سبب كاف يا معاد.

قالت معاد: إذن فسوف لن ألح عليك أكثر من هذا والمهم أن نبقى على أخوتنا يا ورقاء.

قالت ورقاء: نعم فها أنا استشعر معك بشعور من الراحة والاطمئنان افتقدته منذ فارقتك حتى الآن مع كثرة من أرى وأجد من الصديقات والأخوات، لأنني وثقت فيك كما لم أثق بسواك والثقة هي طريق كل قرب وود.

قالت معاد: إن هذا هو نفس شعوري نحوك يا ورقاء.

قالت ورقاء: لقد مررت بتجارب عديدة قبل اليوم ولكنني لم أشعر بالانهيار أمام أحداها كما انهرت أمام هذه التجربة التي هددتني بالانقطاع عنك يا أختاه.

فضحكت معاد وقالت: أراك ما زلت تتحدثين عن التجارب يا ورقاء؟

قالت ورقاء: كما أنني ما زلت أنتظر حديثك عنها يا معاد.

قالت معاد: وأي حديث عنها تريدين؟

قالت: ألم تعديني أن تعودي إلى حديثك عن التجربة ومدى علاقتها بالعلم الصادق؟

قالت معاد: يبدو أن ذاكرتك قوية يا ورقاء؟!

قالت ورقاء: وكيف لي أن أنسى هذا وهو أمر مهم بالنسبة إلي؟

قالت معاد: إذن دعينا ندرس الموضوع من جديد لنعرف ماذا يقول التجريبيون؟

قالت ورقاء: أنهم يقولون بعدم التمكن من تصديق بدون تجربة مسبقة. وهم لا يعترفون بدور العقل في مضمار تصديق القضية ما لم تدعمها التجربة، إذ أنهم ينكرون وجود قضايا بديهية.

قالت معاد: ولهذا فنحن نقول لهم هبوا أنكم جربتم أن تقربوا قطعة من الحديد إلى النار فرأيتم نتيجة ذلك أنه قد تمدد من تأثير الحرارة فكيف تمكنتم أن تعمموا هذه القاعدة (قاعدة تمدد الحديد بالحرارة) على مجموع الحديد في العالم، مع أن التجربة أجريت على قطعة واحدة لا أكثر؟ ومن هنا يبرز دور العقل في تعميم هذه القاعدة على كل الحديد، وحتى في هذه القطعة التي تمددت نتيجة تعرضها للنار، فان التجربة أثبتت حالة التمدد فقط وجعلتنا ندرك هذه الحالة بحواسنا. أما السبب الذي أدى إلى هذا التمدد فهو أمر لم تثبته التجربة ولكن العقل هو الذي دل عليه، النار حارة، حرارتها أوجبت التمدد في الحديد، إذن فإن علة التمدد هي حرارة النار.

قالت ورقاء: لطيف، لطيف يا معاد ثم ماذا؟

قالت: أننا نتمكن أيضاً أن نناقشهم قائلين: أنكم تؤمنون باستحالة اجتماع النقيضين وهذا إيمان لا مناص لكم منه لأن العلوم الرياضية بما فيها علم الحساب الذي هو أبده العلوم قائمة على أساسه ولولاه لتهاوى علم الحساب وافتقد قواعده التي يرتكز عليها.

وهنا تساءلت ورقاء قائلة: وما هو تعريف اجتماع النقيضين يا معاد؟

قالت: اجتماع النقيضين اصطلاح يعبر عن جمع شيء مع نقيضه في محل واحد، كأن نقول أن هذا الماء حار وبارد، أو نقول أن هذه الشمس مضيئة ومظلمة في وقت واحد، أو نقول أن فلاناً طويل وقصير، ورفض الايمان باستحالة اجتماع النقيضين يعني عدم الايمان بصحة قواعد علم الحساب.

قالت ورقاء: أرجو توضيح ارتباط ما تقولين من أفكار استحالة اجتماع النقيضين مع علم الحساب يا معاد

قالت معاد: إن مثل ذلك هو أننا لو عرفنا أن (١ + ١ =٢) لحققنا بهذه المعرفة أول ركيزة من ركائز هذا العلم إلى هنا فان الموضوع لا جدال فيه ولا مراء، أما إذا قلنا أن (١ + ١ = ٣) فإنما يعني قولنا هذا دعوى اجتماع

النقيضين، وتوضيح ذلك ان كلمة يساوي تعني المساواة، والموازاة، والمقارنة، والمماثلة، وعلى هذا فان واحداً زائد واحد لا يمكن أن يساوي أو يماثل أكثر من اثنين لأن ما يساوي الواحد إذا أضيف إليه واحد هو الاثنان فقط لا غير، فأن نقول يساوي ثم نأتي بشيء لا يمكن المساواة فهذا جمع النقيضين وهما المساواة واللامساواة، ولهذا فنحن نقول لهم: أنكم أما أن تؤمنوا بعدم إمكان اجتماع النقيضين، وأما أنكم لا تؤمنون به، فإذا كنتم تؤمنون فمن أين حصل لكم هذا الايمان؟ هل جاء بعد تجربة؟.

قالت ورقاء: وكيف لهم أن يجربوا اجتماع النقيضين وهو محال؟.

قالت معاد: إذن وما دامت تجربة اجتماع النقيضين محالة فلا بد أن يكون هذا الايمان وليد معرفة بديهية يمليها لهم العقل الذي لا يريدون أن يعترفوا بدوره المجرد عن التجربة في الحياة.

قالت ورقاء: لعلهم يقولون أنهم جربوا الأشياء فلم يجدوا في واقع الكون حالة يجتمع فيها النقيض مع نقيضه وعلى هذا الأساس عرفوا أن اجتماع النقيضين مستحيل وغير ممكن.

قالت معاد: إن هذه التجارب السلبية إنما تدل على أن اجتماع النقيضين غير واقع وليس على أنه لا يمكن أن يقع

مع أنا جميعاً نؤمن بأنه لا يمكن أن يقع. وهذا لا يمكن أن يستند إلى التجربة لأن عدم الامكان والاستحالة ليس شيئاً يمكن أن نراه في تجاربنا.

قالت ورقاء: وإذا قالوا بأنهم لا يؤمنون بعدم إمكان اجتماع النقيضين؟

قالت معاد: عند ذلك نقول لهم أنهم ينكرون وجود أهم علم قامت عليه معارفهم وهو علم الحساب...

وإلى هنا سكتت معاد معطية ورقاء فترة للتفكير وكانت ورقاء مندمجة مع ما سمعت ومنجذبة إليه.

وبعد أن سكتت معاد فترة قصيرة قالت لها: لشد ما كنت في حاجة لأن أسمع هذا أو أعرف عنه شيئاً يا أختاه، وما زلت أطلب منك المزيد.

قالت معاد: ولكن متى سوف تأتيني مرة ثانية يا ورقاء؟

قالت ورقاء: سوف أحاول ذلك متى ما وسعني، والآن عليَّ أن أذهب قبل أن تقلق جدتي لغيابي.

* * *

استمرت ورقاء تزور معاد بين حين وحين دون أن تعرف جدتها بذلك أو تشك فيه وفي يوم من الأيام عادت متأخرة قليلاً فوجدت جدتها مكفهرة الوجه متوترة الأعصاب وبادرتها قائلة بعنف: أين كنت يا ورقاء؟

فخمنت ورقاء أن جدتها قد علمت بأمر زيارتها لمعاد ولهذا آثرت المماطلة إلى أن تعرف الواقع.

فقالت: ولماذا تسأليني يا جدتي؟

قالت الجدة بحدة: لكي أعرف هل أنت قادمة لتوك من الكلية؟

وحدثت ورقاء نفسها قائلة عليَّ أن أقول الصدق مهما كانت النتائج وينبغي أن أواجه الواقع بشجاعة ولهذا ردت تقول: كلا.

قالت: إذن أين ذهبت؟

قالت: لقد مررت على المستشفى.

عند ذلك انفجرت الجدة تقول: أنك مررت على معاد أليس كذلك؟ اعترفي يا ورقاء ولا تغالطي في الحقيقة؟ لقد كنت أحسبك أعقل من هذا، كيف تسمحين لنفسك بابنة قاتل أبيك، أنها خيانة منك يا ورقاء.

فردت ورقاء بهدوء قائلة: ولكن من أين عرفت ذلك يا جدتي؟

قالت: لقد اتصلت إحدى صديقاتك تسأل عنك وقالت أنك توجهت إلى البيت منذ مدة. ومن هنا عرفت أنك قد ذهبت إلى معاد.

قالت ورقاء: وماذا في ذهابي يا جدتي؟ أنني رفضت سناد لكي لا أرتبط في حياتي الزوجية مع إبن قاتل أبي. أما أن أقطع علاقتي وصداقتي مع معاد فأن هذا ما لا يمكن أن يكون لأنني محتاجة إليها فكرياً وروحياً ولا أرى في ذلك أي دليل من أدلة الخيانة.

وهنا ألقت الجدة آخر ما لديها من سهام حيث قالت: أنك لا تعنين معاد فيما تقولين ولكن من يهمك هو أخوها، فقد عرفت من الممرضات أنه جميل وجذاب وقد انخدعت بجماله يا ورقاء.

فردت ورقاء بصوت متهدج قائلة: أنك تظلمينني يا جدتي لا تبالغي في القسوة عليَّ فأنني لم أره إلا مرتين عن طريق الصدفة فقط، فلا تنسجي من حولي أفكاراً مريبة يمليها عليك عالم الخيال.

وفي عصر اليوم الثاني كانت معاد تنتظر ورقاء في موعدها المحدد، ولما حضرت اليها لاحظت عليها شيئاً من الشحوب، ولما سألتها عما بها..

قالت: أنه من تأثير السهر الذي تفرضه عليها الدراسة. فلم تقتنع معاد بهذا الجواب ولكنها أظهرت الاقتناع. وكانت ورقاء متعجلة أكثر من عادتها ولهذا بادرت تقول:

أنني ما زلت أنتظر حديثك عن التجربة يا معاد.

قالت معاد: أراك متعجلة اليوم يا ورقاء فهل هناك من جديد؟

فترددت ورقاء قليلاً ثم قالت: كلا، ليس هناك من جديد.

قالت معاد: إذاً فلنبدأ بالحديث.

قالت: نعم فأنني مشوقة إلى تكلمة ما شرحتيه لي حول التجربة.

قالت معاد: أن التجريبيين يقولون عن القضايا التصديقية أنها لا يمكن أن يعترف بها دون تجربة مسبقة أليس كذلك؟

قالت ورقاء: ولكنني أريد أولاً تعريفاً للقضايا التصديقية.

قالت: إن القضايا التصديقية هي كل قضية صادقة يصدقها الانسان ويؤمن بصحتها، هذا هو التعريف المختصر للقضايا التصديقية، والحقيقة أن كل تصديق يحتاج ويعتمد على تصديق قبله، والتصديق الذي قبله يحتاج إلى تصديق قبله ولكن لا يمكن أن نتراجع هكذا باستمرار من تصديق إلى تصديق دون أن نصل إلى بداية، وإلا كان معنى هذا أننا لن نحصل على أي معرفة أو تصديق أساساً. فظهر على وجه ورقاء الاهتمام البالغ وتساءلت: كيف؟.

قالت معاد: افترضي أنك تريدين أن تتعرفي على بنت معينة وحسن سلوكها وأنها ثقة فماذا تصنعين؟

قالت ورقاء: أسأل بعض رفيقاتها عنها.

قالت معاد: ولكن كيف تعرفين هذه الرفيقة لكي تسألي منها فقد لا تكون معرفتك بها إلا عن طريق شهادة من أخرى، ولكن أليس من المنطقي أن تنتهي هذه الشهاداة عند شاهدة تعرفينها مباشرة لكي تكون هذه هي البداية لانطلاقك إلى التعرف على الآخريات.

قالت ورقاء: هذا صحيح بالضبط.

قالت معاد: وهذا ما نقوله بالنسبة إلى المعارف التصديقية للانسان عموماً، فأنها لا بد لها من بداية تعتمد عليها، وهذه البداية لا بد أن تكون معروفة لنا بصورة مباشرة وبدون أي تجربة واستدلال.

قالت ورقاء: أذكري لي مثالاً من هذه المعرفة المباشرة.

قالت: مثله أن نقول أن بعض الكتاب أصغر من مجموع الكتاب، فنحن لو ادعينا هذا ثم قال لنا قائل: من أين عرفتم أن بعض هذا الكتاب هو أصغر من مجموع الكتاب؟ وهل لديكم تجربة أو دليل يثبت ذلك؟ لقلنا أن هذا أمر بديهي لا يحتاج إلى تجربة ودليل. إذ أن مجرد قولنا بعض يعني إيماننا بوجود بعض وكل وأن البعض أصغر من الكل.

قالت ورقاء: وإذا قالوا أنه ما دامت المعارف البديهية لا تحتاج إلى تجربة مسبقة ويتمكن العقل المجرد عن التجربة أن يشخصها فلماذا لا يدركها الانسان منذ الطفولة ما دام العقل معه منذ الطفولة ولماذا لا يبقى يدركها حتى ولو رد إلى أرذل العمر؟

قالت: عند ذلك نقول لهم أن الادراك على مرحلتين: إدراك تصور، وإدراك تصديق.

قالت ورقاء: عرفي لي الادراكين بالأمثلة من فضلك يا معاد.

قالت: الادراك التصويري كأن نتصور الماء، والسماء، والشمعة، والزهرة، والذهب، والفضة، وهذا هو الذي يولد عند الانسان نتيجة لوجود أحاسيسه التي تساعده على التصور.

قالت ورقاء: ولكننا قد ندرك في تصوراتنا أشياء غير ممكنة كأن نتصور بحراً من زئبق، أو جبلاً من ذهب.

قالت معاد: وهنا يأتي دور الادراك التصديقي وهو إثبات صحة تصوراتنا وانطباقها على الواقع. ولكن الادراك التصديقي الذي نعتمد عليه هنا يعتمد هو بدوره على الادراك التصوري أيضاً.

قالت ورقاء: كيف؟ ولماذا؟

قالت: لأنه ليس من الممكن ادراك شيء والتصديق له دون تصوره بشكل مسبق لهذا الادراك، فنحن مثلاً لا يمكن لنا أن نصدق بوجود النخلة دون أن نتصورها.

قالت ورقاء: إذن فأن الادراك التصديقي يعتمد على الادراك التصوري؟

قالت معاد: نعم ولهذا نجد أن الطفل لا يتمكن ان يدرك حقائق تصديقية فوق مستوى ادراكه التصوري لمحدودية ادراكاته التصورية وسطحيتها، وهكذا نعرف أن الطفل أو الانسان الذي يرد إلى أرذل العمر لا يتمكن أن يدرك القضايا البديهية.

قالت ورقاء: لشد ما أحس بالراحة عندما استمع إلى حديثك يا معاد، أرجو أن لا يفارقني الله عنك يا أختاه.

قالت معاد بعد شيء من التردد: نعم أرجو ذلك يا ورقاء.

قالت ورقاء: بودي لو جلست معك أكثر ولكن علي الآن أن أذهب.

فردت معاد تقول: إذهبي بحراسة الله ولكن لا تنسي موعدك غداً إن شاء الله.

* * *

وعادت ورقاء إلى البيت فوجدت الجدة متجهمة الوجه وقد ردت سلامها باقتضاب، فانحنت على يدها تقبلها وهي تقول: أرجوك أن لا تغضبي علي يا جدتي لأنني أذهب إلى زيارة معاد، سامحيني من هذه الناحية وسوف أطيعك في كل شيء عداها.

فرفعت الجدة رأسها وقالت بتحد: تطيعينني بكل شيء؟.

قالت: نعم بكل شيء عدى قطع علاقتي مع معاد.

قالت الجدة: أقسمي على ذلك إذن، اقسمي أن تطيعيني بكل شيء مهما كان.

فكادت ورقاء أن تقسم لولا أن خطر لها خاطر أوحاه اليها تحفز جدتها فشحب وجهها قليلاً ثم قالت: كلا أنني لا أقسم ويكفي أن أعطيك عهداً على ذلك.

قالت الجدة: وأن يكون عهد شرف يا ورقاء.

قالت ورقاء: نعم أنه عهد شرف...

فانفرجت أسارير الجدة وقبلت حفيدتها وعادت إلى وضعها الطبيعي ولكنها حدثت نفسها بعد ذلك قائلة: لقد أعطتني ورقاء عهداً أن تستجيب لي في كل شيء ولهذا سوف تضطر لقبول قراري الذي اتخذه عند خطبة ابن عمها ماهر لها، هذا المسكين الذي أجلت أنا خطبته منذ السنة الماضية

بانتظار أن تكمل دراستها، وقد بدأ يستعيد الموضوع من جديد، أنه شاب غني ومثقف وإذا كان غير ملتزم دينياً فهي سوف تهديه للالتزام، وبهذا تنقطع علاقتها مع معاد بشكل نهائي.

* * *

بقيت ورقاء تنتظر عصر اليوم الثاني وما أن اكملت دوامها حتى توجهت إلى معاد فوجدتها تنتظرها عند باب المستشفى حيث قالت لها: إنني ذاهبة إلى البيت وكنت انتظرك لآخذك معي فأن عندي بعض الأشغال هناك.

فاستغربت ورقاء وقالت: إلى البيت وأي بيت؟.

فابتسمت معاد وقالت: بيتنا نحن.

قالت ورقاء في تردد: ومن سوف يكون هناك أيضاً يا معاد؟

فعادت معاد تبتسم وهي تقول: لا أحد. كوني واثقة من ذلك. سوف نذهب أنا وأنت وحدنا ثم نعود قبل الغروب إن شاء الله.

قالت ورقاء: إذن هيا بنا يا معاد.

قالت معاد: إن بيتنا قريب ولن نحتاج إلى الركوب فتعالي لنتمشى إليه.

وهكذا سارتا معاً حتى وصلتا إلى البيت ففتحت الباب بمفتاح كان معها ووجدت ورقاء نفسها في حديقة صغيرة منسقة وأمام بيت صغير دخلته مع معاد فوجدته بسيطاً في بنائه وأثاثه ولكنه يتميز بالذوق والتنسيق. لم يسعها إلا أن تسأل معاد قائلة: من الذي ينظف هذا البيت يا معاد؟

قالت معاد: أنني آتي إلى هنا مرتين في الأسبوع حيث أتعهد البيت في العناية والترتيب والتنظيف.

قالت ورقاء: ومن الذي يسكن هنا؟

قالت معاد: أنه أخي سناد.

قالت: وهل يعيش وحده هنا؟

قالت معاد بشيء من الألم: نعم فنحن وحيدان في هذه الدنيا.

فتألمت ورقاء لمرارة هذا الجواب واستشعرت أنه صدى لمشاعر معذبة قد تمكنت معاد بقوة شخصيتها من إخفاء معالمها. ولهذا فقد أطرقت في تألم وخشوع ولكن سرعان ما نادتها معاد بصوت مشرق قائلة مالك يا ورقاء؟ ألا تريدين أن تساعديني في العمل؟

وكأن هذا الصوت قد أعاد ورقاء إلى وضعها الطبيعي فأبدت استعدادها للمشاركة.

وبهذا تم إنجاز الأعمال بسرعة فاقترحت معاد على ورقاء أن تجلسا قليلاً في ظلال الأشجار فجلستا متجاورتين. وكانت ورقاء تشعر بالسعادة لأنها قدمت بعض المساعدة من أجل معاد، وكانت أمامهما شجرة برتقال صغيرة قد ظهر الثمر فيها لأول مرة فأشارت إليها معاد وهي تقول: هل تعلمين أن هذه الشجرة قد غرزتها بيدي يا ورقاء وبقيت أتعهدها بالسقاية لأنها عزيزة عليَّ ولهذا فأنا فرحة لمنظر ثمارها لأول مرة.

قالت ورقاء: إن من حقك أن تفرحي يا عزيزتي فما الطف أن يرى الانسان البذور الذي بذرها وهي تنمو وتزدهر ثم تثمر الثمر المطلوب.

وهنا رانت على وجه معاد سحابة ألم خفيفة ثم قالت: ولكن ما أقسى أيضاً أن يشاهد الانسان بعد ذلك هذه الأشجار التي غرز بذرتها بيديه وتعهد سقايتها بماء عينيه وهي تقتلع عن الأرض بيد لئيمة أو نتيجة زوبعة هادرة عاتية.

فردت ورقاء تقول بألم: آه، نعم أنه شيء قاس جداً يا معاد، ولكنني أريد أن أسألك شيئاً وهو في خصوص شجرة البرتقال هذه مثلاً ما هو سبب وجودها من الناحية الفلسفية، البذرة أم أنت؟

قالت معاد: لا أنا ولا البذرة، وإنما هو الله تبارك وتعالى وما نحن سوى وسيلة من الوسائل التي هيأها الله لتواجد

الحياة، فالله عز وجل خلق الكون والحياة وجعل كل ما فيها سبباً من أسباب إيجاد سواه أو الابقاء على ذلك الوجود.

قالت ورقاء: يا لحكمة الخالق المبدع ولا أدري كيف يمكن لأحد أن ينكر وجوده أو ينسب الخلق إلى سواه؟

قالت معاد: ماذا تقصدين بنسبة الخلق إلى سواه؟

قالت ورقاء: أقصد هؤلاء الذين يرجعون السبب الأول في خلق الكون إلى المادة والذين يقولون أن المادة ونتيجة لحركتها الأزلية بدأت بإيجاد الأنواع!.

قالت معاد: حتى هؤلاء لو عادوا إلى أنفسهم وفكروا بانصاف لعرفوا أو لاعترفوا بأن الله هو الخالق المدبر، إذ أنهم يتفقون معنا في المقدمات ويختلفون في النتيجة.

قالت ورقاء في تعجب: يتفقون في المقدمات وكيف؟.

قالت: أقصد أنهم يؤمنون معنا بأننا لم نكن موجودين ثم وجدنا، ويؤمنون معنا أيضاً أن وجودنا يحتاج إلى موجد لأن الوجود من العدم محال، ويشتركون معنا أيضاً من أن الموجد لا بد أن يكون غير موجود من العدم بل هو أزلي في وجوده وإلا فمن الذي أوجده؟ ثم ولا بد لموجدنا أن يكون مالكاً لكل ما ملكنا إياه وإلا كان ما لدينا موجوداً من العدم والوجود من العدم محال.

إلى هنا تنتهي هذه المقدمات ونعود لكي نرى ماذا يقول الالهيون عن هذا الموجد؟

قالت ورقاء: انهم يقولون أنه الله تبارك وتعالى.

قالت معاد: نعم، أما الماديون فيقولون أنه المادة ونتيجة لحركتها الأزلية، ونحن هنا يمكننا أن نسأل هؤلاء الذين يوعزون خلق الكون إلى المادة وحركتها الأزلية نسألهم متى بدأت المادة تتنوع نتيجة لحركتها الأزلية كما يقولون؟ وأنها إذا كانت أزلية فكيف يمكن لنا أن نعرف بدايتها لأن الأزلي ليس له بداية؟.

قالت ورقاء: انهم لن يجيبوا على هذا السؤال لعدم تمكنهم من وضع بداية لما يدعونه أزلياً وهو المادة وحركتها.

قالت معاد: وعندما لا نجد منهم جواباً لعدم تمكنهم من وضع بداية للأزلي نلتفت إلى العلم لنسأله عن عمر الأرض فنجده يقول: أن الأرض انفصلت عن المجموعة الشمسية منذ ألفي مليون عام، وإن تكامل برودتها استغرق ألف مليون عام حيث أنها بعد ذلك بدأت فيها بوادر تصلح للحياة.

قالت ورقاء: إذن فان للحياة بداية محددة.

قالت معاد: نعم وبعد الاستماع إلى هذه الحقيقة العلمية نعود إلى أزلية الحركة لنقول: أنها إذا كانت أزلية فان معنى ذلك أن خلقها للأنواع أزلي أيضاً.

وقالت ورقاء باستنكار: إذن كيف أمكن للعلم أن يحدد عمر الكون؟.

قالت معاد: إن هذا هو السؤال الذي نريد أن نطرحه عليهم يا ورقاء، إن كيف أمكن للعلم أن يحدد عمر الكون؟.

قالت ورقاء: هبيهم يقولون أن الحركة ليست أزلية وأنها أي الحركة قد دخلت على المادة وأضيفت إليها؟.

قالت معاد: عند هذا نعود لنسألهم من الذي أوجد هذه الحركة؟ هل أن المادة هي التي أوجدتها؟ ولكن كيف توجدها بدون حركة مسبقة وهم يقولون أن عملية الايجاد والخلق هي نتيجة الحركة في المادة؟ هذا إذا قالوا أن حركة المادة غير أزلية.

قالت ورقاء: لنفرض أنهم قالوا أن الحركة أزلية ولكن المادة وقتت لها زمن الخلق؟

قالت معاد: هذا أمر غير معقول لأن التوقيت والتحديد لا يصدر إلا عن عاقل والمادة غير عاقلة.

قالت ورقاء: كيف يمكن لنا أن نثبت كون المادة غير عاقلة؟

قالت معاد: لأن العلم أثبت أن المادة تتكون من شحنات كهربائية. ولهذا فهي غير قابلة للتفكير والتعقل، فلا

يبقى بعد هذا إلا أن تكون المادة خاضعة لعلة توقت وجودها وحركتها وهذا هو ما يقوله الالهيون.

قالت ورقاء: هبيهم يقولون أن تأخر بداية الكون إنما كان بانتظار استكمال المقدمات، تماماً كالمسافر يتأخر أربع ساعات بعد الظهر يقضيها في تهيئة المقدمات وضبط الحقائب فكذلك كانت المادة وحين استكملت المقدمات نشأت الحياة؟

قالت معاد: إذا قالوا هذا فنحن نقول لهم: لماذا إذن لم تكتمل هذه المقدمات في زمن سابق؟

قالت ورقاء: هبيهم قالوا أن الكون سوف يجيب على ذلك كما يجيب المسافر إذا سئل لماذا لم تسافر قبل الرابعة فهو يقول أن المقدمات أخذت من وقته أربع ساعات ولو كان قد بدأ بالمقدمات قبل الظهر لسافر قبل الرابعة، وكذلك الكون فقد فرضت عليه المقدمات فترة زمنية فلم يتح له أن ينشىء الحياة إلا في اللحظة المحدودة وهي قبل ألفي مليون عام؟

قالت معاد: ولكن هذا الجواب الذي يقوله المسافر بكل سهولة لا يمكن للكون أن يقوله.

قالت ورقاء: لماذا؟.

قالت: وذلك لأن أي زمن يفترض أن المقدمات بحاجة إليه فهو موجود فعلاً لديه من خلال حركته الأزلية على ما يدعون، وإنما يصح هذا الجواب من الكون إذا كان قد بدأ

حركته وتهيئة المقدمات بنفس الطريقة التي بدأها المسافر، أي إذا كانت حركته حادثة فإن زمن الحركة يكون محدوداً، وإذا كان محدوداً فقد يعتذر عن عدم الاسراع بظهور الحياة بأن ظهورها في وقت أسبق كان يتطلب فترة زمنية أبعد.

قالت ورقاء: شكراً لك يا أختاه، وبالمناسبة فهل تعلمين أنني أنقم على الزمن أحياناً؟.

قالت معاد: أي حين هو هذا الذي تنقمين فيه على جلستنا هذه.

قالت ورقاء: عندما ينقضي بسرعة كما انقضى علينا في جلستنا هذه.

فضحكت معاد وتطلعت إلى ساعتها ثم قالت: يبدو أنك قد تأخرت أكثر مما ينبغي والآن هيا بنا لنذهب.

وقالت ورقاء: لقد شعرت بالراحة في جلستنا هذه بشكل لم استشعره في المستشفى من قبل.

قالت معاد: سوف آتي بك معي في كل مرة لكي نتخلص هنا ولو إلى فترة قصيرة من أجواء المستشفى الكئيبة.

* * *

عادت ورقاء إلى البيت فاستقبلتها جدتها عند الباب وقالت لها باهتمام: إن عندنا ضيوف فاصعدي إلى غرفتك واصلحي من وضعك وتعالي يا ورقاء.

فاستغربت ورقاء ذلك وقالت باستغراب: ضيوف. . . ومن هم يا جدتي؟

قالت: أنه الاستاذ ماهر إبن عم أبيك وأمه.

فردت ورقاء بنفور: وما دخلي أنا بهم؟

قالت الجدة: أليس هو ابن عمك يا ورقاء؟

قالت: نعم انه قريبي ولكنه رجل أجنبي من الأفضل لي أن لا أجالسه وأحادثه بدون فائدة.

قالت الجدة: ومن قال لك أن جلوسك معه بدون فائدة؟ إنه إنسان عظيم.

فابتسمت ورقاء في تهكم وقالت: ما هو الوجه في عظمته يا جدتي؟

قا لت: أنه مثقف وفاهم، وهو واسع الثراء أيضاً.

فتوجهت ورقاء نحو السلم وهي تقول بلهجة ساخرة: تشرفنا.

فأمسكت بها الجدة وقالت: لا أدعك تصعدين إلا إذا أعطيتني عهداً بالنزول، ألم تعاهديني على الاطاعة يا ورقاء؟.

ولكن. . .

كلا، لا تصعدي تعالي وسلمي قبل ذلك فأنا أجدك غير نازلة لو صعدت يا ورقاء.

قالت ورقاء في توسل: دعيني أصعد يا جدتي، أرجوك.

قالت: كلا لن أدعك تصعدين لقد قطعت لي عهداً أن تطيعيني في كل شيء؟ تعالي يا ورقاء.

قالت ورقاء: شريطة أن تكتفي مني بالسلام فقط ثم أصعد بعده إلى غرفتي.

قالت الجدة: نعم أنه كاف في الوقت الحاضر. فلم تجد ورقاء بداً في الاستجابة لجدتها فتوجهت إلى غرفة الاستقبال حسماً للنزاع، وكان الأستاذ ماهر يجلس على الكرسي المواجه للباب وإلى جواره أمه العجوز.

فدخلت ورقاء وسلمت عليهم بصوت هادىء فنهض الأستاذ ماهر مجيباً لها ومرحباً لها ثم أشار إلى الكرسي الذي بجواره وهو يقول: تفضلي بالجلوس هنا يا ورقاء.

وهنا ضمت الجدة صوتها إلى صوت ماهر فأردفت تقول: تعالي يا ابنتي واجلسي إلى جوار ابن عمك الأستاذ ماهر حرسه الله.

ولكن ورقاء لم تتقدم خطوة وإنما قالت بأدب: أن عندي دروساً مهمة عليَّ مراجعتها يا جدتي ولهذا فأنا اعتذر عن الجلوس ومع السلامة.

قالت هذا وخرجت من الغرفة تشايعها نظرات الجدة الغاضبة وتعليقات ماهر الرخيصة. وما أن وصلت إلى غرفتها

حتى ألقت برأسها على الوسادة واندفعت تبكي في حرقة وألم، فلم تكن تعرف كيف يمكنها التخلص من هذا المأزق الجديد، أنها كانت ومنذ البداية تكره ماهر ولا ترضاه زوجاً لها لضعف شخصيته وميوعته، أما الآن وقد عرفت من دينها أكثر مما كانت تعرف فقد أصبح من المستحيل أن ترضاه وهو على ما هو عليه من انحراف وتبذل، وصممت أن تخوضها معركة قوية وصريحة مع الجدة مهما كلفها ذلك من صعاب.

وبعد مضي ساعة صعدت إليها الجدة وهي بين الشدة واللين وقالت لها: لقد تصرفت اليوم تصرف الأطفال يا ورقاء فلم يكن من اللائق بك أن تعاملي إبن عمك هذه المعاملة الجافة وهو يحبك ويحترمك وما جاء إلا للتعرف عليك.

قالت ورقاء: ولكنني لا أريد التعرف على أمثاله يا جدتي. إنه إنسان غير صالح.

قالت الجدة: انك غلطانة يا ورقاء فهو شاب جميل ومثقف وناجح في عمله وليس لديه سوى أمه العجوز، تصوري أنه عنده من السيارات الخصوصية ثلاثة.

قالت ورقاء: ولهذا فهو انسان تافه، وإلا فما حاجة فرد واحد بثلاث سيارات؟

قالت الجدة متجاهلة كلمات ورقاء الأخيرة: أنك تعلمين أنه تقدم لخطبتك قبل ستة أشهر وقد أجلت الموضوع

إلى ما بعد تخرجك، وها هو قد جاء يجدد الخطبة لأنك على أبواب الامتحانات النهائية وهو يقول أنه مستعد لتقديم أغلى مهر مع سيارة مرسيدس خاصة بك.

فقالت ورقاء: هل أنت جادة في حديثك يا جدتي؟ هل تحتملين حقاً بأنني أوافق على الاقتران بماهر؟ وأن آلافه وسياراته سوف تغريني بأن أبيع ديني من أجلها؟

قالت الجدة: وما دخل دينك في الموضوع؟

قالت ورقاء: ألا تعلمين أنه انسان غير ملتزم حتى بالصلاة؟.

قالت الجدة: إن حسابه ليس عليك يا ورقاء. إن له رباً يحاسبه ويعاقبه يا عزيزتي.

قالت ورقاء: ان الاقتران برجل غير متدين غير وارد في حسابي يا جدتي.

قالت الجدة: ولكنه انسان محترم، هبيه غير ملتزم دينياً ولكن عدم التزامه سوف لن يضرك أنت يا ورقاء.

قالت ورقاء بشيء من العنف: أنك لا تريدين فهم ما أعني يا جدتي ولهذا فأنا أقول لك كلمة واحدة وهي كلا. . .

قالت الجدة: ولكن لديك فترة للتفكير فأنا أخشى أن تندمي على هذا الرفض.

قالت: كوني مطمئنة فاني لن أندم على ذلك.

قالت الجدة: وإذا لم تحصلي على الرجل الذي نسجته أفكارك يا ورقاء؟

قالت: سوف لن أتزوج حين ذاك. ولكنه غير متعذر المنال يا جدتي.

قالت الجدة: أراك ما زلت طفلة يا ورقاء وإلا فليس من صالحك أبداً أن ترفضي ماهر من أجل قضايا غير مهمة.

فابتسمت ورقاء بمرارة وقالت: كيف تقولين أنها قضايا غير مهمة يا جدتي؟ أنني رفضت سناد لأن أباه قاتل أبي أي أن أباه قد أجرم بحق أبي مع أن سناد لم يرتكب أي خطأ في حق أبي أليس كذلك؟ وماهر هذا هو بشخصه قد أساء لربي وقد أجرم بحقه لكفرانه بالنعم واستهانته بالعذاب وتجنبه للاطاعة، وديني هو أثمن شيء عندي وأعز عليَّ من أبي، فكيف تريدين مني أن أقرن حياتي مع انسان يعاديني عن طريق عداء ديني؟.

قالت الجدة بشيء من الضيق: ها أنت ما زلت تذكرين سناد بكل خير ولا أحسبك إلا عازمة عن الزواج بسببه.

قالت ورقاء: أما أنني أذكره بكل خير فهو لا يستحق مني ذكر السوء يا جدتي، وأما أنني عازفة عن الزواج بسببه

فهذا غير صحيح لأن موضوعه قد انغلق ولعله الآن في طريقه للزواج.

قالت الجدة: أنني لا أريد أن تذكرينه بالسوء فما وجدنا منه ما يسيء، وأنا اعترف لك بأنه انسان كامل وأنه خير من ماهر ولكنه ابن قاتل أبيك، وماهر إبن عمك، ولولا هذا لما قدمت أحداً عليه، وعلى كل حال فأنا أرجو أن تراجعي نفسك في موضوع ماهر ولا تسيئي إليَّ وإلى ذكرى أبيك في رفضه.

* * *

لم تتمكن ورقاء أن تنام ليلتها تلك، فقد هزتها هذه الحادثة وأسلمتها للحيرة والقلق، وفي اليوم الثاني ذهبت إلى معاد فتناست هناك بعض آلامها، وفكرت أن تحدثها بأمر ماهر ولكنها آثرت أن تستغل الوقت في حديث ذي فائدة فقالت: بودي لو أكملت حديث أمس يا معاد.

قالت معاد: ولكنني أجدك اليوم غير منشرحة الصدر وأخشى أن يضايقك ذلك.

قالت ورقاء: كلا فانني أريد أن أتناسى الألم بين أفكار المعرفة، فإن من أسعد الساعات عندي ساعة تزيدني علماً.

قالت معاد: إذن دعينا نبدأ معهم من جديد.

قالت ورقاء: مع من؟

قالت: مع هؤلاء الذين يقولون بأزلية المادة ويوزعون الخلق إلى حركتها فنقول لهم: هبوا أننا قلنا معكم بأزلية المادة فكيف نتمكن أن نفسر انتقال المادة من حال إلى حال واختلافها في النتيجة مع أن المادة في حالتها البسيطة واحدة؟ أو كيف نفسر اختلاف بعض أجزاء المادة عن البعض؟.

قالت ورقاء: ماذا تعنين بانتقال المادة من حال إلى حال؟.

قالت معاد: أقصد تحول المادة مثل الهيدروجين يتطور إلى أن يصل إلى اليورانيوم ثم اليورانيوم يتحول بعد اشعاعه إلى عنصر الراديوم ثم يتحول الراديوم إلى عنصر آخر، وهكذا حتى يصير رصاصاً وهنا يقف التطور.

قالت ورقاء: ولماذا يقف التطور؟

قالت معاد: نعم لماذا يقف التطور؟ ولماذا يتطور بعض الهيدروجين دون البعض؟

قالت ورقاء: انهم يقولون أن التطور هو نتيجة لاحتواء كل عنصر على نقيضه.

قالت معاد: ولكن إذا كان هذا صحيحاً فهو يعني أن جميع الهيدروجين يحتوي على نقيضه فلماذا لم يتطور بمجموعه حتى تتلاشى مادة الهيدروجين وتتحول بمجموعها إلى اليورانيوم؟.

فردت ورقاء تقول: نعم لماذا؟

قالت معاد: إذن فلا بد من وجود عاقل مؤثر وراء تطور المادة، إن المادة وكما أثبت العلم تتكون من شحنات كهربائية لا غير، إذن فهي غير عاقلة فكيف أمكنها أن توجد الخلق بهذا الشكل المنظم المتقن؟.

وسكتت معاد عند هذا الحد وهي تتطلع إلى وجه ورقاء، ثم قالت: ماذا بك يا ورقاء؟

قالت ورقاء: لا شيء.

قالت معاد: سواء كان هناك شيء أو لم يكن فأنا أرجو أن تكوني قوية وقوية جداً.

قالت ورقاء: سوف أكون قوية باذن الله يا أختاه. وها أنا الآن قد ارتحت لجلوسي معك وازددت قوة وثباتاً.

قالت معاد: ولكنك شاحبة الوجه قليلاً ولهذا فإليك هذا القرص الفوار أشربيه مع نصف كوب ماء.

فابتسمت ورقاء وقالت: لقد نسيت يا معاد أنك طبيبة أبدان وما عدت أعرف عنك سوى طب الروح والفكر.

فضحكت معاد وقالت: أنني أعتز بطب الأرواح أكثر من طب الأبدان.

قالت ورقاء: والآن فأن علي أن أذهب وسوف لن أتمكن أن آتي إليك غداً لأن دوامي يستمر حتى الغروب.

قالت معاد: أما بعد غد فسوف تجدينني وحدي هنا إن شاء الله.

فنهضت ورقاء وهي تقول: إذن إلى اللقاء، وهكذا افترقنا على أمل اللقاء بعد يومين.

* * *

مر اليوم الثاني دون أن تتحدث الجدة مع ورقاء في موضوع الخطبة، وكانت ورقاء تبدو حزينة وقد عادت إلى البيت مرهقة وصعدت إلى غرفتها مبكرة، وفي صباح اليوم الثاني حينما كانت تقف تنتظر الباص وقفت أمامها سيارة مرسيدس فارهة ونزل منها ماهر وهو يقول: صباح الخير يا ورقاء، فرصة سعيدة أن أتمكن من ايصالك إلى الكلية.

فلم تغير ورقاء من وقفتها شيئاً وإنما أجابت بهدوء قائلة: كلا أشكرك يا أستاذ.

قال ماهر: تفضلي واركبي، ارجوك.

قالت ورقاء: شكراً فأنني أنتظر.

قال: هل تنتظرين أحداً؟

قالت: كلا بل أنني أنتظر الباص.

فضحك ماهر وقال باستغراب: تنتظرين الباص وتمتنعين عن ركوب سيارة مرسيدس.

قال هذا بافختار واعتـزاز زاد من احتقار ورقـاء له، فأدارت وجهها ناحية وهي تقول: أرجو أن لا تتعب نفسك بالتأخر فأنني سوف لن أركب.

قـال: إن التعب في سبيلك راحـة واعتبري السيـارة سيارتك منذ الآن واركبي فيها دون مضايقة.

وهنا وصل الباص فأسرعت نحوه ورقاء وهي تقول: ها هو الباص قد وصل مع السلامة، ثم ركبت الباص تاركة ماهر يتطلع إلى السيارة بإعجاب ويستغرب عزوف ورقـاء عنها.

وقد أثرت هذه الحادثة في نفسية ورقاء فذهبت ذلـك اليوم إلى معاد وهي في حالة نفسية سيئة وكان موعدها معها في البيت ولهذا ذهبت رأساً إلى هناك فوجدت معاد مشغولة بالتنظيف والترتيب، فحاولت أن تشـاركها العمـل، ولكن معاداً منعتها عن ذلك لأنها لاحظت عليها آثار الشحـوب والارهاق، وما أن انتهت من أعمالها حتى عرضت على ورقاء أن تجلس قليلاً تحت ظلال الأشجار، فجلست ورقاء جلسة الحائر الكئيب.

فقالت لها معاد: ما لك يا ورقاء؟

قالت ورقاء: أنني غير مرتاحة يا معاد.

قالت معاد: إن هذا واضح عليك يا ورقاء، ولكن ألم نتفق أن تكوني أقوى من الألم؟

قالت ورقاء: أنني قوية أمام المهمات والحمد لله، ولكن المضايقات البسيطة تتعبني يا أختاه، فأنا منذ مدة أعيش مع سلسلة احراجات، إذ قد تقدم لخطبتي ابن عمي - أي ابن عم أبي - وقد ساندته جدتي إذ أنه في نظرها متكامل الجوانب: شاب جميل وغني ومثقف.

وسكتت ورقاء عند هذا. فتساءلت معاد باهتمام قائلة: ومتدين؟

قالت ورقاء: كلا وهذا هو مصدر المضايقات التي أعانيها لأني وبطبيعة الحال قد رفضته نهائياً ولكن جدتي لا تفتأ تناقش الأمر بالشدة حيناً وباللين أخرى، وهو ما زال يحاول مضايقتي وفرض وجوده عليّ وهذا هو ما يتعبني نفسياً ويجعلني أعيش في صراع مستمر.

وهنا عادت معاد تسأل في لهفة أيضاً قائلة: صراع؟ مع من يا ورقاء؟

قالت: صراع مع جدتي ومع مضايقاته هو.

قالت معاد: لقد خشيت أن يكون الصراع مع نفسك يا أختاه.

قالت ورقاء: كلا فان الأمر عندي واضح لا يستوجب أي تفكير أو صراع.

قالت معاد: وهذا هو المأمول منك يا ورقاء، ان عليك أن تتحملي بعض المضايقات إلى فترة قصيرة تتخلصين في مقابلها من مضايقات طويلة وطويلة جداً.

قالت ورقاء: تقصدين مضايقات الزواج من رجل غير متدين؟

قالت معاد: نعم، لأن تلك المضايقات تمد جذورها في الحياة الأولى والثانية وتؤثر على المستقبل القريب والبعيد.

قالت ورقاء: ولكن كيف يمكنني أن أقنع جدتي بوجهة نظري؟.

قالت معاد: لا أحسب أنها سوف تقتنع بوجهة نطرك يا ورقاء لأنها تنظر إلى الموضوع بمنظارها الخاص ولهذا عليك أن تستدرجيها عاطفياً حتى تلين وتتنازل عند رغبتك.

قالت ورقاء: إنها شديدة لا تؤثر فيها العواطف ولكنني سوف أقاوم بأي شكل من الأشكال.

قالت معاد: ولكن ما الذي يدعوها إلى هذا الاصرار يا ترى؟ وأي مكسب لها فيه؟.

فسكتت ورقاء ولم تعرف كيف تجيب لأنها كانت تخمن

أن من أهم أسباب إصرار جدتها هو إبعادها عن معاد، ولكن هل كان يمكنها أن تقول لمعاد ذلك، لهذا سكتت وبقيت ساكتة، فعادت معاد تقول: لا شك أن هناك أسباباً تدعوها إلى هذا الاصرار، فإن لكل شيء سبباً يا ورقاء.

وهنا أرادت ورقاء أن تبدل مجرى الحديث فقالت: نعم ونتيجة لهذا (قاعدة أن لكل شيء سبباً) يضطر منكرو الله تبارك وتعالى أن ينسبوا الخلق إلى المادة مع عجزها عن ذلك، لأنهم لا يتمكنون أن يقولوا أن هذا الخلق وجد بدون سبب.

قالت معاد: نعم وهذا هو ما يشترك فيه الماديون والالهيون مع اختلاف السبب الذي يؤمنون به.

قالت ورقاء: وكيف؟

قالت معاد: أقصد أننا نحن وهم نؤمن - :

أولاً: بأن الكون مخلوق أي حادث، وأن هناك مؤثراً تنتهي إليه أسباب الوجود.

ثانياً: بأن وجود الكون حقيقة لا جدل فيها خلافاً للمثاليين الذين يشككون في وجود كل شيء.

ثالثاً: هي بإحساس الانسان بأنه يستند في وجوده إلى قوة أثرت في تحقيق هذا الوجود على اختلاف في تأويل هذه القوة.

وهنا قالت ورقاء: وهل أن الماديين يعترفون في كتبهم بهذه الحقائق؟

قالت معاد: نعم ومثال ذلك ما جاء في كتاب (نقد الفكر الديني) قوله (في الواقع علينا أن نعترف بكل تواضع بجهلنا حول ما يتعلق بمشكلة المصدر الأول للكون).

قالت ورقاء: إذن فان هذه حقائق يشترك فيها الماديون والالهيون؟.

قالت معاد: نعم ولكن الماديين يرجعون السبب إلى المادة وحركتها، والالهيون يرجعونه إلى الواحد القهار.

قالت ورقاء: ولكنهم كيف يدعون أزلية المادة مع ما ثبت من إمكان تغيرها والأزلي لا يمكن له أن يتغير؟.

قالت معاد: نعم أن الأزلي لا يمكن له أن يتغير يا ورقاء، لأن التغيير يحتاج إلى بداية وكل ما يحتاج إلى بداية معرض للنهاية.

قالت ورقاء: إذن فأن ما أثبتته الفيزياء من أن الذرات مركبة من عدة كهارب ودقائق وأنها من الممكن لها أن تتحلل أو تتجزأ إلى طاقات يثبت عدم أزلية المادة لأن الأزلي لا يقبل التركيب؟

قالت معاد: ولكن هل تعلمين لماذا الأزلي لا يقبل التركيب؟

لأننا حينما نقول أن الأزلي لا يقبل التركيب نقصد أننا لو سألنا عن هذا المركب كيف وجد، وهل كان مركباً في الأزل أم أن أجزاءه ركبت بالتدريج، وهل حدث هـذا أولاً أم وجدت أجزاؤه قبله، فماذا سوف يكون الجواب؟

قالت ورقاء: هبيهم يقولون أن أجزاءه قد حدثت قبله؟

قالت معاد: إذن فأن معنى ذلك أنه حادث وليس أزلياً لأن أجزاءه سبقته في الحدوث وهيأت الأسباب لحدوثه.

قالت ورقاء: وإذا قالوا أن حدوثه كان مواكباً لحدوث أجزائه أي أنه وأجزاءه حدثا معاً ومرة واحدة؟

قالت معاد: عند ذلك نقول لهم: أليس من الممكن أن تتجزأ عنه هذه الأجزاء أو تنفصل عن طريق التحـول أو التطور، كما تحلل الماء إلى الاوكسجين وهايدروجين وكما انتقل الهايدروجين إلى اليورانيوم، وهذا أمر محتمل الحدوث لأن كل مركب معرض للانحلال ثم للفناء نتيجة تحلل مركباته وعند هذا نعود لنكرر القاعدة الثابتة التي تقول أن كل ما يجوز فناؤه تستحيل أزليته.

قالت ورقاء: وما هي القاعدة التي تستخلص منها هذه النتيجة (نتيجة أن ما يجوز فناؤه تستحيل أزليته؟).

قالت معاد: لأنه إذا كان أزلياً فأن معنى الأزلي هو أن وجوده لم يفتقر إلى علة أو سبب لأنه هو علة ذاته بمعنى من

المعاني، ولهذا فهو لن يتعرض أيضاً لعلة تحول بينه وبين علة وجوده فتسبب فناءه، على خلاف الذي يفتقر إلى علة لايجاده، فهو متى ما افتقد تلك العلة تعرض للفناء، ولعلك تعلمين أن العلم أثبت أخيراً إمكان تجزئة الذرة.

قالت ورقاء: إذن فان الذرات أي المادة التي ينادي بها الماديون ويقولون أنها الأصل الأول للحياة، هذه الذرات يمكن تجزئتها لأنها مركبة والمركب ليس مستحيل التجزئة؟

قالت معاد: وبالتالي فهو ليس أزلياً إذ أنه معرض للفناء عند افتقاد عناصره لأنه محتاج إلى علة لوجوده وتلك العلة هي الحفاظ على أجزائه، والأزلي لا يحتاج إلى علة لوجوده.

قالت ورقاء: ثم أليس أن في النظرية العلمية التي ثبتت أخيراً (نظرية الانتقال الحراري المستمر من طاقة حرارية عالية إلى طاقة حرارية أقل حرارة) دليل على عدم أزلية الكون؟.

قالت معاد: طبعاً لأن مجرد الايمان بوجود تغيير في مستويات الطاقة الحرارية في الكون يجعلنا نعرف أن الكون غير أزلي، إذ لو كان أزلياً لتساوت الحرارة في كل أجزائه منذ أمد طويل جداً ولتعذرت الحياة نهائياً منذ ملايين السنين.

وقالت ورقاء: وكذلك في ما أثبته العلم من اتساع الكون، والنسب التي أعطاها لذلك لدليل على عدم أزلية الكون، إذ أنه لو كان أزلياً وهو على هذه النسب من الاتساع

لأصبحت المسافات بين الكواكب لا نهائية لأنها تتسع منذ الأزل، إذن فهو مخلوق.

قالت معاد: وخالقه غير مخلوق وهو أزلي غير معرض للفناء كالمادة ألا وهو الله تبارك وتعالى.

قالت ورقاء: يؤسفني أن عليَّ أن أذهب الآن وسوف انقطع عنك خلال الأسبوع القادم لأن الامتحانات قد بدأت اليوم وأريد أن أتفرغ للدراسة.

قالت معاد: أتمنى لك الموفقية يا أختاه وسوف أنتظرك بعد أسبوع إن شاء الله.

* * *

مرت أيام الامتحانات وقد حاولت ورقاء خلالها أن تتفرغ إلى دروسها بشكل تام، وأبعدت عن أفكارها أحاديث ماهر وتوابعها وفعلاً فقد تمكنت من اجتيازها بتفوق يدل على النجاح وفي آخر يوم عرجت في طريق عودتها على معاد فقيل لها أنها مشغولة، فتركت لها ورقة تخبرها بانتهاء امتحاناتها وتقول لها أنها سوف تزورها عصر غد، ثم عادت إلى البيت فاستقبلتها جدتها مشرقة الوجه وقبلتها بحنان وهي تقول: الحمد لله الذي أبقاني حية حتى رأيتك مهندسة.

فابتسمت ورقاء وقالت: ولكنني لم أحصل على النتيجة بعد يا جدتي.

قالت الجدة: إنها مضمونة النجاح يا عزيزتي.

قالت ورقاء: أرجو ذلك، ثم صعدت إلى غرفتها فوجدت هناك باقة زهر كبيرة في إناء من الكريستال الثمين وقد تربعت وسطها علبة بيضاء صغيرة كتبت فوقها هذه الكلمات: (هديتي لك بمناسبة انتهاء الامتحانات مع وافر حبي... ماهر).

واستغربت ورقاء هذه الهدية وخمنت أنها هدية لموقف حاسم، ولهذا فقد نزلت إلى جدتها وقالت بهدوء: من أين جاءت باقة الورد هذه؟

قالت الجدة: لقد بعث بها الأستاذ ماهر مع السائق وقال أنه سوف يأتي مع أمه في المساء.

قالت ورقاء وهي تحاول أن تبدو طبيعية: وهل تعرفين أين يقع بيت هذا الأستاذ؟

فاستغربت الجدة هذا السؤال ثم قالت: كلا، أنا لا أعرف موقع بيته الجديد، ولكن لماذا تسألين؟

قالت: لكي أعيد إليه باقة الزهر هذه.

قالت الجدة في هلع: تعيدين باقة الزهر؟ هل أنت مجنونة يا ورقاء؟ هل رأيت الخاتم الماسي الذي في العلبة؟

قالت ورقاء: انني لم أفتح العلبة ولا شغل لي بها ولن أقبل هذه الهدية بأي شكل من الأشكال.

قالت الجدة: لا شك أنك مجنونة يا ورقاء، ليس هناك انسانة عاقلة تتصرف هذا التصرف المشين، أنه ابن عمك وخطيبك في الوقت نفسه.

وهنا أجابت ورقاء بشيء من العنف قائلة: ماذا قلت يا جدتي؟ من هو خطيبي؟

قالت: ماهر.

قالت: ومتى أصبح خطيبي مع أنني لم أوافق على قبوله أبداً؟

قالت الجدة: فكري قبل أن تقطعي بالأمر يا ورقاء، أنه انسان ممتاز يليق لك من جميع الجهات.

قالت ورقاء: لقد فكرت بما فيه الكفاية وليس لدي إلا الرفض.

قالت الجدة: ولكن ماذا تأخذين عليه يا ترى؟

قالت ورقاء: أولاً وبالذات كونه غير متدين.

قالت: يمكنك هدايته بعد ذلك.

قالت: وإذا لم يهتد؟

قالت: دعيه هو وشأنه وأنت وشأنك، أنك لن تنامي معه في قبره يا ورقاء، تنعمي بخيراته ودعبه يتعذب وحده في النار.

قالت ورقاء: إن هذه لن تكون حياة زوجية بل شركة تجارية استغلالية لا أكثر ولا أقل.

قالت الجدة: إذن؟

قالت ورقاء: إذن سوف لن أوافق.

قالت الجدة: وهديته؟

قالت ورقاء: إن جميع هداياه وسياراته وعماراته لا تساوي عندي شيئاً ما دام هو بشخصه يفتقر إلى الدين، أعيدي إليه هديته وقولي له أن يفتش عن عروس يليق بها وتليق به.

قالت الجدة في غضب: أنني لن أقول شيئاً من هذا، أعيديها أنت إليه إذا أردت.

وفي المساء حضر ماهر وحده، فرحبت به الجدة وجلست معه في غرفة الاستقبال، وكأنها أرادت أن تقول شيئاً تمهد فيه لما قد يصدر عن ورقاء فقالت: أنني أشكرك جداً لهديتك الثمينة يا أستاذ ماهر.

قال: أنها أقل الواجب تجاه ورقاء، أرجو أن يكون الخاتم على قياسها؟

قالت الجدة: الحقيقة أن ورقاء ما زالت طفلة ولهذا فهي في حاجة إلى تدرج في الترويض.

قال: كيف؟

قالت: تصور أنها لم تلبس الخاتم بيدها لحد الآن لأنها تقول بأنها ما زالت تعبانة من الامتحانات.

قال: إن من حقها أن تستريح فترة، ونحن لا نريد فعلاً سوى الموافقة المبدئية ثم تقديم نيشان الخطوبة، وقد اخترت لذلك طقماً ثميناً من الماس وجدته ملائماً لشباب ورقاء وجمالها، وما أتيت إلا من أجل تحديد الوقت المناسب لتقديمه.

فارتبكت الجدة وقالت: سوف أتصل أنا بكم لتحديد الوقت المناسب بعد أن أقنعها بالقبول.

قال ماهر: عجيب أن تكون في حاجة إلى ترويض وإقناع، إنه أمر طبيعي وبديهي الصلاح، ولكنها على ما يبدو ما زالت صغيرة.

فتأثرت الجدة لهذا الأسلوب في الكلام ولكنها استمرت على خط المجاملة ولهذا قالت: صحيح أنها ما زالت صغيرة ولكنها عاقلة وحكيمة والحمد لله، ولعل لديها وجهة نظر معينة سوف أتمكن من تصحيحها خلال أيام.

وقبل أن تنتهي الجدة من كلماتها انفتح الباب ودخلت ورقاء وهي تحمل بيدها علبة الخاتم الصغيرة البيضاء، فخفق

قلب الجدة بعنف وغرها الارتباك لما سوف يحدث، أما ورقاء فقد سلمت وجلست على أقرب كرسي من الباب.

فنهض ماهر لاستقبالها ورحب بها بحفاوة، وما أن استقر بها الجلوس حتى التفتت إليه وهي تقول: أنني أشكرك على باقة الزهر التي أرسلتها صباح اليوم يا أستاذ وسوف أتقبلها كتحية طيبة من إبن عم طيب، أما هذه العلبة فأنا أعتذر عن قبولها لعدم وجود مناسبة لها.

فبهت ماهر لحظة ثم قال في تلعثم: ماذا تقصدين بهذا يا ترى؟

قالت: أقصد بأنك إبن عم أبي فلتبق علاقتنا على هذا المستوى لا أكثر ولا أقل.

قال: صحيح أنني ابن عم أبيك ولكن أليس من حقي أن أطمع بتعميق هذه العلاقة؟

قالت باقتضاب: كلا.

قال: هل تسمحين لي أن أسأل عن السبب، لقد لاحظت منك نفوراً منذ البداية فهل قصرت في شيء أو هل أسأت إليك بشيء؟

قالت: كلا أنك لم تقصر في حقي ولم تسيء إليَّ ولكن رفضي هذا من صالحك وصالحي يا أستاذ.

قال: كيف عرفت أنه من صالحي يا ورقاء؟

قالت: لأنني سوف لن أكون القرينة الحقيقية لك يا أستاذ. إن هناك فارق مهم لا يمكننا تجاوزه في الحياة الزوجية فلنكن أبناء عم فقط وهذا يكفي.

قال: إذا كنت تفكرين بالفارق المادي فأنا لا يهمني ذلك من قريب أو بعيد، أنني أنسى حينما تصبحين زوجتي بأن هناك فوارق في الحالة المعاشية، وسوف أضع جميع ما أملك أمامك تتصرفين فيه كما تشائين.

فزادت هذه الكلمات من غيظ ورقاء، ولكنها جاهدت أن تسيطر على أعصابها أكثر ولهذا ردت بهدوء قائلة: أنك لم تستوعب فهم ما أردت أن أشير اليه، فالفارق الذي ذكرته ليس هو الفارق المادي.

فقاطع حديثها قائلاً: إذن فهو فارق اجتماعي؟ ولكننا متجانسون فنحن أولاد عم وكل منا يحمل شهادة مهندس.

فهزت ورقاء رأسها في استنكار وقالت بشيء من الحدة: ألا تريد أن تتركني أكمل حديثي يا أستاذ؟

قال: عفواً تفضلي.

قالت: إن الفارق المهم الذي أعنيه هو الفارق الديني يا أستاذ، قالت هذا وسكتت تنتظر ردود الفعل.

فسكت ماهر لحظة ثم تنحنح يداري بذلك ارتباكه. واغتنمت الجدة هذه الفرصة لتدخل في النقاش فقالت:

إن الفارق الديني غير مهم فهو لن يجبرك على التغيير من وضعك يا عزيزتي أليس كذلك يا أستاذ ماهر؟

وكانت الجدة قد أعطت لماهر بحديثها هذا فرصة لاستعادة وضعه الطبيعي حيث أجاب قائلاً باندفاع: طبعاً، طبعاً، فأنا لا أريد أن أمنعها عن شيء تريده هي أبداً وإذا كان هذا هو المانع فقد ارتفع.

فابتسمت ورقاء في مرارة وقالت: أنني لا أريد أن أطيل الحديث ولكنك تضطرني إلى ذلك الآن دعني أسألك سؤالاً واحداً: ما هو مفهوم الحياة الزوجية عندك؟.

فظهرت الحيرة على ماهر لأنه لم يكن قد فكر بمفهوم خاص للحياة الزوجية من قبل ولهذا تردد لحظة ثم قال: حياة زوجية سعيدة!.

قالت: أنك لم تذكر مفهومها عندك وليس ما ذكرته سوى نتيجة لتحقيق ذلك المفهوم.

فضحك في بلاهة وقال: إذن فأي مفهوم تريدين؟

قالت ورقاء: أنا لا أريد شيئاً ولكن أريد أن أعرف نظرتك عن طبيعة الحياة الزوجية.

وهنا تدخلت الجدة لتنقذ الموقف من جديد فقالت: دعك من هذا الكلام يا ورقاء، إنه ابن عم أبيك وهذا يكفي.

فاستدارت ورقاء نحوها وقالت: أرجـو أن تفهمي ما أعنيه يا جدتي، فإذا كان هو لا يريد أن يفهم فافهمي أنت على الأقل، إن الحياة الزوجية ليست شركة مادية، أو ندوة اجتماعية. وإنما هي وحدة روح وفكر ومصير وهذا ما لا يمكن أن يتحقق مع اختلاف السلوك وتباين وجهات النظر. وما دمنا لا نستطيع أن نلتقي فكرياً فلن نستطيع أن نلتقي عاطفياً. وعدم الالتقاء العاطفي هو أوضح دليل لفشل الحياة الزوجية، ولهذا فأنا لا أريد لنفسي ولا أريد له أيضاً أن نرتبط بحياة زوجية فاشلة.

وسواء فهمت الجدة حديث ورقاء أو لم تفهم فأنها ردت عليها قائلة في إلحاح: إن في إمكان كل منكما أن يبقى على ما هو عليه.

فتأففت ورقاء وقالت: إن هذا هو ما أعنيه من الفصام الفكري والعاطفي.

قالت الجدة: أو ليس من الممكن أن تتقارب وجهات النظر بعد الزواج؟

قالت ورقاء: كلا يا جدتي لأن ذلك التقارب يستوجب إعطاء تنازلات من الطرفين وأنا غير مستعـدة لاعطاء أي تنازلات مهما كانت بسيطة، إن ديني أهم شيء عندي لأنه هو الذي يحدد مستقبلي في الغد القريب.

وهنا وجد ماهر مجالاً للدخول في النقاش فقال متحذلقاً: عفوا يا ورقاء ولكن أي دخل لدينك في المستقبل ومستقبلك مضمون كمهندسة ميكانيكية سواء كنت متدينة أم لا. كما ضمنت أنا مستقبلي كمهندس معماري مع عدم التزامي بالدين؟.

قالت ورقاء: ها أنت لا تريد أن تفهم ما أقول، أن المستقبل الذي أعنيه هو مستقبلي بعد الموت. وهذا ما لم تضمنه أنت، وما أريد أن أضمنه أنا مهما استطعت، أنني أخطط لمستقبلي ذاك أكثر مما أخطط لمستقبلي كمهندسة لأن هذا المستقبل مهما طال فهو محدود الأمد، أما ذاك المستقبل فهو ما لا نهاية له.

فرأت شحوب باهت على وجه ماهر وكأن كلمات ورقاء الأخيرة قد أثرت عليه، ولكن الجدة أرادت حسم النقاش، فتوجهت نحو ورقاء قائلة بلهجة آمرة: إذهبي الآن إلى غرفتك فأن لدينا مجالاً طويلاً لتدبر الأمر.

ولما لم تتحرك ورقاء ألحت عليها قائلة: قومي واذهبي، كفاية كلمات صبيانية يا ورقاء.

وهنا ضحك ماهر ثم قال: أنها معذورة فقد ربيت تربية معقدة منطوية. وأنا أرجو أن أفتح لها بيدي هاتين أبواب الحياة السعيدة. حياة الانطلاق والحرية، أنها ولا شك واقعة تحت تأثير سيء لعله من صديقة أو صديق.

ولم يفت الجدة ما عناه ماهر بكلمته الأخيرة فردت عليه في حدة قائلة: أرجوك أن تسحب كلمتك الأخيرة يا أستاذ، أن ورقاء شريفة وطاهرة وليست ممن يصادق الرجال، ثم التفتت إلى ورقاء تقول: قومي واذهبي إلى غرفتك يا ورقاء.

فنهضت ورقاء وهي مغضبة ثم ودعتهم باقتضاب وذهبت إلى غرفتها حيث جلست على حافة السرير تنتظر انصراف ماهر وهي ترتجف من شدة التأثر.

أما الجدة فقد بدأت بالاعتذار من ماهر وكأن هذا الموقف من ورقاء دفع ماهر إلى مزيد من الاصرار وقد لبس لذلك لبوس العناد، وأحس بالرغبة في سحق هذه التي رفضته ورفضت معه ذهبه وعماراته وسياراته ولهذا صمم أن يبدو أمام الجدة كإنسان لين الجانب صبوراً على الأذى فأجابها على كلمات الاعتذار قائلاً: لا عليك يا جدتي أنني سوف أحاول إقناعها بأساليبي الخاصة، وحاولي أنت مساعدتي أيضاً، واتصلي بي عند أول بادرة اقتناع.

قال هذا ثم ودعها وخرج وقد صمم أن ينتقم من ورقاء وأن يقف بالمرصاد لكل من يتقدم لخطبتها فأما أن يدعيها لنفسه وأما أن يشوه سمعتها عنده حتى يضطره أخيراً إلى التنازل له وعند ذلك يرفضها كما رفضته الآن.

وأما ورقاء فقد بدأت تشعر بالراحة نسبياً لأنها حسمت الموضوع وتخلصت من ماهر، وقد حاولت أن تنسى

المضايقات التي حدثت معتبرة نفسها منتصرة في هذه الجولة، ولهذا فقد نزلت من غرفتها في صباح اليوم الثاني وهي منشرحة الصدر مشرقة الوجه الشيء الذي استغربت له الجدة وكانت تتوقع أن تجدها في حالة نفسية سيئة، وكانت ورقاء تتعجل الذهاب إلى معاد لكي تحدثها بما جد في الأمر، ولكنها عندما ذهبت إليها عصراً وجدتها مشغولة مع حالة مرضية مستعجلة فعادت إلى البيت وإذا بجدتها تستقبلها عند الباب قائلة بصوت خافت: إصعدي إلى غرفتك دون أن يصدر عنك أي صوت.

فبهتت ورقاء وقالت: لماذا؟ ما الخبر؟.

قالت الجدة: صه إصعدي بسرعة وسوف أصعد إليك فيما بعد، إياك أن تنزلي قبل أن أناديك.

فصعدت ورقاء إلى غرفتها وهي في حالة قلق وارتباك فقد أوحى إليها منظر جدتها بوجود أحداث غير مريحة، وكلما ضربت أخماساً بأسداس لم تتمكن أن تقف عند فرض معقول، وتعلقت عيناها بعقارب الساعة تستحثها على المسير ولكنها كانت تأبى أن تتحرك وكأنها تحجرت في مكانها من الصفحة السوداء.

وبعد أكثر من ساعة سمعت صوت الباب ينغلق ثم صوت جدتها يناديها إلى تحت، فنزلت على عجل، فاستقبلها

وجه الجدة كئيباً شاحباً فأرعبها ذلك وقالت في فزع: ماذا بك يا جدتي؟ ماذا حدث بالله عليك؟

قالت الجدة: هل تعلمين من كان هنا قبل دقائق؟

قالت ورقاء: من أين لي أن أعلم يا جدتي؟

قالت: إنه حامد أفندي!!

فبهتت ورقاء وقالت باستنكار: حامد أفندي؟ هذا الاقطاعي المعروف؟

قالت الجدة: نعم، هذا الذي شردنا عن أرضنا واستغل خيراتنا.

قالت ورقاء: وماذا كان يريد؟

قالت الجدة: لقد جاء يطالب بحقه في قطعة الأرض التي بحوزته، وحقه في هذا البيت لأنه رهن عنده بأوراق رسمية ولا توجد أوراق رسمية تثبت سداد الرهان لأنها سرقت من المعمل كما ذكرت لك سابقاً، وهو يقول: أنه ما صبر علينا إلا انتظاراً لتخرجك من الكلية ولهذا فهو الآن يطالب بحقه وتصفية الحساب إلا إذا..

وسكتت الجدة وكأنها لم تجرأ أن تزيد على ذلك شيئاً.

فقالت ورقاء في لهفة: إلا إذا ماذا يا جدتي؟

قالت الجدة: إذا وافقنا على شيء؟

قالت ورقاء وهي تتلفت حولها في حركة لا اختيارية وكأنها تطلب النجدة، قالت: إلا إذا وافقنا على أي شيء يا جدتي؟

قالت الجدة: على قبول ابنه ناصر صهراً لنا فهو حين ذلك سوف يعيد الينا أرضنا كاملة ويعترف لنا بهذا البيت.

فأحست ورقاء وكأن صاعقة قد انقضت على رأسها وقالت في هلع: وماذا قلت له يا جدتي؟

قالت الجدة: لقد أسعفني الله بجواب أنقذ الموقف مؤقتاً.

قالت ورقاء: وكيف؟

قالت: لقد قلت له بأنك معقودة ولم يكن يسعني غير ذلك كي لا أثير غضبه علينا ولا أدع له مطمحاً فيك بعد اليوم.

قالت ورقاء: ولكن كيف قلت له هذا وسوف ينكشف بطلانه من بعد؟

قالت الجدة: ولهذا أصبح محتماً عليك أن تقبلي بماهر في أسرع وقت، فإن ماهر مهما كان هو أفضل من ابن حامد أفندي الشاب الماجن السكير.

فصدرت عن ورقاء آهة جريحة ثم أطرقت برهة رفعت

رأسها بعدها وهي تقول: كلا أنني لن أقبل بماهر مهما كان، دعيه يأخذ منا كل شيء، أنني أقدم أرضي وبيتي فداء رخيصاً لديني يا جدتي.

وهنا ثارت الجدة ثورة عاتية واندفعت تلطم وجهها وتدق صدرها، وتنادي بالويل والثبور وتكيل لورقاء مختلف كلمات السباب وتتهمها بأقسى التهم.

فحاولت ورقاء تهدئتها ولكنها لم تتمكن من ذلك إلا بعد جهد ثم صعدت إلى غرفتها وارتمت على فراشها وهي في أسوأ حال.

* * *

أصبح صباح اليوم الثاني ولم تنزل ورقاء من غرفتها فحسبت الجدة أنها نائمة، ولهذا تركتها حتى ساعة غالية من الصباح ثم دخلت اليها لتوقظها وفتحت باب الغرفة ودخلت وانحنت عليها تناديها، فهالها أن رأت ورقاء غارقة في بحران من الحمى وقد انصبغ وجهها بزرقة قاتمة وأخذت أنفاسها تتلاحق لاهثة كاوية، فنادتها قائلة: ورقاء! ورقاء.

ففتحت ورقاء عينها ونظرت إلى جدتها نظرات تائهة.

فقالت الجدة: ماذا بك يا ورقاء؟ يا مهندستي الصغيرة؟

قالت ورقاء بصوت واهن متقطع: لا أدري.

قالت الجدة: هل أستدعي لك طبيباً؟

قالت ورقاء: نعم، فأنني لست على ما يرام.

فنزلت الجدة وهي حائرة ماذا تصنع، ثم خطر لها أن تتصل بماهر وتطلب منه إحضار طبيب، فاتصلت به في مكتبه وقالت له في لهفة: أرجوك يا أستاذ ماهر، أنقذ ورقاء فأنها مريضة جداً.

فجاءها الجواب في برود قائلاً: ماذا بها؟

قالت: أنها مريضة وفي حاجة إلى طبيب.

قال: ولكن الأطباء ليسوا في عيادتهم صباحاً.

قالت: ولكن فتش فقد يكون هناك طبيب غير موظف.

قال: ولكنني مشغول وعندي الكثير من المراجعين، أجلي الموضوع إلى العصر، وإذا كانت لا تزال في حاجة إلى طبيب فاتصلي بي مرة ثانية.

فلم يسع الجدة إلا أن تغلق السكة وهي بين اليأس والغضب وصعدت إلى جوار ورقاء وهيأت لها بعض المجربات. ولكن حماها كانت ترتفع ووضعها لا يوحي بأي تحسن حتى حان العصر فأعادت الاتصال بمكتب ماهر فقيل لها أنه غير موجود فقالت في توسل: هل تعلمون أين هو؟

قالوا لها: أنه سافر في مهمة له في خارج البلد وسوف

لن يعود اليوم. فألقت سماعة التليفون وعـادت إلى جوار ورقاء تقرأ لها بعض الأدعية مـع بعض آيات من القـرآن الكريم وما أن حل الليل حتى أحست أن ورقاء قد فقدت شعورها وأن جسمهـا قد أخـذ يتشنج وقـد بدأت تهـذي بكلمات غير مفهومة فطار صوابها وعادت إلى التليفون تطلب فيه ماهراً فلم تحصل له على أثر وحاولت أن تحصل على سواه ولكنها لم تتوصل إلى نتيجة، فخطر لها خاطر أنكرته عـلى نفسهـا وأهملتـه وعـادت إلى ورقـاء فسمعت أنينهـا يختلط بالهذيان، ورأت جسمها وهو يتشنج بشكل مرعب ولم يسعها حين ذاك إلا أن تقول: لعنة الله علي، لقـد قتلت ابنتي بيدي. ولكن علي الآن أن أنقذها بأي شكل، نعم بـأي شكل، وعادت تنزل إلى جهاز التلفون وأدارت أرقاماً معينة وكأنها كانت تغالب نفسها وتريد أن تحقق أمراً قبل أن تتردد فيه، وكانت تطلب المستشفى، الطابق السابع فردت عليها من هناك إحدى الممرضات فقالت لها متوسلة:

إنني أريد أن أكلم الدكتورة معاد.

قالت الممرضة: ولكنها فوق في غرفتها ولعلها نائمة.

قالت الجدة: ناديها أرجوك يا ابنتي فأنني مضطرة إليها.

قالت الممرضة: أعطيني رقم تليفونك لكي أقول لها أن تتصل بك هي فأن الخط لا يمكن أن يبقى مشغولاً مدة من الزمان.

فأعطتها رقم التليفون وأغلق السكة وصعدت إلى جوار ورقاء ولم تمض دقائق حتى رن جرس الهاتف فأسرعت اليه الجدة ورفعته وهي تقول: ألو، من، الدكتورة معاد؟

قالت معاد: نعم، أنني معاد، ولكن من أنت؟

قالت: أنني جدة ورقاء، ولقد لجأت إليك في خصوص ورقاء، إنها مريضة ومريضة جداً

فردت معاد تقول: ورقاء مريضة؟ ماذا بها؟

قالت الجدة وهي تبكي: لا أدري، اسرعي اليها وانقذيها. ان ابنتي سوف تموت فارحميها بالله عليك يا معاد.

قالت معاد: أنني آتية حالاً يا جدتي، ولكن أين هو بيتكم؟

فأعطتها الجدة عنوان البيت وعادت إلى جانب ورقاء وقد تجدد لديها بعض الأمل وأخذت تتابع عقارب الساعة بلهفة وقلق، ولم تمض فترة طويلة حتى رن جرس الباب فاندفعت اليه وفتحته لتجد معاد، ونسيت الجدة في غمرة قلقها على ورقاء كل احقادها ولم تعد تذكر سوى أنها أمام طبيبة سوف تعيد إليها ابنتها ورقاء ولهذا فقد استقبلتها بالترحاب وقادتها إلى غرفة ورقاء.

فظهر التأثر على معاد وهي تشاهد ورقاء في هذه الحالة

ثم طلبت من الجدة أن تعطيها منديلاً لفته حول رأس ورقاء ثم قالت للجدة:

هل تسمحين لي أن استدعي معي طبيباً يا خالة فان الحالة شديدة على ما يبدو.

قالت الجدة: ولكن أين سوف تجدين الطبيب في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ أرجوك لا تتركيها هكذا.

قالت معاد: أنه ينتظر في السيارة أمام الباب فهل تسمحين له بالدخول؟

قالت الجدة: طبعاً، طبعاً، ما دام فيه شفاء ابنتي.

فنزلت معاد وعادت مع الطبيب، واشتركا معاً في الفحص والتشخيص وبعد فترة توجهت معاد نحو الجدة قائلة: يبدو أنها مصابة بالحمى القرمزية وهي في حاجة إلى بعض الاسعافات التي لا تتواجد في البيت.

فبهتت الجدة وقالت: إذن؟

قالت معاد: إذن فهي في حاجة لأن تنقل إلى المستشفى فهل توافقين؟؟

فذعرت الجدة ودقت على صدرها وهي تقول: إذن فهي مريضة جداً يا دكتورة؟ الويل لي ما أشقاني فقد قتلت ابنتي بيدي.

وعادت معاد تقول: هل تسمحين لنا بنقلها يا جدتي؟ قولي فان الأمر مستعجل.

قالت وهي تنتحب: وهل لي إلا الموافقة ما دامت ضرورية، وعند ذلك اتصل الطبيب بالمستشفى وطلب سيارة إسعاف وهكذا، تم نقل ورقاء إلى المستشفى ولم توافق معاد على استصحاب الجدة معهم وتعهدت لها أن تخبرها عن حالها أولاً بأول.

سهرت معاد وأخوها سناد الذي كان هو الطبيب الذي جاء بصحبتها، مع ورقاء حتى الصبح وقد أجربت لها فور وصولها كل الاسعافات المطلوبة.

وفي ساعة متقدمة من الصبح بدأ بعض الهدوء يظهر عليها وإن كانت لا تزال في غيبوبة ولكن هذيانها أخذ يكون جملاً مفهومة، وكانت معاد تقف إلى جوارها وسناد يجلس على الكرسي الذي في الجهة الثانية حين التقط سمعهما هذه الكلمات التي كانت ترددها ورقاء بين كلمات الهذيان، كانت تقول:

«محال أن يكون أبوهما مجرماً، لقد انكسر الصحن يا جدتي، ولكن معاد ليست ابنة قاتل، دعيه يذهب هذا المدعو ماهر، سخيف، أرجوك أن ترحميني يا جدتي، دعيه يأخذ البيت، أنا لا أريد ماهر، ماذا سوف أقول لها، كيف أرفض أخاها، ارحميني، لا تقولي أنها ابنة مجرم، إنها ملاك، لماذا

قتل أباه أبي، أنا لم أره إلا مرتين لا أكثر، كفاك كلاماً يا جدتي، لا أريد ماهر، لا أريد البيت، لا أريد، لا أريد، لماذا قتل أباه أبي، لماذا».

هنا التفت معاد نحو أخيها وقد شحب لونها وقالت: هل سمعت؟

قال سناد بهدوء: نعم، ومن هذا يبدو أنها معذورة في رفضها.

قالت معاد: لقد كنت أخمن شيئاً من هذا ولكن ما هو العلاج الآن؟

فابتسم سناد وقال: المهم الآن أن تعود إليها صحتها وبعد ذلك يمكن تسوية الأمر.

* * *

مر يومان كانت ورقاء خلالهما تصارع المرض حتى شاء الله تبارك وتعالى أن يساعدها على اجتياز الأزمة، وكانت معاد جالسة إلى جوارها عندما فتحت عينيها ونظرت حولها لأول مرة نظرة تفهم واستغراب، حتى استقر نظرها على معاد، ثم عادت فأغلقت عينيها وكأنها لم تصدق ما ترى أو حسبته حلماً من أحلام الحمى، فانحنت عليها معاد وقبلت جبينها بحنو وهي تقول: ورقاء كيف أنت يا أختاه؟

فعادت ورقاء تفتح عينيها وتنظر إلى معاد غير مصدقة،

ثم قالت بصوت واهن: هل أنت معاذ حقاً أم أنني في حلم؟

قالت معاد: كلا أنك لست في حلم يا ورقاء فأنا معاد، والحمد لله الذي منَّ علينا بسلامتك يا أختاه.

فأدارت ورقاء عينيها إلى الجهة الثانية تفتش عن جدتها ثم قالت: وأين جدتي إذن؟

قالت: أنها في البيت، فقد نبت عنها بمرافقتك وسوف أبعث من يأتي بها اليك ما دامت صحتك قد تحسنت والحمد لله.

قالت ورقاء: ولكن كيف وصلت إلى هنا؟ وكيف وصلت أنت الي؟

فضحكت معاد وقالت: أنت الآن تعبانة وعليك أن تخلدي للراحة وسوف أخبرك غداً بجميع التفاصيل، وها أنا ذاهبة للاتصال بجدتك.

قالت ورقاء: كلا لا تذهبي وتتركيني وحدي يا معاد فأنني خائفة.

قالت معاد: ولماذا الخوف يا ورقاء وأنت الآن بخير؟

قالت ورقاء: أنني لا أخاف من الحمى ولكنني أخاف من الناس.

قالت معاد: أنني سوف لن أتأخر عنك أكثر من دقائق إن شاء الله.

وهنا فتحت الباب ودخلت الجدة مندفعة نحو ورقاء فبادرتها معاد قائلة: أنها بخير يا جدتي وقد سألت عنك قبل لحظات.

فانحنت الجدة تقبل ورقاء وهي تسكب الدموع، فسألتها معاد: كيف أتيت وحدك يا جدة؟

فظهر الارتباك على الجدة ثم قالت: لقد مر علي الطبيب الذي كان معك وجاء بي إلى هنا.

فردت معاد تقول بشيء من الاعتزاز: إنه أخي سناد، فهل رأيت كم هو رائع يا جدة؟

فاستغربت ورقاء ما سمعت ولم تعلم كيف تفسر الموقف، ولكنها كانت في حالة لا تسمح لها بالمزيد من الكلام فأخذت يد جدتها بين يديها واستسلمت للنوم.

احتلت الجدة الكرسي الذي كانت تجلس عليه معاد، وعادت معاد إلى غرفتها ومهامها بعد أن اطمأنت على صحة ورقاء، وكانت الجدة المسكينة في حيرة من أمرها وتحديد موقفها من معاد، وقد حدثت ورقاء بتفاصيل الموقف وكيف أنها اضطرت إلى استدعائها وطلب معونتها بعد أن خذلها

ماهر، وحدثتها بأمانة أيضاً عن الجهود التي بذلت من قبل معاد وأخيها من أجل إنقاذها.

وقالت لها ورقاء بعد ذلك: أنظري يا جدتي إلى البون الشاسع الذي بين أخلاق ماهر ومعاد.

قالت الجدة: نعم، لقد كانت معاد وأخوها مثالاً للشهامة وتجاوز الذات أما ماهر فقد ظهر زيف دعواه ولكن...

ثم سكتت الجدة وفهمت ورقاء ما وراء هذا السكوت فسكتت هي بدورها أيضاً وأوكلت الأمور إلى الله الواحد القهار.

وفي صباح اليوم الثاني جاءت معاد وكانت ورقاء قد تحسنت صحتها وجلست على فراشها. ففرحت معاد بذلك وجلست إلى جوارها على حافة السرير وهي تنظر إليها في سعادة.

ثم قالت للجدة: إن لدي ساعة من الوقت أتمكن أن أجلس فيها إلى جوار ورقاء فإذا أردت أن ترتاحي خلال هذه الساعة فتفضلي يا جدتي، فرحبت الجدة بهذا العرض واستلقت على الأريكة وأدارت وجهها نحو الجدار.

أما ورقاء، فقد بدأت تشكر معاد على موقفها منها

فقالت لها: إن لك علي حق الحياتين الفكرية والجسمية يا معاد فكيف لي أن أفي حقك من الشكر يا أختاه.

قالت معاد: إن هذا واجب كل أخت تجاه أختها يا ورقاء وأنني جد شاكرة لجدتك اتصالها بنا وإلا لكنت ضحية من ضحايا هذه الحمى الحمراء القاسية.

وهنا قالت ورقاء بتردد: جدتي، نعم، إنها راضية منكما يا أختاه.

قالت معاد: أنك ما زلت تناديني بنداء الأخوة دون أن تعرفي عني كل شيء يا ورقاء.

فبهتت ورقاء لحظة ثم قالت: ماذا تعنين يا معاد؟

قالت معاد: أعني أنك ما زلت تجهلين قصة حياتي.

قالت ورقاء: وهل لحياتك قصة خاصة؟

قالت معاد بصوت لا يخلو من بعض الارتباك: نعم أنها قصة تبدأ منذ كنت أنا وأخي سناد في بطن أمنا.

فردت ورقاء باستغراب: كنت أنت وأخوك حملين في بطن أمكما؟ هل أنتما توأمان إذن؟

قالت معاد: نعم، ولم يتقدمني بالدراسة إلا لأنني مرضت في طفولتي وتركت المدرسة ثلاث سنوات.

قالت ورقاء: آه هكذا إذن؟

فقالت معاد: ألم تلاحظي الشبه الشديد الموجود بيننا يا ورقاء؟

قالت ورقاء بشيء من الخجل: الحقيقة أنني لم أركز النظر في وجهه يا معاد.

فابتسمت معاد وقالت: وهذا هو المأمول منك يا ورقاء.

قالت ورقاء: والآن. ما هي القصة؟

قالت معاد: أنها تتعلق بأبي! وهنا خفق قلب ورقاء وقالت: تتعلق بأبيك؟

قالت: نعم، فقد توفي قبل أن نرى النور بشهر واحد على أثر حادث اصطدام.

قالت ورقاء بتعجب: مات قبل ولادتكما؟

قالت معاد: نعم، ولهذا فقد ولدنا يتيمين!!

وهنا تململت الجدة وكأنها رفعت أذنها عن الوسادة لتسمع بشكل أوضح، وعادت ورقاء تقول في لهفة: أنتما ولدتما يتيمين؟

قالت معاد: نعم، هذا هو الواقع أما الظاهر فهو أننا لم نفقد أبانا إلا قبل سنتين.

قالت ورقاء: لست فاهمة ماذا تعنين يا أختاه؟

قالت: إذن إليك فاسمعي القصة من بدايتها لقد كان أبي «حمزة عبد الرزاق الرحباوي» رجلاً فقيراً لا يملك من دنياه شيئاً سوى حسن السيرة واعتدال السلوك وطيب السمعة، ومن أجل هذا اختارته أمي اليتيمة من الأبوين وقدمته على ابن عمتها الشاب المنحرف الغني، وقد كانت أمي إلى جانب جمالها تملك رصيداً محترماً من المال ورثته عن أبويها، وعاشت أمي مع أبي إلى مدة لا تتعدى السنتين، وكانت أمي قد بلغت من حملها الشهر الثامن عندما توفى أبي، وبقيت أمي تعاني آلامها وحيدة إلا من عمتها وابنها الذي سبق أن خطبها من قبل، وقد قدما لها العمة وابنها الكثير من العناية والرعاية حتى حانت ولادتها، واستمرت العمة تعنى بها العناية الكاملة إلى أن انقضت أيام العدة، فعرضت عليها العمة أن تتزوج أبنها لكي يكون لها ولو لديها والياً وكفيلاً وامتنعت أمي في البداية، ولكنها أصرا عليها وقدم هو لها مختلف العهود والمواثيق على أنه سوف يعتدل في سلوكه ويتفرغ لرعايتها ورعاية ولديها، ولن تجد منه سوى الحب والحنان، وبما أنها كانت في حاجة إلى من تستند إليه في تربية ولديها وتعتمد عليه في اعداد مستقبلهما فقد وافقت على الزواج مرغمة وبعد مضي فترة وجيزة علمت أنه قد استخرج شهادة ميلادنا باسمه. وبهذا فقد نسبنا إليه، فأغضب ذلك أمي وأسخطها وثارت عليه، ونقمت هذا منه، واعتبرته تعدياً على حقوقنا ومصالحنا، وكلما حاول إقناعها بأنه قد أنجز ذلك

لمصلحتنا لم تقتنع فأخذتنا وذهبت إلى بيت أبيها المهجور معرضة عنه ساخطة عليه، فبدأ يبعث إليها بالرسل ويجدد العهود الكاذبة، ويكتب إليها أرق الكلمات، حتى عادت مرغمة من جديد.

ونشأنا نحن لا نعرف لنا أباً سواه، وطالما عجبنا لقساوته علينا مع ما نشاهده من حنان الأبوة لدى الآخرين.

قالت ورقاء بألم: أو كان قاسياً عليكما يا معاد؟

قالت معاد: نعم وقد نكث بجميع العهود والمواثيق واستولى على أموال أمي فبددها في لهوه ومجونه حتى اعتلت أمي من جراء ذلك وبقيت عليلة حتى توفيت قبل سنوات.

ولما بلغنا سن الرشد حدثتنا أمنا بحديث أبينا وقدمت لنا برهاناً على صحة ما تقول.

وهنا بادرت ورقاء تسأل في لهفة: وما هو البرهان يا معاد؟

قالت: أنه الرسائل التي كان يكتبها إليها عندما هجرته وفيها يتحدث عن أن نسبتنا إليه من صالحنا وكان يذكر أبانا في رسائله بكل خير، ثم أنها أرشدتنا إلى أفراد كانوا على علم بنسبنا من قبل، وهكذا بقينا نعاني مشكلة انتسابنا إليه حاملين معه تبعات أوزاره حتى مات قبل سنتين، فوجدنا في صندوقه الخاص ورقة مختومة كتب فيها اعترافاً بعدم بنوتنا له

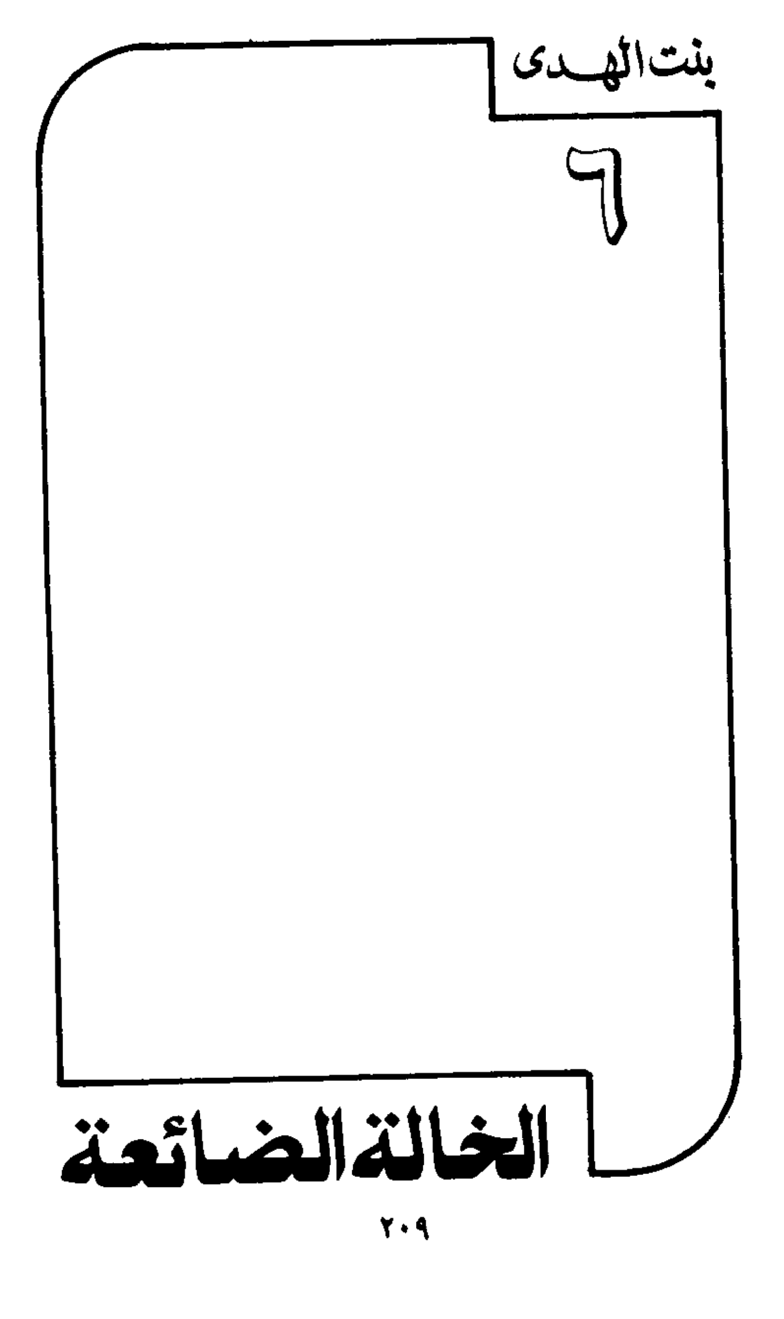
مع ذكر اسم أبينا وتقديم الأدلة على ذلك وكأنه خشي أن يورثنا شيئاً من ماله الحرام فبخل به، كما أننا وجدنا عنده كثيراً من الأوراق تعود للآخرين لم نتمكن أن نستوعبها، وقد فتحت أمامنا هذه الوصية طريق المطالبة بتصحيح نسبنا مع الرسائل التي لدينا من أمنا مع الشهود الذين سبق وأن ذكرتهم أمنا، وسوف تظهر النتيجة خلال هذه الأيام إن شاء الله.

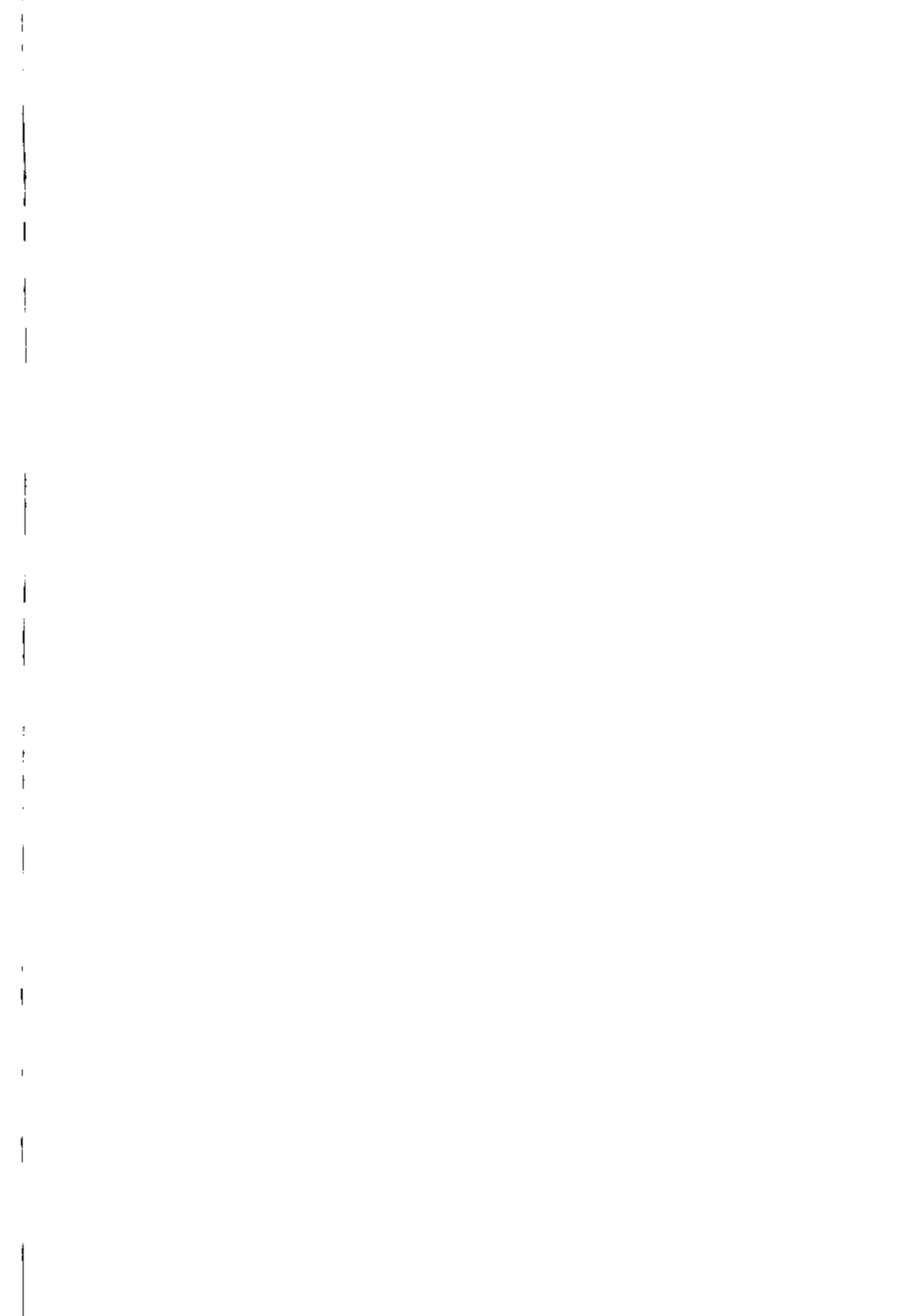
فهل عرفت الآن يا ورقاء من هو أبو سناد؟

فردت ورقاء تقول بصوت مبحوح من التأثر: آه نعم (الآن عرفت أباه) ثم ألقت برأسها على كتف معاد وهي تقول: والآن عدت إليك يا أختاه.

فاحتضنتها معاد وقد تندت عيناها بالدموع وهي تقول:

﴿ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾.


بنت الهدى
٦
الخالة الضائعة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

المرأة ـ الجزء الثاني من إنسان الأرض: لها وضعها الخاص، ونفسيتها الخاصة، وطريقتها، وذوقها.

وهي في كل ذلك تمثل الوجه الآخر للحياة. وواضح أن على الانسان أن يعرف «وجهي» الحقيقة حتى يستطيع أن يحكم بصدق، وينمي الحياة بشكل طبيعي، ويضمن الاستقرار والبقاء للجنس البشري.

ومن الخطأ أن ننظر إلى جانب واحد من المرأة كأن ننظر إلى هيكلها الذي قد لا يختلف كثيراً عن هيكل الرجل كما أن من الخطأ أن ننظر إلى جانب واحد من جوانب الرجل.

إن الحضارة المادية سقطت في قاع الفساد والفوضى عندما نظرت إلى جانب واحد من المرأة فوقعت بسبب هذه النظرة الضيقة في متاهة التناقض فهي في نفس الوقت الذي تحمل المرأة مسؤولية الأمومة، والرضاعة، وما إلى ذلك، في نفس الوقت حملتها مسؤوليات الرجال، فأصبح الرجل

يتملّص عن مسؤولياته، بينما تحملت المرأة ـ بالاضافة إلى مسؤولياتها الطبيعية ـ بعضاً من واجبات الرجل.

أما الاسلام فهو ينظر إلى «كل» المرأة ولذلك يضعها في مكانها الطبيعي، فلا يحيف بها، ولا يحملها أكثر من طاقتها.

ولكي نفهم شمولية النظرة الاسلامية إلى المرأة، فعلينا أن نطالع هذا الكتاب فهو أحسن كتاب يمكن أن يعالج موضوع المرأة، لأنه صادر من المرأة ذاتها.. فليس الكلام صادراً «بالنيابة» وإنما هو كلام الأصيل...

فمؤلفة الكتاب «بنت الهدى» صاحبة فكر ثاقب، وفهم موضوعي وقد استهوت جماهير النساء والفتيات بكتاباتها الشيقة.

نرجو من طبع هذا الكتاب الجديد لها أن نكون قد قدمنا خدمة ـ ولو بسيطة للمرأة في هذا العصر.

دار التعارف للمطبوعات

الخالة الضائعة

كانت خديجة جالسة تستمع إلى خالتها تتحدث مع أمُّها بصوت يتهدَّج من البكاء وهي تقول، وهكذا ترين كيف ذهبت أتعابي معهم هباء وكيف أنهم تجاهلوا الليالي التي سهرتها والآلام التي تحملتها والتضحيات التي قدمتها، أما والله لقد بعت آخر حلية لي في سبيل إرسال بشرى إلى الخارج من أجل إكمال دراستها بعد أن لم تقبل هنا في الجامعة وقد رهنت بيتي مرتين من أجل أن يصبح ولدي هشام دكتوراً ملء السمع والبصر أتذكرين كيف أنني بعت فرش بيتي في سبيل أن أحقق رغبة بشرى في شراء جهاز التلفزيون؟ ولكن الآن، هل تراهما يذكران شيئاً من ذلك؟ أبداً لقد أقصاني هشام عن بيته لأن زوجته تستقبل من الزائرات طبقة لا يروقها وجودي بينهن ولأنها تريد أن تكون حرة في بيتها تتصرف به كما تشاء دون أن يكون عليها رقيب. وظننت أن لي في بيت بشرى ملجأ ألوذ به أو ليست هي ابنتي الوحيدة التي كنت أدنو اليها بمزيد من الأمل

والرجاء؟ أو لست أنا التي فتحت لها أبواب الحياة وجعلتها تنطلق متحررة من كل قيد فهل تعلمين كيف كان مقامي عندها؟ لقد أخذت تعاملني كخادمة أنظف لها بيتها و أربي لها أطفالها بينما تنتقل هي مع زوجها بين المسارح ودور السينما والنوادي. وأمس تأخرت حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وكان طفلها يبكي بشكل مستمر وقد عجزت عن إسكاته بأي ثمن. وعندما عادت كنت غير مرتاحة ولأول مرة أظهرت لها تبرمي لهذا الوضع وبأن من الواجب عليها أن تعرف بأن مقامي في بيتها هو مقام أم ولست خادمة أو مربية أطفال فهل تعلمين ماذا كان جوابها؟ آه أن قلبي ليتمزق ألماً حينما أذكره لقد قالت لي وبكل صفاقة انك تتكلمين وتنسين أن بيتي هو الذي تكفل بإعالتك وإعاشتك ثم لا تنسي أيضاً بأنني كنت ولا أزال حرة وأنني غير مستعدة أن أقيد نفسي من أجلك أو من أجل طفلي. وهنا لم تتمكن الخالة من الاسترسال في حديثها وأخذت تجهش في بكاء مرٍ حزين. فنهضت خديجة وقدمت إلى خالتها كأساً من ماء بارد وحاولت هي وأمها أن تخففا عنها حتى سكن جأشها إلى حد ما وعند ذلك انبرت خديجة لتقول: إن مما يؤسف له أن تكون تضحياتك التي ذكرتها هي التي حدت به إلى هذا الموقف العصبي يا خالة. أنك كنت تسيرين في طريق خُيِّل لك أنه من صالح ولديك وصالحك معها وقد صور لك الوهم أن سعادة ابنتك منوطة بأن تكون حرة فعملت على ذلك وكانت

النتيجة أنها تحررت من كل شيء، حتى من حقوق الأمومة والبنوة، ساعدتها أن تتنكر لدينها فخلعت عنها الحجاب وجهلت أن ذلك يؤدي لأن تتنكر لك بالنتيجة، هيأت لها مجالات اللهو التي تشغلها عن أداء واجبها نحو ربها فشغلها ذلك حتى عنك وعن مراعاة مقامك الذي رفعك الله عز وجل إليه أنت حينها سمحت لها أن تنسى الآية المباركة التي تقول: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ والآية التي تقول: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ﴾ والآية التي تقول: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾. كان عليك أن تعرفي مسبقاً أن هذا السماح يستدعي نسيانها للآية التي تقول: ﴿فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلا تَنْهَرْهُمَا وقل لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مَنِ الرَّحْمَةِ وَقُلْ ربِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ إن النتائج يا خالتي كانت متوقعة وغير مستغربة أبداً فشتان بين من يسهر ليلة أمام أفلام الخلاعة والمجون وبين من يسهره يقرأ في كتاب يقول له، ومن نظر إلى والديه نظرة ماقت فقد عقّهما ـ ويقول أيضاً ـ الجنة تحت أقدام الأمهات أنك يا خالتي بعت آخر حلية من حليّك لترسلي بشرى إلى الخارج لكي تحوز على شهادة ولكن فاتك أن سفرتها تلك لم تكن لتهيّأ لها شهادة فقط ولكنها كانت كفيلة باجتثاث آخر غرسة صالحة مما لعلّها كانت تختفي بين ثنايا نفسها وتعيدها إليك صورة مجردة عن

الحس والعاطفة، وهنا أخذت الخالة نَفَساً عميقاً وكأنه حسرة وندم مرير وقالت: آه ما أصدقكِ فيها تقولين يا خديجة نعم أن الذنب ذنبي منذ البداية ولكنها غلطة تعرَّفت على نتائجها بعد فوات الأوان، كنت أصدِّق زوجي رحمه الله وأنا أسمعه يوصيني قائلاً: إياك أن تنشئي أولادي نشأة معقدة كنشأة خديجة ومحمد، كان يهوِّل لي نتائج ذلك بشكل جعلني أتمسك بفكرته حتى بعد موته ولكنني الآن أجد أنني كنت أسير خلف سراب فليس هناك من هو أسعد من أمك بك وبأخيك، قالت خديجة معقبة على كلام خالتها، وبزوجة أخي وزوجي أيضاً، قالت الخالة طبعاً لأن زوجك ابن خالتك يا خديجة، قالت خديجة لا ولكن لأننا أحسنا الإختيار ووفقنا إلى من يشدنا إلى أمنا أكثر فأكثر، قالت الخالة في نبرة ندم صادق ليتني كنت قد اخترت لبشرى زوجاً صالحاً يخفف من حدة طيشها الأهوج ولم أدعها تقع في حبائل هذا الزوج المقامر السكير، فابتسمت خديجة ابتسامة حزينة وتساءلت، إذن ما الذي غركما منه يا خالة؟ قالت أنه المال والثراء الذي كان يعيشه يا خديجة، أن سيادته هي التي أخذت كلمة الموافقة من خديجة والمهر الذي قدمه هو الذي جعلني أسكت على مضض وليس لشخصه أي دخل في الموضوع، قالت خديجة ما أحلى صراحتك هذه يا خالة ولكن من المؤسف أن تكون قد جاءت متأخرة وعلى كل حال فان الله تبارك وتعالى سوف

لن يدعك في حيرة وخاصة بعد أن تعرَّفت على مواطن الخطأ في سلوكك الماضي.

* * *

قضت الخالة أسبوعاً كاملاً في بيت أُختها جرت خلاله مع ابنها وابنتها بعض المفاوضات لم تكلَّل بالنجاح وكانت النتائج سلبية بشكل عميق جداً، ولهذا فقد عرضت عليها أُختها أن تبقى معها ولكن البيت كان صغيراً ولا يسع لوافد جديد وخصوصاً مع وجود ابنها وزوجته وأطفاله، ولهذا فقد امتنعت الخالة عن قبول هذا العرض وباتت ليلتها الأخيرة بعد أن علمت أن لا مقام لها في بيت ولديها، باتت تلك الليلة وهي من أمرها في هَمّ عظيم لا يعلمه إلا الله، وعند الصباح وبينما كانت تقرأ ما تحفظ من سور القرآن الكريم دخلت خديجة عليها الغرفة ومعها زوجها محسن وأقبلت الأم بعد ذلك أيضاً، وبعد تبادل التحية قالت خديجة: لقد جئنا أنا ومحسن في حاجة اليك يا خالة ونحن نرجو أن لا تردّينا خائبين. قالت الخالة: إن حاجتكما على العين والرأس يا عزيزيَّ ولكن أتراني أتمكن أن أُنجز لكما حاجة وأنا على ما عليه من ضيعة؟ قالت خديجة: ولكنَّك قادرة على تحقيق ما نطلب ثم أنك لست ضائعة ما دام الله معك يا خالة وما دمنا نحن نحيطك ونحرسك بقلوبنا وأرواحنا، والآن هل تعلمين ماذا نريد منك؟ أننا نطلب منك الإنتقال إلى بيتنا فنحن

وحدنا هناك وسوف يكون مقامك بيننا كأحسن أم وأعزّ خالة كما أوصى بذلك الرسول (ص) في قولـه لأحد المسلمين: (أَلَكَ أُمٌّ حَيَّةٌ؟ قال: لا. قال: أَفَلَكَ خَالَةٌ حَيَّةٌ؟ قال: نعم. قال: فابررها فأنها بمنزلة الأم)[1].

فأشرق وجه الخالة ولاح على جبينها بارق من سعادة ولكنها فكرت قليلاً ثم قالت: ولكن ذلك قد يثقل عليكما وقد يحد من حريتكما. وهنا تكلم محسن فقال: أرجوك أن لا تفكري بشيء من هذا يا خالة فأنا قد حرمت حنان الأم منذ الطفولة وافتقدت ذلك الصدر الحنون ولعل الله عز وجل أراد أن يعوضني عن ذلك بوجودك في بيتي وسوف نضع المشتمل الصغير الذي في الحديقة تحت اختيارك ولك حتى أن ترفضي استقبالنا فيه وقد فرشناه لك بشكل نرجو أن يرضيك يا خالتي وسوف تتمكنين أن تستضيفي إليك ابنك أو ابنتك متى شئت أيضاً. وهنا التفتت الخالة إلى أختها وكأنها تستشيرها في الأمر، فابتسمت أختها مشجعة وقالت: ما أراهما إلا مجدّين في كلامهما ورغبتهما وأن من أسباب راحتي أيضاً أن أطمئن على خديجة بقربك منها.

* * *

مضت الشهور والخالة تنعم في راحة لم يسبق لها أن

---

(١) باب ٥٨ من أبواب أحكام الأولاد (الوسائل).

مرَّت بها من قبل ولم تستشعر في لحظة أنها غريبة عن أهل الدار، وكانت خديجة تستدعيها عند استقبال زائراتها وتستصحبها معها في بعض الزيارات، الشيء الذي جعلها تكتسب بعض المعلومات الدينية التي زادت من نقمتها على انحراف ولديها وعقوقهما، وكانت تقارن بين سعادة خديجة الزوجية والتعاطف الروحي الموجود بينها وبين زوجها وبين القلق الذي تعيشه بشرى مع زوجها والمخاصمات العديدة التي كانت تنشأ بينهما نتيجة الشك والغيرة وحب الذات والرغبة في الاستقلال، وكانت تعترف بعد كل مقارنة أن هذا الخط الذي كانت تعدّه خطأ معقداً غير صالح للحياة، هذا الخط هو الذي يمتلك إمكانية الاستمرار ويتخلص من هفوات التعرج والتعقيد، ولم يكن يسعها إلا أن تدعو الله أن يبارك هذين الزوجين المؤمنين ويهدي أبناءها لما فيه الخير والصلاح... وفي صباح أحد الأيام وفي ساعة مبكرة جداً دقَّ جرس الباب بعنف فسارعت خديجة لتفتحه وإذا بها تجد بشرى وهي تحمل طفلها على ساعدها وقد أحاطت بعينيها هالة زرقاء وشاعت على وجهها مسحة من شحوب، فابتدرتها بالسلام ورحبت بها قائلة أهلاً وسهلاً تفضلي. فدخلت بشرى وهي تلتفت قائلة أين أمي؟ أين هي أمي؟ قالت خديجة: إنها في بيتها هنا تفضلي إليها. ثم قادتها إلى جناح خالتها، وهناك كانت الخالة جالسة على سريرها وأمامها على المنضدة كوب من الحليب، ففوجئت بقدوم ابنتها وتحركت في

نفسها عواطف الأمومة فخيِّل لها أن الشوق أو الندم هو الذي دفع ابنتها إلى الحضور، ونهضت نحوها في لهفة ومدَّت نحوها يدها تريد أن تضمها بها إلى صدرها لتطفىء في فؤادها هذا الأوار الملتهب من الحنين والحرمان، ولكن بشرى جلست على كرسي هناك دون أن ترمي بنفسها على صدر هذه الأم المسكينة وقالت وكأنها لم تفارق أمها إلا صباح الأمس: لقد طردني من بيته أخيراً وكأنني سلعة رخيصة يحاول أن يستبدل بها غيرها، فشاعت على وجه الأم صفرة قاتمة وقالت في لهفة: طردك من بيته ولكن كيف ومتى؟ قالت: أنك تعلمين كم هو سافل ماجن يا أماه، وقد أصبح في الأشهر الأخيرة قلما يعود إلى البيت قبل الساعات الأخيرة من الليل، وما عاد في ليلة إلا ورائحة الخمرة تفوح من ثيابه فيرتمي على الفراش وهو كأنقاض رجل، وأنا ومع كل هذا صابرة وكلما حاولت أن أشير إلى الموضوع كان يبادرني قائلاً: ألم نتفق مسبقاً أننا ينبغي أن نكون أحراراً وأن لا نعيش القيود التي تفرضها الأفكار الرجعية على طبيعة العلاقة الزوجية؟ ولم يكن يسعني أمام هذا الكلام إلا أن أسكت وأحاول إقناع نفسي وتعويضها عن هذا الحرمان بما لديَّ من حرية مماثلة لحريته، ولكن الأمر تفاقم أكثر وأصبح يبتز أموالي وراتبي ويحرمني حق التصرف في شؤون بيتي وأخيراً طردني أمس وفي ساعة متأخرة من الليل وقال أنه لم يعد يطيق قيود الزوجية. وقد جلست في حديقة البيت حتى أشرق الصباح وها أنا جئت

إليك كما ترين فليس لديَّ من يضمني إليه سواك لأن هشام ليس ممن يفتح لي بيته كما تعلمين.

كانت الأم تستمع وشحوب وجهها يتضاعف. ولم يفت خديجة أن تلاحظ ما ران على وجه خالتها من شحوب يحكي عن الألم الذي تعانيه، وكانت بشرى تنتظر من أمها الجواب، ولكن الأم لم تكن تريد أن تجيب، فماذا عساها أن تقول؟ ألا يكفي هذا البيت الصالح أن احتواها هي لتضيف إليه وافدة جديدة غريبة عنه في كل شيء، ولهذا فقد آثرت السكوت مع جميع ما كان يمزق قلبها من ألم، وعرفت خديجة طبيعة الموقف ورأت أن عليها أن تتدخل لتنقذ هذه الخالة من موقفها المحرج الحزين، فقالت: حسناً صنعت بقدومك إلى أمك يا بشرى، أنها هنا في شقتها هذه وحيدة وسوف يسعدها أن تكوني معها حتى يختار الله لك ما فيه الصلاح. وكأن هذه الكلمات بعثت في نفس بشرى بعض مشاعر الانسانية فأجابت في خجل وارتباك: لشد ما أنا شاكرة لك موقفك من أمي يا خديجة وها أنت تضيفين إلى أياديك يداً جديدة. فابتسمت خديجة وقالت: دعيك من هذه المجاملات يا بشرى واعلمي أن هذا البيت هو بيت خالتي ولهذا أرجو أن تكوني فيه مرتاحة راحة كاملة. وهنا نهضت الخالة واحتضنت خديجة وطبعت على جبينها قبلة حب وشكر وامتنان وقالت: ما أروعك يا خديجة وما أروع إيمانك الذي أبرزك على هذه الصورة المثالية. واغتنمت خديجة قرب خالتها منها فهمست

في أذنها قائلة: ولكن أرجو أن تطلبي منها الإلتزام بالحجاب ما دامت في بيتنا. قالت الخالة: نعم نعم لقد كنت عازمة أن أقول لها ذلك ثم اتجهت إلى ابنتها فجلست إلى جوارها وهي تقول: هل تعلمين يا بشرى بأنني شعرت خلال هذه الأشهر الأخيرة براحة لم أستشعرها في حياتي من قبل وأنني وجدت في قلبَيْ خديجة ومحسن من الرحمة والحنان ما عوَّضني عما افتقدته في قلبيكما أنت وهشام، فما الذي جعلكما وأنتما إبناي تتنكران لي على هذا الشكل وجعل أولاد أختي يحتضناني بكل رحابة صدر؟ ليتك عرفت السبب والشيء الذي ميزهما عنكما كل هذا التمييز. قالت الخالة هذا ثم سكتت وكأنها تنتظر من ابنتها الجواب، فأطرقت بشرى وقد عرفت الجواب ولكنها كانت تصارع نفسها في إبدائه وإخفائه، وأخيراً رأت أن الواقع يدعوها لأن تعترف حتى ولو كان الاعتراف مراً فرفعت رأسها لتقول: انه الايمان يا أماه وهو الذي ارتفع بهما إلى هذه القمة، وتركنا إياه هو الذي هوى بنا إلى هذا الحضيض، نعم أنه الايمان فما أشقانا بابتعادنا عنه. قالت الأم : الحمد لله الذي جعلك تعترفين بذلك ولهذا فأن عليك في المرحلة الأولى أن لا تشذّي في مظهرك الخارجي عن تعاليم الايمان المتمثل في هذا البيت. قالت بشرى في استغراب: ما الذي تعنيه يا أماه؟ قالت: أن تلتزمي بالحجاب وتحاولي تكييف نفسك مع تعاليم الدين ما دمت هنا على الأقل. فأطرقت بشرى نحو الأرض وكأنها تعاني صراعاً

مريراً بين ما يدعوها إليه العقل وما تستفزها بـه النزوات والرغبات، واغتنمت خديجة فترة سكوتها هذه وقالت: ولكن من المظنون يا خالتي أن بشرى قد تعرفت على مسـاوىء الابتعاد عن الدين بما فيه الكفاية ومن المأمول أيضاً أن تكون قد تحسست بالحاجة إلى تعاليم الاسلام بعد أن شاهدت عن قرب وعن بعد فشل التعاليم الوضعية الأخرى. وهنا رفعت بشرى رأسها ورنت نحو خديجة بنظرة اعتراف واستسلام ثم قالت: نعم أن الحق هو ما تقولين يا خدجة فقد سئمت حياة التكلف والمحاباة والركض وراء كل شارق وغارب وقد تعبت من حياة القلق والتفكك فما أحوجني إلى من يحتضنني ويهبني فكرة صالحة تبعث في روحي الأمان وتذيقني طعم الحريـة الحقيقية من غير استعباد لأذواق الناس ورغباتهم ولكن ما الذي سيقوله الناس عني يا ترى؟ قالت خديجة: لقد حاولت في المدة السابقة أن ترضي الناس عنك فاستعبدت كما ذكرتِ أنت لأذواقهم ورغباتهم، فما هو الذي حصلتِ عليـه من نتائج صالحة لذلك يا ترى؟ يكفيك ما تجرعت من ويلات وآلام حطمت زهرة شبـابك وأذوت رواء كيـانك وهـو في ريعانه، ها هو إيمانك يدعوك لتعودي إليه وتعيشي مفاهيمه التي من حقها أن تتكفل بإسعادك في الدارين. قالت بشرى في نغمة ألم حزينة: أوَ يقبلني الايمان بعد كل ما صدر عني من أخطاء؟ فأردفت خديجة تقول: نعم فإن إيماننا لجد حدب بناء ورؤوف وقد جاء في الحديث: (أن الله ليحب الشاب

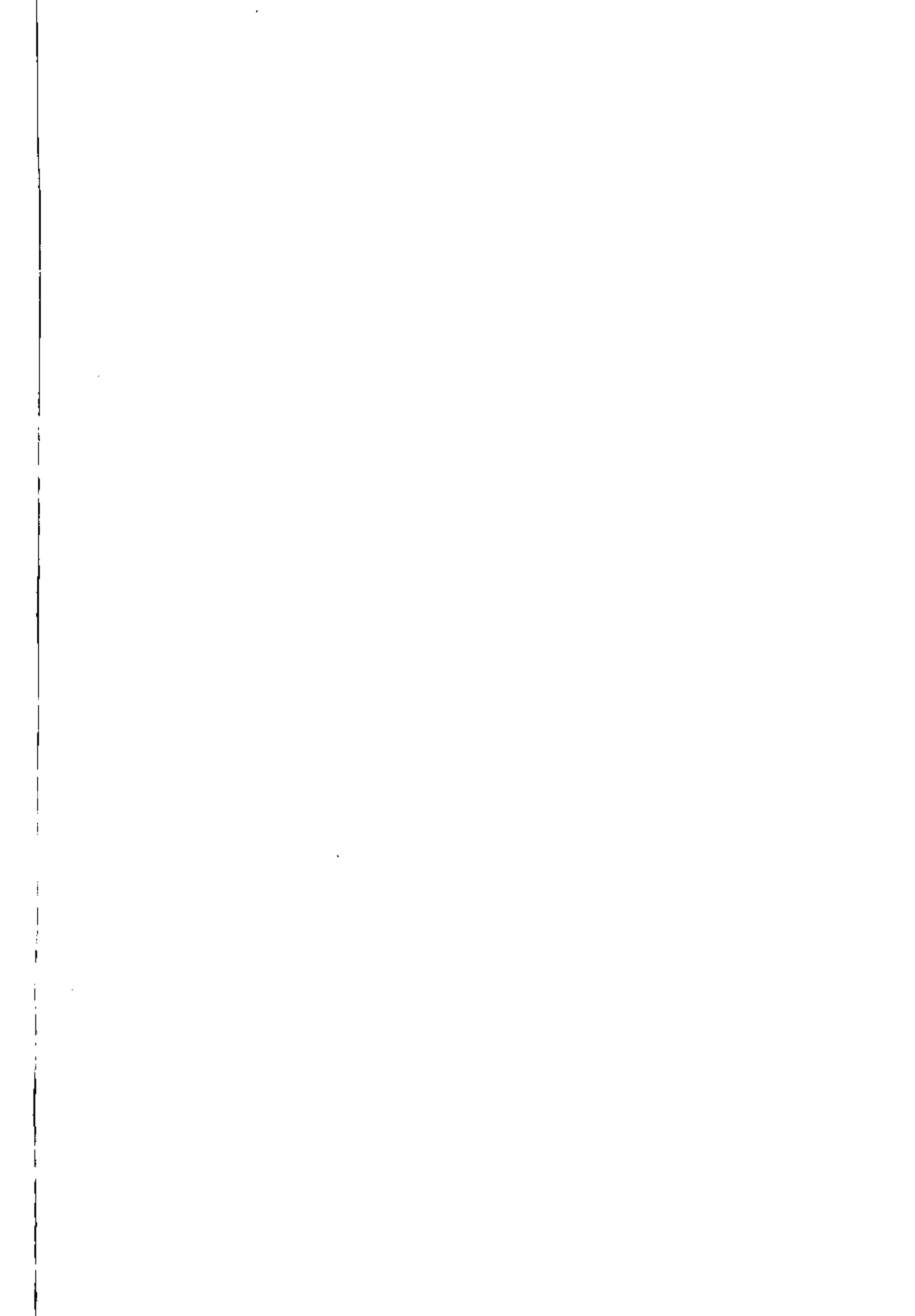
التائب ويكره الشيخ المقيم على المعاصي) أفلا يسعدك أن تكوني ممن يحبهم الله عز وجل يا بشرى؟.

* * *

مرت العديد من الأسابيع وبشرى لا تزال مع أمها وهي تقترب خطوة بعد خطوة من الإيمان، فقد سحرتها شخصية خديجة فانجذبت إلى مفاهيمها بلهفة الظمآن المتعطش إلى الري، وقد قدمت لها خديجة العديد من الكتب لتقرأها وكانت تطلب منها المناقشة بعد إكمال كل كتاب بشكل جعل عدة مفاهيم تتركز في ذهن بشرى بشكل ثابت، وبدأت بوادر التغير الفكري تلوح واضحة على تصرفاتها وميولها ورغباتها مما كان يشيع في نفس خديجة الكثير من شعور الرضاء.

وبعد أن تم انفصال بشرى عن زوجها بشكل نهائي وعن طريق الطلاق استقلت مع أمها وابنها الصغير الذي احتفظت به قبال جميع ما تنازلت عنه من حقوق في بيت صغير مريح، ومع أنها كانت قد خسرت من المادة الشيء الكثير ولكنها أصبحت تعيش حياة ناعمة راضية بعد أن أخذت تقترب من واحة الايمان أكثر فأكثر.

نكران الجميل



الانتظار حالة غير مريحة ومزعجة إلى حد ما، ما دامت في البداية، أما إذا حدث ما أطالها أكثر فان من حقها أن تبعث في نفس الانسان بعض الشعور باليأس، واليأس ما هو تأثيره بالنسبة للانسان؟ أنه ملقط حساس يفتش بين جنبات الروح عن بذور الراحة ليقتلعها ويستقصي ما تعمر به النفس من آثار السعادة فيجتثّها.

كانت وداد تعيش حالة الانتظار هذه بالنسبة لصديقتها هدى، فهي قد وعدتها بزيارة قالت عنها أنها تودّ لو تكون خاصة فحددت لها ساعة بعد الغروب، ولكن أين هي يا ترى والساعة تكاد تشير إلى التاسعة مساء؟

كانت بعض مشاعر القلق تتسرب نحوها بين حين وحين فتتكفل تلك المشاعر باقصاء أحاسيس العتب التي بدأت تراود نفسها لطويل الانتظار فتعود لتقول لعلها معذورة أو لعلها مجبورة، فما سبق أن أبطأت عنها من قبل. وحاولت أن تقطع فترة الانتظار في مطالعة كتاب ولكن أفكارها كانت تحوم بعيداً

عما تقرأ. هناك حول هدى والسبب الذي دعاها إلى التخلف عن الحضور، وحدَّثت نفسها قائلة: ليتني كنت أتمكن أن أتصل بها ولو عن طريق التلفون ولكن...

وعند حوالي الساعة التاسعة والنصف دق جرس الهاتف فهرعت نحوه في لهفة وكأنها عرفت أنه يحمل إليها أخباراً عن هدى، وفعلاً فقد عرفت منه أن هدى في خير وما كان تأخرها إلا لأمر قالت عنه أنه ضروري! وقد أجلت الزيارة إلى صباح غد.

وفي صباح اليوم الثاني لم تطل مع وداد فترة الانتظار فقد وافتها هدى في بداية الساعات الأولى من النهار فإستقبلتها بحفاوة وحرارة، ولكن لم يفتها أن تلاحظ آثار الشحوب التي رسمت معالمها على ذلك الوجه الذي طالما تميز باشراقته من قبل. وعندما جلستا تتحدثان افتقدت وداد من صاحبتها تلك النغمة التفاؤ لية التي كانت تميِّز صوتها وتساعده على كسب استماع الآخرين.

كان صوتها حزيناً وكلماتها افتقدت آثار الحرارة وانطبعت بطابع البرودة، وكانت تحاول أن تعطي للسكوت زمناً أكثر مما تعطيه للكلام، فشعرت وداد بلذعة الأسى وهي تجد صديقتهاعلى هذا الصمت الهادىء الحزين، وهدى لم تكن بالنسبة إليها صديقة فقط، فلطالما كانت لها مناراً في ليل داج ومشعلاً من نور في ظلام رهيب، ولطالما هدهدت روحها

بمفاهيم وسقت جذب أفكارها بالحكمة والموعظة الحسنة ولهذا فهي بالنسبة إليها تعني الشيء الكثير. وهنا شعرت وداد أن عليها محاولة جر هدى إلى التحدث عما تعانيه، فقالت وقد جهدت أن تبدو لهجتها طبيعية: والآن ألا تحدثيني عما أخرَّك عني مساء أمس يا أختاه ثم أنك كنت قد أعطيت لذلك موعداً ولم يكن من عادتك خلف الوعد؛ فصدرت عن هدى شبه آهة ثم قالت: لقد أصبحت غير قادرة على إنجاز الوعد في بعض الأحيان. وشعرت وداد أنها تتمكن أن تنفذ من هذه الثغرة إلى معرفة ما تعيشه هدى من آلام نفسية فتابعت تقول: ولكن هذه حالة غير خاصة بك يا هدى فقد يضطر الانسان إلى خلف الوعد في بعض الحالات ولأجل بعض الضرور ات. قالت هدى: ولكن تتابع الضرورات في حياة الانسان تجعله.. قالت هذا ثم سكتت وأطرقت وكأنها لم تعرف كيف تكمل جملتها. ولاحظت وداد أن هناك قطرة من دمع سقطت على يد هدى التي كانت مستقرة في حجرها، فهالها الأمر! فلم تكن هدى تملك ذلك المدمع المعطاء الذي يذرف قطراته لكل مناسبة ولم تكن دموعها لتعتصر إلا لأمر عظيم، فاندفعت تقول في شبه حشرجة: آه أتبكين يا أختاه وما عهدتك باكية قبل اليوم؟ ما أثمن هذه الدمعة التي ذرفتها عيناك فلماذا لا تحتفظي بها لتذرف في سبيل الله؟ فانتفضت هدى وكأن هذه الجملة الأخيرة قد أصابت لديها وتراً حساساً ورفعت رأسها وهي تقول: أوَ تظنين أن ألمي ودموعي ليست

من أجل الله يا وداد؟ أنها من أجلِ الله وفي سبيل الله ولهذا فأنني جد حزينة في أيامي هذه يا أختاه. قالت وداد: ولماذا الحزن يا هدى ما دمتِ واثقة من سيرك في طريق الحق؟ ألا تتكفل هذه الثقة بأن تهبك السعادة والرضا؟ أليسَ أن في شعور الانسان وهو يحث الخطا نحو لقاء نبيه (ص) أبيض الوجه قد حفظ بعده الأمانة وأدى ما عليه من حقوق تجاه دينه ما يبعث في نفسه الغبطة ويملي عليه الفرحة؟ هذا الانسان الذي يكاد يسمع صوت نبيه يقول: (أنني اليهم لمشتاق). كم سيكون هانئاً سعيداً لو سار في طريق يبل به شوق نبيه إليه؟ قالت هدى: ولكن هذا هو ما يحزنني يا وداد فلقد أصبحت أخشى أن أقف في منتصف الطريق فلا أتمكن أن أمثل بين يدي الرسول (ص) ومعي صحيفة عمل قشيع على صفحة وجهه الكريم إشراقة نور ورضاء. قالت وداد: أوَ يكون ذلك بتقصير منك يا هدى؟ فهزّت هدى رأسها في تأكيد وقالت: لا، أبداً، أنني لا أتعمد التقصير في سبيل ديني ولا أتسببِ في إهمال جانب من جوانب العمل لأجله ما وسعني ذلك ولكن قد أكون مجبورة. قالت وداد بلهجة من يعرف الجواب مسبقاً: وهل تجبرين على معصيته؟ فابتسمت هدى ابتسامة حزينة وقالت: لا، فلو تضامنت الدنيا ومن فيها لأجل أن تفرض عليَّ معصيته لما نجحت. فأجابت وداد ابتسامة هدى بابتسامة مثلها وقالت: إذن؟ قالت: ولكن تمرُّ بي مواقف أفتقد خلالها إمكانية التوسع في الطاعة وأضطر إلى

بعض الجمود عن السمو نحو الكمال، فأنا يا أُختاه أصبحت أحس بشعـور لم أكن لأستشعره من قبـل ألا وهو شعـور اليأس! وهنا تساءلت وداد في لهفة: يأس؟ ولماذا اليأس يا هدى ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون فكفكفت هدى دمعة جديدة قبل أن تسقط وقالت ليس يأسي من روح الله يا وداد ولكنه في نفسي فأنا عندما أُصادف ممن حولي بوادر جفاء أو ألمس منهم بعض علامات النكران للجميل أوعز ذلك إلى قصور في شخصي أو ضآلة في طبيعة عطائي وأسلوب تعايشي وتعاملي على صعيد الايمان. فأشعر بالأسى يمزق صدري وأقف موقف الحيرة فـلا أعود أعـرف كيف أتصرف. فلا أنا أعرف مواطن تقصيري فأصلحها وأعتذر ولا أنا أتمكن أن أبريء نفسي واحمـل الآخرين المسؤوليـة فانصح وأوجه، كانت وداد تستمع في اهتمام بالغ ولما سكتت هدى بادرتها بالسؤال قائلة: والآن هل حدث شيء جديد؟ قالت: حدث أو لم يحدث المهم أن هذه الحالات عندمـا أخذت تلوح على مسرح حياتي بشكل متعاقب أصبحت تهدد روحياتي بالخطر، قالت وداد: ولكن هناك في حياة المؤمن بعض الخطوط العريضة التي ترسم له طريقه في نوعية العطاء دينياً وأخلاقياً واجتماعياً فما دمتِ يا أختاه واثقة من أنك لم تنحرفي عن هذه الخطوط فلا يجدر بك أن تتركي لليأس إليك سبيلاً. راجعي نفسك وحاسبيها وفتشي بين ثنايـاها عن مواطن الضعف والخطأ فأن وجدت منها شيئاً فحاولي أن

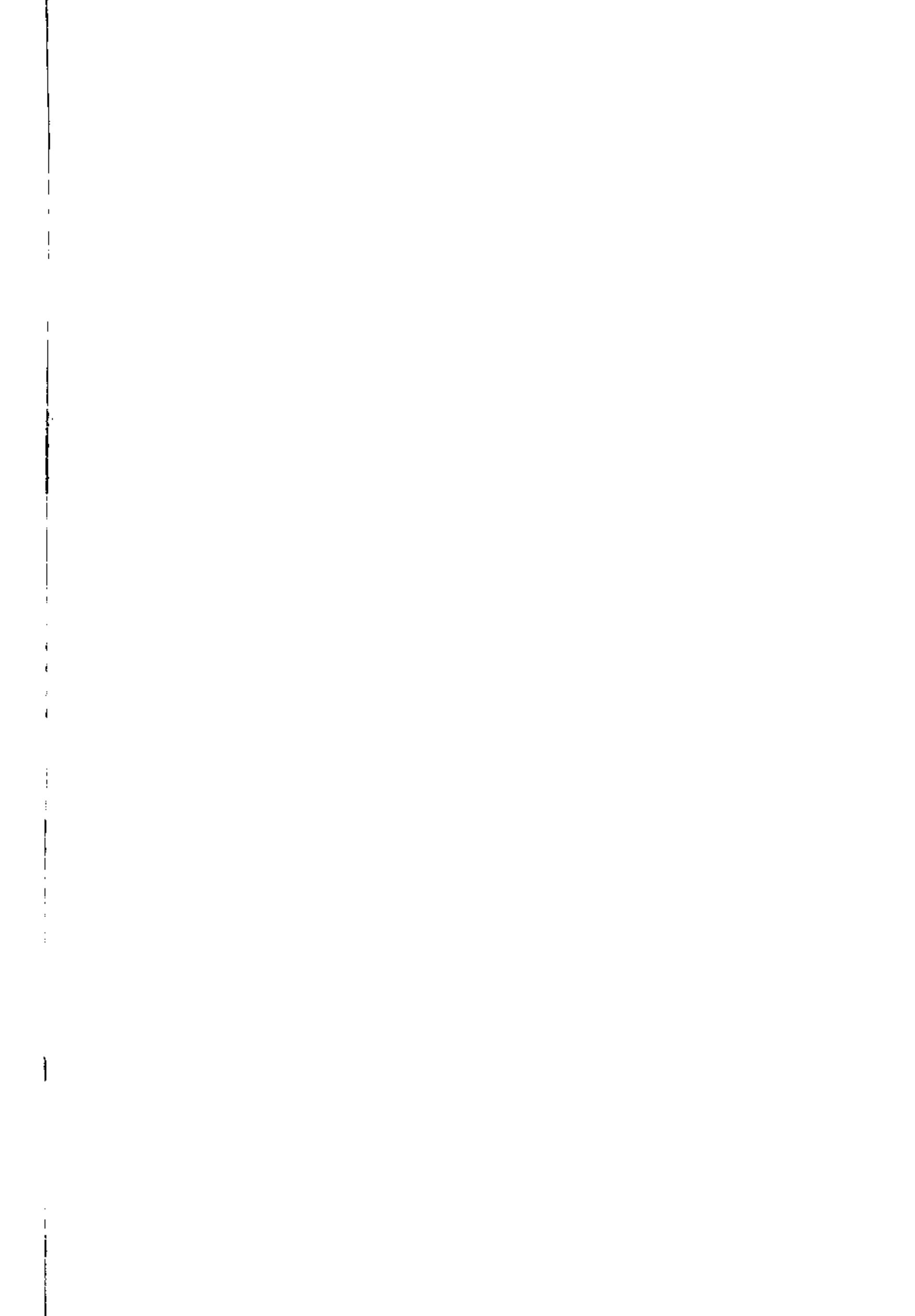
تجري لها عملية تنظيف ومسح كامل ولكن بدون يأس فان الانسان المؤمن يسعى خلال حياته وراء هدف خير. وهذا الهدف لا يتحقق إلا بعد تربية النفس تربية صالحة ولعل هذه الحملة الاصلاحية سوف تضاعف من نضوج عطائك وبلورته أكثر وأكثر لأنه سوف يأتي نتيجة تجارب عديـدة وممارسـة طويلة فتحقق نتائجه بشكل أكثر سهولة وأقل مؤونة وأوسع نجاحاً. قالت هدى ولكنني فتشت بين ثنايا نفسي فلم أجد مـا يؤخذ عليهـا ومع ذلـك فقد عـدت لأقول أن نفسي لتخادعني بذلك وهل يتمكن الانسـان أن يكتشـف عيوبـه بنفسه ولهذا ترين أنني لجأت إليك تطبيقاً لقاعدة أن المؤمن مرآة أخيه المؤمن لتكشفي لي عما لعله يعشعش في روحي من أخطاء. قالت وداد: أنت يا هدى وكما عرفتك دائماً لست ممن تسمح للأخطاء أن تجد إليها سبيلاً ثم أنني ومـع متابعتي لحركاتك في المجتمع لم ألاحظ عليك أي نقطة قد تدفعك إلى اليأس. أنك تستمتعين بروحيات مثالية و... وهنا قطعت هدى كلمات وداد قائلة أرجوك يا وداد أنا لم أقدم إليك لأستمع منك إلى كلمات المديح والإطراء. لا يا عزيزتي أنني أريد النصيحة فقط، فابتسمت وداد لهذه المقاطعة وقالت: أنني شخصياً لم أجد في سلوكك ما يؤخذ عليه وأنت أيضاً وكما قلت قبل قليل لم تجدي مـا يمكن أن يدينـك. إذن فنصيحتي إليك أن تسيري في دروب الهدى تغرسي في كل تربة بذرة وتزرعي في كل روض زهرة وتنيـري على كـل

منعطف شمعة وإذا كان هناك من يشك في سلامة البذرة أو لا يستسيغ منظر الزهرة فان ما ينبت عن البذرة وما يفوح من أريج الزهرة لكفيلان بجذبه إليهما من جديد بعد أن يثبتا وجودهما بشكل لا يقبل الجدل وهذا في الواقع هو الجانب المهم في حياة الانسان المؤمن إذ أنه بطبيعة وجوده عطاء، والعطاء إذا كان خيراً فهو لا يهدف إلا إلى تحقيق غاية تقربه من رضاء الله ورضوانه، فما دام يضع هذه الغاية كهدف له في الحياة لا يعود هناك أمر من الأمور يحول بينه وبين الانطلاق حتماً ولو لم يجد إنساناً واحداً يستجيب إليه. ثم أنني لا أكاد اعترف بشيء اسمه (نكران الجميل) ما دام الجميل من أجل الله وفي سبيل الله والله تبارك وتعالى لا تضيع عنده الأعمال ولا تشتبه عليه الأقوال وهو يجزي على الحسنة بعشر أمثالها. وهذا الشعور، شعور الانسان أن أعماله لا تطلب التثمين إلا من الله عز وجل وحده، هذا الشعور هو الذي يعلمه أن لا يزهد في فعل الخير مهما كانت ردود الفعل التي يجابهها ما دام واثقاً من تحقق الغاية الحقيقية وهي رضاء الله عز وجل: كانت وداد تتكلم وهدى تستمع في هدوء ثم سكتت وداد فترة لتجد آثار كلماتها على هدى فلاحظت علامات التفهم والرضا تلوح واضحة على محياها فشجعها ذلك لكي تسترسل في حديثها فقالت: لا تدعي هذه النظرة القاتمة تلون حياتك وأيامك وأنت ملء الوجود والحياة والمجتمع، أنت هدى بكمالها وإيمانها وجهادها وصبرها

وعملها فلا تزهدي في نفسك يا أختاه، أنت محط آمال ومنتجع أحلام فعيشي هذا مع نفسك أيضاً، أنت يا أختاه شعلة إيمان وانطلاقة عمل وميدان جهاد فلا تجعلي النور ينحسر والعمل يتضاءل والجهاد يلقي السلاح، أبعدي المنظار القاتم عن عينيك فأنهما خلقتا للتأمل والنظر البعيد والتطلع المشرق. كوني مرتاحة ما دمت واثقة من نفسك ولكن لا تهملي محاسبتها بين حين وحين لكي يمكنك ذلك من التحكم بزمامها والتعرف على واقعها الذي تعيشه، وهنا سكتت وداد تنتظر الجواب، وبعد فترة صمت قصيرة انبعث صوت هدى يقول في نبرة رصينة: ما أراك إلا وقد كشفت أمامي واقعاً كانت السحب السوداء تكاد أن تحجبه عني أو تحجبني عنه! وهو أننا بوجودنا وأعمالنا وتصرفاتنا نتجه إلى نقطة واحدة هي رضاء الله، فما دمنا لا نجد في أنفسنا ما يشير إلى انحرافنا عن تلك النقطة وذلك الهدف فان علينا أن نمضي في سيرنا دون أن يعيقنا تصاعد غبار أو تناثر أشواك ولسان حالنا يردد قائلاً:

كل عذاب فيك مستعذب
ما لم يكن سخطك والنار

زيارة عروس



جلست غفران بعد أداء فريضة الصلاة تتلو آياتٍ من القرآن الكريم وكانت تستشعر لعطاء ما تقرأ لذة دونها الشهد وتتجسس لمعاني ما تفهم نشوة روحية ترتفع بأفكارها نحو أجواء القدس وتحلق بآمالها وأمانيها في سماء الحق، فهي تأخذ من كل آية درساً وتستقي من كل كلمة عبرة تفتح أمامها منافذ من نور لا تعود تبصر الحياة التي حولها إلا من خلالها، ثم مرت في سياق تلاوتها بالآية المباركة التي تقول: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ وما أن انتهت من القراءة حتى شعرت أن هذه الآية لا تزال تتردد في فكرها وتملي على قلبها مرة بعد مرة، فتفتح أمامها عالماً من ذكريات وصفحات من تاريخ لعب دور البطولة فيه أفراد بلغ بعضهم الشأو وتراجع البعض في وسط الطريق، وهنا صدرت عنها آهة تشكو مرارة الذكرى. فإن مما يؤلمها جداً بوادر الخيبة التي تجدها تقطع على بعض المنطلقين خط السير نحو الكمال. وتصاعدت

سحابة قاتمة تحاول أن ترين على روحها لمرارة الذكريات. ولكن كانت هناك مصادر نور تنطلق من تجارب صالحة بدأت الشوط فأتمته بنجاح، وهنا برزت أمامها صورة صديقتها سعاد. فشعرت نحوها بشوق صادق فهي قد ذهبت منذ أيام مع عريسها ليستهلا حياتها الجديدة في زيارة لبعض المشاهد المقدسة وكانت هذه الذكرى كفيلة ببعث ملامح نور زاهية في نفس غفران، وعادت بها الذكرى إلى صديقتها سعاد فتذكرتها في ترقبها وهي فتاة واستعرضت الخطوط التي رسمت أبعاد اختيارها لشريك الحياة. ثم تطلعاتها الخيرة وهي تقف على أبواب الحياة الزوجية وترفعها عن الزخارف التي شوهت مفهوم هذه المرحلة المقدسة التي وجدت لتكون لبنة صالحة في بناء عش مؤمن سعيد تدعمه شركة روحية بين زوجين ويترعرع في جنباته جيل خير من الأبناء، ولم يسعها إلا أن تتوجه إلى الله العلي القدير أن يحرس صديقتها المؤمنة ويحقق لها آمالها الخيرة التي بنتها على هذه الزيجة المنتقاة، ولم تكد غفران أن تصل في أفكارها عند هذا الحد حتى سمعت رنين جرس الباب فسارعت إليه لتجد إحدى صِديقاتها وقد جاءت لتخبرها بعودة سعاد، فغمرتها الفرحة وقالت في لهفة بالغة إذن أنت ذاهبة إليها الآن انتظريني لأصحبك إليها يا أختاه، قالت هذا ثم توجهت لتأتي بعباءتها ولكن صديقتها أجابت في تردد: ولكن لا. ليس الآن يا غفران، فاستدارت غفران نحوها في استغراب وقالت ليس الآن ولماذا؟ قالت يبدو أن

هناك بعض الموانع، قالت موانع!! أرجو أن تكون خيراً؟ فابتسمت صاحبتها ثم أردفت بعد فترة سكوت: لقد قيل أنها لا تزال جديدة عهد في بيتها ولهذا فهي لم تعد العدة لاستقبال الضيوف بعد!! فأطرقت غفران في ألم ثم رفعت رأسها وهي تقول: ولكن لا أظن أن سعاد تقول هذا فهل أنت واثقة مما تتحدثين؛ قالت أنني واثقة مما نقل إليّ ولكنني مثلك لا أكاد أُصدِّق أن هذه هي فكرة سعاد أو ليست سعاد هي التي رسمت في خطوط زواجها صوراً من المثالية ترتفع بها عن الاهتمام بأمثال هذه الشكليات، فأردفت غفران تقول في حيرة وألم: نعم أنني لا أكاد أصدق ولهذا دعينا نذهب يا هناء فلعل في الأمر بعض الالتباس، قالت صاحبتها ولكن ألا يخطر لك أن هذا العذر يخفي وراءه أعذاراً جديدة أخرى، وعلى فرض وجود ذلك فسوف يكون ذهابنا غير مرغوب فيه، فسكتت غفران برهة ثم قالت: نعم لعله كذلك فان سعاد ليست ممن تمتنع عن استقبال زائراتها لقلة في أثاث أو بساطة في بيت ورياش أنها تهتم بالجوهر ولم يسبق لها أن اهتمت بالعرض يوماً ما.

* * *

قضت غفران ساعات عصرها ذاك وهي في ألم حزين تضرب للأمر أخماساً بأسداس. ولاحت لها فكرة قاتمة تقول لعل سعاد هي أيضاً ممن لم تتمكن من مسايرة التجربة الخيرة

حتى النجاح، ولكنها عادت لتهتف لنفسها قائلة: لا. أن لدى سعاد من الكفاءة ما يمكنها أن تكون وسيلة إيضاح كاملة ولهذا فهي لن تضعف أو تتراجع أمام شيء، وما كادت الساعة التاسعة تعلن عن انقضائها حتى دق جرس الباب من جديد فاندفعت نحوه غفران على أمل أن تجد خبراً جديداً عن سعاد وما أن فتحت الباب حتى كانت بانتظارها أروع مفاجأة إذ طالعتها من ورائه صورة سعاد.. كادت غفران أن تغالط بصرها لحظة ولكن يد سعاد التي امتدت نحوها لتصافحها بحرارة أثبتت لها الواقع المحسوس فغمرتها الفرحة وطبعت على جبين صديقتها قبلة إيمان صادقة وأسعدها أن تجد أسارير سعاد وهي تنطق عن الراحة والسعادة ثم أخذت بيدها وهي تردد: مبروك يا عزيزتي وألف مبروك. ما أكثر ما أوحشتينا بغيابك يا أختاه. قالت هذا ثم حاولت أن تدعوها إلى داخل الدار فأجابت سعاد: لا يا غفران أن هناك من ينتظرني في الخارج ولكنني افتقدت زيارتك لي عصر هذا اليوم وخمنت أنك لم تعرفي بقدومي بعد ثم لقد كنت في شوق إليك بعد هذه الفترة من البعد، قالت غفران ولكن ألم تعلني أنت أن موعد استقبالك للزائرات لم يحن بعد! فرددت سعاد كلمات غفران في استغراب قائلة: موعد زيارتي لم يحن بعد ولكن لماذا؟ كيف يمكن لي أن أقول هذا وأنا في انتظار أخواتي منذ الساعة الأولى؟ قالت غفران لأن بيتك لم يعد للاستقبال كما ينبغي ويليق فضحكت سعاد ثم قالت ومتى أصبحت

استقبل زائراتي على أساس من البيت وزخارفه؟ ثم كيف أمكنك أنت أن تصدقي ذلك عني يا غفران؟ وهنا شعرت غفران بموجة من فرح وسعادة تغمرها إذ وجدت أن آمالها وأمانيها لم تخنها في هذه الأخت العزيزة ورددت في شكر صادق: الحمد لله. الحمد لله. شد ما أنا سعيدة بك ومن أجلك يا سعاد ولكن ما هو مصدر ذلك الخبر إذن؟ قالت إنها إشاعات، قالت غفران ولكن بعض الاشاعات تحمل معها أعظم الأخطار لأنها ترمز الى مفهوم مخالف لمفاهيم الاسلام فحاولي يا عزيزتي أن تحولي بينها وبين الانتشار واجعلي من حياتك القادمة وسيلة إيضاح كاملة، قالت: نعم سوف أحاول ذلك ولن أدع ثغرة تنفذ من خلالها الاشاعات، فربتت غفران على ظهرها برفق وهي تقول: واعلمي أن أمرك يهمني جداً لأنه الصورة الحية لحياة زوجية قامت على أساس الايمان ووضعت خطوطها على هدى من تعاليم الاسلام وغداً سوف أزورك مع مجموعة من الأخوات أن شاء الله، فرفعت سعاد رأسها وهي تقول في اعتزاز: نعم وعلى الرحب والسعة تفترشين معي الحصير وتشربين وإياي ماء الغدير فإلى اللقاء يا أختاه.

* * *

بدأت غفران في صباح اليوم الثاني تتصل بصديقاتها تخبرهن بعودة سعاد وعزمها على زيارتها عصر ذلك اليوم، ثم

خطرت لها ابنة خالتها هيفاء وكانت هذه قد كلفتها أن تخبرها عن موعد زيارتها لسعاد. فاحتارت كيف تبلغها الأمر وهي بعيدة عنها وبينما هي تفتش عن الحل سمعت صوت هيفاء تتحدث مع أمها في ساحة الدار فاتجهت نحوها وهي تجد أن حضور هيفاء قد سهل لها العديد من المصاعب وبعد أن بادلتها التحية وجلست وإياها فترة قالت لها: كنت أحاول أن أتصل بك لأخبرك بعودة سعاد وبأننا ذاهبتان إليها عصر هذا اليوم فإذا أحببت أن تصحبينا اليها فعلى الرحب والسعة. فضحكت هيفاء وأجابت بأسلوب تهكمي ساخر: شكراً، شكراً. فاستغربت غفران هذا النوع من رد الفعل الذي بدت بوادره على هيفاء وراجعت نفسها هنيئة، أتراها أخطأت التعبير أو أساءت التصوير، ولكنها لم تجد من نفسها ما يؤخذ عليه ولهذا رأت أن عليها أن تسعى إلى توضيح الموقف فأردفت تقول وقد لاح شبح ابتسامة على شفتيها: ولكن ما الذي أثارك على هذا الشكل يا هيفاء؟ قالت هيفاء أن كلامك واضح التكلف وكأنك ومع هذا الأسلوب من الاخبار نريدين أن تقولي: لا تأتي معنا يا هيفاء، وهنا شعرت غفران بلذعة الألم لهذا التجني ولكنها تماسكت ولم تمسح عن وجهها ابتسامتها وإن كانت تلك الابتسامة قد اكتست بعض معاني الشحوب وقالت بصوت حاولت أن يكون هادئاً: وكيف عرفت ذلك يا هيفاء، حبذا لو فسرت لي الأسباب التي حدت بك إلى كل هذا التأثر البالغ. قالت هيفاء: وهل أن

من المعقول أو من المنطقي عقلاً وعملياً أن أذهب اليوم عصراً إلى زيارة سعاد وأنا لم أعرف بذلك إلا الساعة؟ قالت غفران: وماذا في ذلك يا هيفاء؟ قالت أنك تتجاهلين حقيقة واضحة وهي معدات الذهاب التي تتطلب يومين على أقل تقدير! وضعت غفران رأسها بين كفيها وأسندت ساعدها إلى حافة الكرسي الذي تجلس عليه وقالت في لهجة حاولت أن تكون طبيعية: وما هي تلك المعدات بالله عليك يا هيفاء حدثيني بها أو ببعضها إذا أردتِ. فنشطت هيفاء للحديث واعتدلت في جلستها وكأنها في سبيل خوض معركة حياتيه وقالت: ان من تذهب إلى زيارة عروس تتحتم عليها عدة مقدمات:

أولاً: أن تهيِّء لها بدلة مناسبة. ثانياً: أن تختار يوماً لا يشغلها فيه شيء لكي تتمكن أن تصفف شعرها بشكل من الأشكال. ثالثاً: أن تكون متمكنة من ذلك من الناحية المالية. فكررت غفران كلماتها الأخيرة وقالت: متمكنة من ذلك من الناحية المالية؟ وما هو ارتباط الناحية المالية بزيارة العروس؟ فقهقهت هيفاء بشيء من السخرية وقالت: بالاضافة إلى متطلبات البدلة والحلاقة يبرز موضوع الهدية وما أراكِ إلا وقد نسيت هذه النقطة الحساسة قالت غفران: وكيف أنساها يا هيفاء وقد أوصانا الاسلام بها وعرفها إلينا على أنها مما يشد أواصر القربى ويؤكد عواطف الإخاء. قالت هيفاء: إذن فكيف تتوقعين مني أن أذهب عصر اليوم إلى

سعاد ولم أعد الهدية بعد؟ قالت غفران: وهل أن من شروط الهدية أن تكوني مرهقة مالياً؟ ان ذلك لا يعود يحمل معنى الهدية بل أنه يكتسي طابع الضريبة وبذلك تفقد الهدية لذيذ عطائها وتخسر الفوائد المتوخاة نتيجة ذلك، إن الهدية يا هيفاء وضعت لكي تكون وصلة خير بين الأخوة المؤمنين ولكي ترمز إلى دوام تـذكر الانسـان المهدي للمهـدى إليه وتعبـر عن الاهتمام بأمره تارة والفرحة من أجله تارة أخرى. ولهذا فهي عندما تكتسي طابع القيم المادية تتحول إلى عبء ثقيل يرهق الانسان روحياً ومادياً، ألم تسمعي أن الرسول (ص) كـان يتقبل الهدية ولو كانت قدحاً من لبن؟ قالت هيفاء: ولكن أليس من المخجل أن تذهب واحدة لصديقتها بهدية رخيصة؟ قالت غفران: أبداً يا هيفاء فان الهدايا على مقدار مهديها وليست على مقدار من أهديت إليه، أن الذي يتلقى هدية وهو يعلم أنها لم تثقل على صاحبها في شيء يرتاح لها بشكل صادق لا يتأتى عند الهدايا المتكلفة الأخرى، فأنت الآن يا هيفاء يمكنك أن تأخذي معك كتاباً واحداً كرمز للفرحة بدل أن تتأخري عن زيارتها، أما موضوع البدلة التي ذكرتها في المرحلة الأولى فأنه يمكنك أن تذهبي إليها اليوم ثم ترسلي إليها بدلتك بعد أن يتم إنجازها. فتفرست هيفاء في وجه غفران وقالت: ما أراك إلا ساخرة بي يا غفران فهل من المعقول أن يقوم أحد بهذا العمل؟

قالت غفران: وإلا فما هو المانع الذي يمنعك أن تلبسي

ما لديك من ثياب وكلها جميلة وأنيقة وما هو الغرض من أن تكون زيارتك للعروس مرهونة بارتداء بذلة جديدة؟ قالت هيفاء في شيء من التحدي: لكي أبرز بشكل مرضي ولكي أكون جميلة، قالت غفران: لا شك أن لك تجارب سابقة في خصوص هذا الموضوع وقد سبق أن ارتديت ما يبرزك بشكل مُرْضٍ فأين هي تلك الملابس يا ترى؟ هذا إذا كان الهدف الرئيسي هو ما ذكرت أما إذا كانت هناك أسباب أخرى فهي كما أوضحت لك سابقاً أن من الممكن تلافيها بشكل من الأشكال، ليتك كنت صريحة مع نفسك يا هيفاء لاعترفت بما أقول ولحاولت أن تتغلبي على هذا الطراز من التعايش مع الآخرين، فهل تعلمين كم يؤثر هذا السلوك على طبيعة العلاقات وكم يتسبب هذا في إبعادك عن المجتمع وتجنبك لصديقاتك يا هيفاء؟ كوني سهلة وقدِّمي الأهم على المهم واجعلي من الأهم ذلك الشيء الذي ينسجم مع طاعة الله عز وجل ويتماشى مع روح الانفتاح الخالص على صديقاتك المؤمنات.

* * *

بينما كانت غفران تحاول أن تصل في أحاديثها مع هيفاء إلى نتيجة مرضية تمكنها من انطلاقة جديدة لها في الحياة، كانت سعاد تمر بدور مماثل لها فقد نهضت عند الصباح وبعد انجاز الأعمال البيتية انصرفت لتحضير كعكة من أجل

الزائرات الغاليات، وبينما هي مندمجة في عملها مع جد مريح واندفاع صادق، تصور لها أفكارها طبيعة الجلسة وترسم لها صورة عن أجوائها المحببة، فهي تكاد مسبقاً تلمح رجاء بطرائفها المحببة وإخلاص بأمثالها الحكيمة وآمال بصمتها المعبر وهادية بمثلها التي تتمكن أن تبرزها في كل مجال وتنفذ إليها من خلال كل ثغرة، بينما هي غارقة في ذكريات سابقة رسمت لها ملامح الساعات القادمة سمعت رنين جرس الباب فسارعت اليه لتجد إحدى قريباتها التي أصبحت جارتها في بيتها الجديد، فرحبت بقدومها وجلست وإياها للحديث فأخذت تحدّثها تلك عن طبيعة المنطقة وأنها ارستقراطية إلى حد بعيد، فقالت سعاد: أنني لا استشعر أهمية لذلك فان الانسان المؤمن ليلتزم في حياته بسلوك لا يتغير ولا يتبدل في أي محيط مهما كان ارستقراطياً أو برجوازياً أو شعبياً فأن له خطوطاً عريضة يسير عليها مهما كان الوسط الذي يعيشه، فتململت جارتها لحظة ثم قالت في تردد: ولكن، لعل هناك بعض النقاط مما يلفت الأنظار الشيء الذي لا أريده لك ولهذا أحببت أن أعرّفك على المستوى الرفيع للمنطقة وأنت جديدة عهد بسكناها. قالت سعاد: أية نقاط هذه التي تعنين؟ قالت: أعني عدم وجود تلفاز في بيتكم أولاً ثم هذا النمط من الحجاب الذي تلتزمين به. قالت سعاد: سوف أكون سعيدة أكثر لو عرفت أن هاتين النقطتين جديرتان لأن تلفتا إليهما الأنظار. فاستغربت جارتها من هذا الرد

وتساءلت: وكيف؟ قالت: لأن ذلك يحقق لنا جانبا من جوانب العبادة التي خلقنا من أجلها: ﴿ وما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالْأنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ومن أهم نواحي العبادة ناحية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى دين الله ولهذا فأنا إذ أفهم بأن هناك في مظهري الخارجي أو مظهر بيتي ما يلفت الأنظار أكون مرتاحة لأنني في ذلك كله قد حققت دعوة صامتة وأثبت حقيقة مقدسة بأسلوب عملي، فدعيني أشكرك على بوادر البشارة التي حملتيها إليَّ.

... كانت صاحبتها تستمع إلى سعاد وهي لا تكاد تصدِّق ما تسمع وكأنها أرادت أن تتخلص من الاستمرار في حديث لا تتمكن من مجاراته فكرياً وعملياً فقالت: يبدو أن عندك ضيوف؟ عرفت ذلك من رائحة الكيك التي أخذت تتصاعد منذ فترة، فابتسمت سعاد وقالت: نعم، لديَّ مجموعة من الزائرات. فتلفتت صاحبتها حولها وكأنها تبحث عن شيء، ثم قالت: فلماذا إذن لم تكملي فرش بيتك قبل استقبال الضيوف؟ قالت سعاد: ليس لديَّ ما أضيفه عما هو موجود... فأبدت تلك بعض علامات الاستغراب مع مسحة من الألم وقالت في صوت حاولت أن يكون حزيناً: أنت ليس عندك سجاد إذن يا سعاد ولكن كان يمكن أن تستعيري ذلك منا، أرجوك اعتبري بيتي كبيتك تماماً، وحتى الآن يمكن أن أنقل اليك ما تفرشين قبل أن تبدأ الزيارات ويعرف عنك ذلك. فضحكت سعاد وقالت: أنا شاكرة لك

عواطفك هذه ولكنني أستميحك العذر عن قبولها لأنني لا أحس بالحاجة إلى ذلك أبداً، فأبدت صاحبتها بعض بوادر الدهشة وقالت: وكيف، أليس من الجميل أن يزورك الناس فيجدون بيتك كاملاً غير ناقص؟ قالت سعاد: نعم أن ذلك جميل ولكن الكمال الذي أهفو إليه ليس عن طريق أثاثه ورياشه وليس عن طريق وسائل الديكور التي تزين جدرانه. ولكنه عن طريق انفتاحه هو ومن فيه لكل قادم وتطبيقه لتعاليم الاسلام في إكرام الضيف وبذل القرى للزائرين.

* * *

وعند العصر كان بيت سعاد يضم أروع اضمامة عطرة من الفتيات الصالحات بعد أن أعطين بكل خطوة درساً ورسمن على كل حركة وسيلة إيضاح هادية.

اختيار زوجة



جلس مقداد يتحدث مع أمه في ساعة اختار أن تكون من الساعات التي تُرى فيها منشرحة الصدر منبسطة الوجه، قال: أن لديَّ فكرة أرجو أن تدخل على قلبك السرور يا أماه فأجابته باندفاع ولهفة قائلة: وهل أجد منك إلا ما يسعدني يا بني؟ فما هي فكرتك هذه يا عزيزي؟ قال: أنني أكملت دراستي كما تعلمين وأصبحت قادراً على فتح بيت وتحمل مسؤولية أسرة، ولهذا فقد عزمت أن أجد لي شريكة حياة؛ فأشرق وجه الأم بابتسامة عريضة وقالت: يا لها من فكرة رائعة ويا لها من بشرى سارة، لقد كنت أنتظر هذا اليوم يا ولدي وكم تمنيت لك هذه وتلك ممن تزوجن من بنات عشيرتنا والحمد لله الذي جعلك تفكر بالأمر قبل أن يفوت الأوان، فكرر مقداد الجملة الأخيرة في استغراب قائلاً: قبل أن يفوت الأوان؟ قالت: نعم، أعني موضوع ابنة عمك حذام فهي مستحقة للزواج ولا يخلو بيتهم دوما من خاطب، فسكت مقداد لحظة ثم قال بنغمة حاول أن تكون لينة: إذن فلماذا نزاحم هذه المجموعة من الخطاب؟ فبهتت

الأم وقالت في تعجب: ما الذي تعنيه يا مقداد؟ قال: أقصد أن ابنة عمي لا تلائمني يا أماه، فشهقت الأم في استغراب وقالت: لا تلائمك؟ وكيف؟ من هي أحسن منها؟ لا لا يا بني أنك غلطان وسوف أذهب منذ الغد لاجراء مراسم الخطبة، فأجاب مقداد في فزع: إياك أن تقومي بشيء من هذا يا أماه لأنني غير راغب في الموضوع، قالت: ولكنك إذا علمت أنها أصبحت خطيبتك سوف تبدأ تنسجم معها فدع عنك هذه الأقاويل واعلم انني لا اريد الا مصلحتك وسعادتك فهي جميلة وصاحبة وظيفة محترمة أقصد مثقفة. قال مقداد: لا يا أماه أن هذه الخطوة هي ما يخصني أنا بالذات ولهذا فاتركي أمر التفكير في موضوع حذام، فسكتت الأم وكأنها تحاول أن تستحضر في ذهنها موضوعاً جديداً ثم قالت: طيِّب إذن فليس هناك من هي أجدر من ابنة خالك إذا عدونا حذام؛ فهذه لا تقلّ عن تلك جمالاً وهي وإن كانت غير موظفة ولكن خالك رحمه الله قد أورثها تركة معتدٌ بها مما يمكنك أن... فقطع مقداد متسلسل حديثها قائلاً في نفور: لا لا أرجوك يا أماه فكري معي بشكل موضوعي فأنا أريد شريكة حياة ولا أريد شركة تجارية. فظهر الغضب على الأم وقالت في حدة: وما الذي يعوز ابنة خالك أن تكون لك شريكة حياة أيضاً؟ قال: أنها يا أماه لا تشاركني أفكاري ومعتقداتي ولهذا فليس في إمكانها أن تكون شريكتي في الحياة، فضحكت الأم في سخرية وتهكم وقالت: أنك تتكلم وكأنك

ملاك لا يجد شريكة حياته إلا في حورية، ألا تترك هذه الكلمات الفارغة يا بني، أنك شاب مثقف حائز على شهادة راقية فلا يليق بك أن تفكر على هذا الشكل الخيالي يا مقداد، فقال مقداد: أنني لست ملاكاً ولا أحاول أن أفتش عن حورية ولكنني انسان مسلم افتش عن فتاة مسلمة ملتزمة بأحكام الاسلام وآدابه. قالت الأم بلهجة قاطعة: إذن فأنك سوف تبقى بدون زواج لأنك لن تجد فتاة تناسبك مع هذه المواصفات، فابتسم مقداد في رفق وقال: لو حاولنا لوجدنا يا أماه. قالت: وكيف وجميع البنات اللواتي أعرفهن لا يمثلن فكرتك هذه؟ قال: ولكنني أعرف من تتمثل بها هذه الشروط؛ فاستفزها الجواب وقالت في استغراب: أنت تعرف! مَنْ هي مثلاً؟! ومتى أصبحت ممن ينشىء علاقات خاصة مع البنات؟ فأثارت هذه الكلمة أعصاب مقداد ولكنه تمكن من التحكم بها ولهذا رد عليها قائلاً: أنني لا أقصد من معرفتي المعرفة المباشرة ولكنني أعني بها معرفتي بوجود مثل هذه الفتاة. قالت: ما أراك إلا وقد حددت موضوعاً خاصاً تريد أن تستدرجني إليه فمن هي هذه (السَت المحترمة) يا سيد مقداد؟ فابتسم مقداد ابتسامة مرة لهذا التهكم من امه ولهذه البداية المتعبة ثم قال: أرجوك أن تكوني أكثر تفهماً لموقفي يا أماه، وقد كنت أتمنى أن تقفي إلى جانبي في هذا الأمر وتحاولي اقناع والدي في هذا الموضوع فان عاطفة الأمومة من حقها أن تتغلب على كل المشاعر الأخرى. وكأن

كلمات مقداد الهادئة وعباراته التحببية جعلتها تركن إلى الليونة نوعاً ما فقالت بشيء من الرفق: وحق عينيك يا ابني أنا لا أفكر إلا من زاوية مصلحتك الخاصة. قال مقداد: إذن فأنا أطلب منك أن تسانديني في خصوص هذه الخطوة فأنا أعرف بمصالحي يا أماه. قالت بعد فترة تردد: نعم ما دام في ذلك ما يرضيك مع عدم تحملي لمسؤولية العواقب، والآن أين الموضوع الذي تريده يا مقداد، وما هي شمائل تلك الفتاة السعيدة التي نالت رضاك؟ قال: أنني لا أنظر إليها إلا من الجانب الديني، فهي كما أعرف عنها فتاة محجبة مؤمنة. قالت: آه، إذن فهي غير مثقفة؟ قال: أن لديها بعض الثقافة العامة وهي من الناحية الدينية مثقفة جداً. قالت: مثلاً ما هي الشهادة التي حازت عليها؟ قال: السادس الاعدادي يا أماه وهو قدر يمكنها أن تفهم ما يفيدها في الحياتين.

قالت: ومن أية أسرة هي يا ترى؟ قال: أنها ابنة بيت عرف بالأمانة والصلاح وقد أعطى عنه سمعة حسنة خيرة. قالت الأم: آه، إذن فهي لا تنتمي إلى أسرة محترمة مرموقة؟ قال: وما هو تأثير الأسرة المرموقة إذا كانت الفتاة ذات أخلاق غير صالحة وذات طابع غير محترم.

وهنا شاهد مقداد أن وجه أمه أخذ يكتسي طابع الصرامة شيئاً فشيئاً، فاستعاذ بالله في سره من ذلك وأردف يقول في رفق: ان السعادة الزوجية لا تعتمد على المال والجاه

والمقام يا أماه ولكنها تنطلق من زاوية التقارب الروحي والفهم المشترك لحقيقة الحياة.

وهنا أجابت الأم بنغمة جافة قائلة: وما هي مهنة أبيها يا ترى؟ قال: أنه بقال يا أماه. فشهقت الأم وقالت: بقال!!؟ قال: نعم، ولكنه رجل صالح أنشأ جيلاً خيِّراً فاضلاً من الأبناء وكوَّن أسرة مؤمنة سعيدة، فقطعت الأم كلامه قائلة في توتر واضح: وأنت. أنت ابن الأشراف. ابن المال والثراء وربيب الثقافة والعلم. أنت حامل أعلى شهادة بشبابك وجمالك تريد أن تقرن حياتك مع ابنة بقال؟ يا للعار! ثم تريد أن أكون أنا واسطتك في ذلك؟ قال: ولكن ما هو رأيك لو كنت قد اخترت ابنة بائع مجوهرات؟ قالت: إن ذلك يعدُّ تاجراً وشتان بين البقال وبائع المجوهرات يا مقداد! قال مقداد: ان الفرق يبرز من الناحية المالية فقط وإلا فإن هذا يبيع خاتماً وذاك يبيع سكراً، كلاهما عاملان في سبيل الكسب من أجل العيش. قالت: ولكن تصور ردود الفعل لدى أبيك وأخيك. قال: لن تكون أسوأ من ردود الفعل لديَّ بالنسبة إلى اختيار أخي لزوجته وموافقتكم على ذلك مع أنها فتاة متحللة غير ملتزمة، وعلى كل حال فإن هذه هي رغبتي وهو قراري النهائي، فأما أن تقدمي أنت لأجل انجاز الموضوع أو استقل بنفسي في الأمر. قال مقداد هذا بأسلوب صارم جاد عرفت الأم منه أنه يعني ما يقول، فضحكت في سخرية وقالت: وهل أن الموضوع يحتاج إلى

إقدام وإنجاز؟ إن أقل إشارة منك تجعلهم يقدِّمون لك ابنتهم بكل سرور. فهز مقداد رأسه في تشكيك وقال: إذن جرِّبي لنرى. قالت: ما أعجب هذا! أذهب لأخطب لابني ابنة بقال؟ أي جمال تمتلكه هذه الفتاة جعلك ترغب فيها وتغمض عن كل شيء؟ قال: أقسم لك يا أماه بأنني ما رأيتها من قبل. قالت: إذن فما يدريك ولعلها قبيحة؟ قال: لا، أنا أعلم بأنها ليست هكذا، ومع وجود الفضائل التي تتحلى بها لا تعود درجة الجمال تهمني يا أماه. قالت: أما والله أن عجبي لا ينقضي منك يا مقداد! ولكن بأي وجه سوف تقابل أباك وأنت تحمل معك هذا الاقتراح؟ قال: بالوجه الذي أقابل به ربي يا أماه، ولكنني أرجو منك أن لا تقفي ضدي وأن تساعديني ما وسعك ذلك...

* * *

وفي صباح اليوم التالي فاتح مقداد والده في الموضوع، وصادف من أبيه ثورة صاخبة أيضاً، ولكنه أصر على رأيه وأوضح لهم أن هذا أمر يجب أن يكون وأنه مصمم على ابرامه بأي شكل من الأشكال، وأنه هو وحده صاحب الأمر فيه لأنه يخصه هو بالذات، وقد وقفت الأم موقفاً حيادياً خفف من حدة التوتر، وأخيراً خضع الأب لما يمليه مقداد على مضض، فتوجه مقداد نحو أمه يطلب منها أن تذهب لاجراء مراسم الخطوبة وأن تحاول تذليل الأمر بأي صورة،

قالت: أنني ذاهبة استجابة لأمرك يا بني ولكنني لا احتمل أن الموضوع يحتاج إلى تذليل وتمهيد، فمن الـذي تتقدم أنت لخطبة ابنته فيمتنع عن إعطائك يا بني؟.

وعند العصر استصحبت الأم معها أكبر بناتهـا وألينهن جانباً وتوجهت إلى بيت العروس، وفي الطريق استفسرت البنت من أمها عن اسم هذه الفتاة التي هما ذاهبتان لخطبتها فقالت الأم: أنا لم أشأ أن أسأله عن اسمها، ولكنني أتوقع أن يكون: نهاية ، أو عطية، فهل هي إلا ابنة بقال؟ وعندما تقدمتا نحو الباب وطرقتاه كانتا تستشعران حالة ترقب وقلق خفية، وفتحت الباب لهما فتاة صغيرة السن صبيحة الوجه بادية الجمال بشكل جعلهما تستشعران بمفاجأة غير متوقعة، ورحبت بهما الفتاة وإن كان الاستغراب قد خالط نظرتها، ثم قادتهما إلى غرفة الاستقبال وذهبت لاستدعاء امها، وكانت الأم أمرأة وسط، لا بالسمينة ولا بالضعيفة، عليها مسحة من ملاحة وطيبة وقد رحبت بالزائرتين وجلست قبالهما وهي تنتظر منهما ما يكشف عن طبيعة الزيارة، وبعد تبادل بعض كلمات شكلية قالت أم مقداد: ما تكون منك هذه الفتاة التي فتحت لنا الباب ؟فابتسمت الأم وقالت: أنها ابنتي أفنـان، فرددت الأخت الاسم في نبرة إعجاب قائلة: أفنان، يا له من اسم بديع! وأردفت أم مقداد تقول: وهل عندك بنت غيرها؟ قالت: لا ، فهي وحيدتي. فظهر على وجه أم مقداد وأخته السرور لأنهما عرفتا أن تلك الفتاة الجميلة كانت هي العروس

المطلوبة. وقبل أن تتحدث أم مقداد بشيء دخلت الفتاة من جديد وهي تحمل بيدها أكواب القهوة، وبعد أن انتهت من تقديمها جلست فترة قصيرة دارت خلالها بعض الأحاديث بينها وبين الأم والأخت فكان أن انجذبتا نحوها بشكل فريد بعد أن حازت على إعجابهما بشكل كامل، وبعد أن جمعت أكواب القهوة وغادرت الغرفة تكلمت أم مقداد فقالت: لقد دفعتنا غاية مباركة لزيارتكم اليوم يا أم أفنان، ثم اندفعت تتحدث عن رغبتهم في المصاهرة وإعجابهم بالفتاة، وكانت تتحدث بحرارة واندفاع يختلف مع ما كانت عليه قبل أن تدخل البيت وترى أفنان، وتحدثت عن ابنها بكل إعجاب وذكرت عنه كل ما يميزه في نظرها، من الشباب والجمال والشهادة والمال، ولكنها غفلت عن التعرض إلى ناحية واحدة هي أهم ما في الأمر بالنسبة إلى أم أفنان وهي ناحية دينه وإيمانه، ولهذا فقد فوجئت بما لم تكن تتوقعه من قبل إذ أن الأم أجابتها بلهجة مهذبة قائلة: ولكن مما يؤسفني أن أقول أن هذا الأمر من العسير تحقيقه ولعله في حكم المحال. فرددت الأم كلماتها الأخيرة قائلة: في حكم المحال، ولماذا؟ فابتسمت تلك وقالت: ان ابنتي لا تزال صغيرة. قالت أم مقداد: ولكنها ليست صغيرة جداً، أنها في سن النضوج الكامل. قالت الأم: ولكن هناك عقبات كثيرة ولا حاجة بنا لذكرها في الوقت الحاضر. قالت أم مقداد: ولكن عليك أن تراجعي الأب وتتعرفي على رأي البنت فليس لك أن تبتي

بهذا الموضوع وحدك يا أم أفنان. قالت: لا أظن أن رأيها سوف يختلف عن رأيي. قالت أم مقداد: إذن؟ قالت: إذن فأنا أعتذر وأتمنى لابنك أن يجد الفتاة التي تلائمه من جميع الوجوه. فظهر الألم على وجه أم مقداد وقالت: ولكن يبدو أن ابنتكم هي جد ملائمة لابننا وهذا هو الذي دفعنا إلى طلب يدها مع كثرة من حولنا من البنات، ويا حبذا لو فسرتِ لنا سبب هذا الرفض البات وبهذه السرعة قبل أن تحاولي الاستفسار عن الولد أو الاستشارة من الآخرين. فتململت الأم ثم قالت: أنني لا أملك إلا بنتاً واحدة ولهذا فان من واجبي أن أؤمن مستقبلها في حياتها الزوجية. قالت أم مقداد: ولكنني أوضحت لك أن ابننا جدير بإسعاد مستقبل ابنتك فهو متمكن من الناحية المالية بشكل كامل. قالت الأم: ان هذا ليس بالشيء المهم في نظري فإن المال لا يجلب السعادة ولا يطرد الشقاء. قالت: إذن أنها الشهادة وقد أخبرتك أنه يحمل شهادة عالية محترمة، انه مهندس. نعم مهندس. وقد رددت أم مقداد كلماتها الأخيرة بشيء من الفخر والاعتزاز وكانت تتوقع أن تجد آثارها على وجه أم أفنان، ولكن راعها أن تجد تلك تهز رأسها في عدم اهتمام، ثم قالت: وهل أنني سوف أزوج ابنتي من أجل الشهادة؟ أن الشهادة لا تزيد من الكفاءة الزوجية ولا تنقص منها. فاحتارت أم مقداد وتجردت من جميع أفكارها التي كانت تعيشها من قبل وشعرت أنها صاحبة حاجة ضعيفة أمام

إنسانة قوية متمكنة من الموقف، وتساءلت في حيرة: إذن ما هي القواعد التي تؤمّن مستقبل ابنتك في نظرك يا ترى؟ قالت: أن الأم عندما تتقدم لكي تخطب لابنها لا بد وأن تذكر أهم ما يميزه ولكنك لم تتعرضي لشيء من ذلك ولم تشيري إليه من قريب أو بعيد. قالت أم مقداد في استغراب: ماذا تعنين يا أم أفنان؟ قالت: إن ابنتي فتاة مؤمنة لا تختار ولا نختار لها إلا الزوج المؤمن الصالح الذي يساعدها على التمسك بآداب الاسلام وأحكامه، وأنت لم تذكري عن ابنك ما يدل على إيمانه، ثم أن ابنتي محجبة ولعل ابنكم يريد عروساً تتماشى مع أخواته ومحيطه الخاص. وهنا أطلقت أم مقداد ضحكة عالية وقالت: نعم أنك على حق وقد فاتني أن أتحدث عن هذه الناحية لأنني كنت أتوقعها غير مهمة. قالت الأم: ولكنها بالنسبة لنا مهمة جداً. قالت أم مقداد: إذن فكوني على ثقة أن ابني هو أجدر ما يكون بابنتك لأنه شاب مؤمن صالح يصلي ويصوم ويفتش عن عروس محجبة. وهنا تبدلت تعابير وجه الأم وظهر على نظراتها الاهتمام لأول مرة ثم قالت: إذن لماذا لم تذكري ذلك منذ البداية؟ قالت: لم يكن يخيل إليّ أن ابني مع جميع ما يميزه يفتقر إلى ذكر هذه الناحية بالذات، أما الآن وقد عرفت عنه ذلك فماذا ترين؟ واعلمي بأن وضعي الخارجي ووضع ابنتي لا يمثلان ذوق ابني ولا ينسجمان مع أفكاره وآرائه. قالت الأم في رصانة: إذن تفضلي واذكري الاسم الكامل

لكي نحاول أن نسأل عنه بشكل أوسع. قالت أم مقداد: نعم ان لك الحق في ذلك. ثم قدمت لها الاسم والعنوان بشكل مفصل وخرجت على أن تعود بعد اسبوع لتتعرف على قرارهم الأخير.

* * *

وفي البيت كانت مشاعر انتظار متناقضة، مقداد ينتظر في لهفة، والأب ينتظر في تبرم، والأخت تنتظر في استخفاف. وما أن دخلت الأم حتى طالعتها نظرات الاستفهام فجلست فترة دون أن تعطي أي اشارة ثم قالت: أما والله أنها لعجيبة! وسكتت، فبادرها مقداد في السؤال قائلاً: وما هو العجيب يا أماه؟ هل حدث ما يريب؟ قالت: لقد حدث ما لم أكن أتوقعه أبداً يا مقداد! قال: آه أنهم رفضوا الموضوع إذاً يا أماه...

وهنا قهقه الأب ضاحكاً في سخرية وقال: لكم أنت بسيط يا مقداد! ابنة البقال ترفض خطبتك وأنت ابن الحسب والنسب؟! ولم يكد يكمل جملته حتى استدارت الأم نحوه تقول في أسلوب جاد: ولكنهم بالفعل قد رفضوا ذلك يا أبا مقداد! ففغر الأب فاه في استغراب وقال: رفضوا؟ قالت: نعم. وهنا تساءل مقداد في لهفة: وماذا كان السبب؟ قالت: لأنهم لا يعرفوا شيئاً عن إيمانك يا بني وقد حدَّثتهم بجميع صفاتك وغفلت عن هذا الأمر؛ ويبدو أنه كان في مظهري

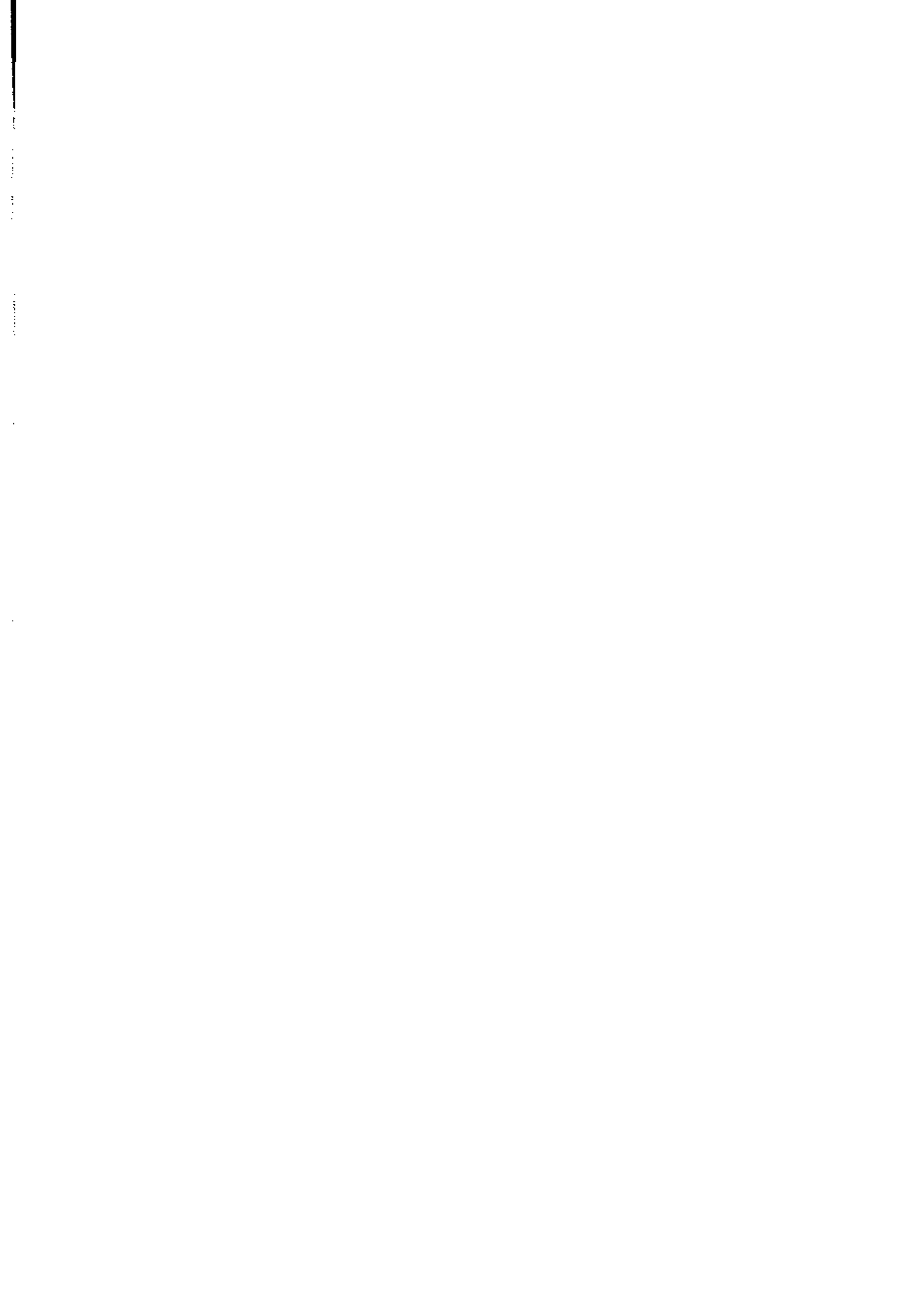
ومظهر أختك التي كانت معي ما جعل الام تزهد بإعطاء ابنتها إلينا، لأنها على حد تعبيرها مؤمنة ملتزمة.

وإلى هنا سكتت الأم تنتظر من ابنها الاستزادة فقال مقداد: وأخيراً؟ قالت: وأخيراً عرفتُ أسباب الرفض فأفهمتهم بأنك انسان مؤمن وعند ذلك فقط دخلت الأم في مرحلة التفكير بالأمر وقد أعطيتهم الاسم والعنوان من أجل الاستفسار، ولكن إذا أردت الحقيقة يا بني قد فوجئت بموقفهم هذا ورأيت نفسي منقادة لأن أحترم قوة الايمان الموجودة لديهم بشكل لم تخضعهم لاغراء الأسماء والألقاب والأموال والشهادات. وما كادت الأم تنتهي من كلماتها الأخيرة حتى قال الأب: وهل رأيت الفتاة يا أم مقداد وكيف كانت؟ فتضاحكت الأم وهي تنظر إلى مقداد بطرف خفي ثم قالت: أما هي فرائعة إلى حد بعيد، جميلة، ومهذبة، ومحبوبة وعلى العموم فأن مقداد كما يبدو يعرف كيف يختار.

وبعد مضي أسبوع حصلت الموافقة من قبل أهل أفنان وتمَّ عقد الزواج في جو هانىء سعيد.

* * *

صافرة إنذار



عاد عبد الحكيم إلى البيت ليجد أن زوجته إقبال لا تزال خارج الدار فجلس ينتظرها وهو يلاعب أطفاله تارة ويقرأ في كتاب تارة أخرى وحوالي الساعة العاشرة عادت إقبال، فوجدها في أروع حلة وأبرز زينة على عادتها في التزام الأناقة، ولكنها لم تمهله لكي يمتع نظره بمظهرها الجذاب إذ اتجهت إلى غرفتها وتخلصت هناك من وسائل التصنع فبرزت حقيقتها أقل جمالاً وأكثر نعومة وأنوثة. ولاحظ عبد الحكيم أن إقبال لديها ما تقوله له تتحبب إليه بشكل لا يحدث إلا في الحالات التي تسبق لها طلب أو حاجة، وبعد أن استسلم الأطفال للنوم قالت إقبال: أنك لم تسألني عن زيارتي عصر هذا اليوم، فابتسم عبد الحكيم واستعاذ في سره من هذه المقدمة ثم قال أرجو أن تكوني قد حصلت على بعض المتعة والراحة؟ فاندفعت تقول وكأنها تتحدث عن الفردوس الموعود، يا الله كم كانت الجلسة رائعة والحديقة واسعة والبيت فخم والتقديم محترم جداً وقد كانت أحدث (باروكة) هي باروكة صديقتي حياة وأغلى بدلة هي بلدة أم نعمان زوجة الدكتور عاصم آه كم كانت جميلة ومحترمة وكم كانت بارزة مقدرة. نعم جداً جداً فضحك عبد الحكيم في ألم وتساءل من أم نعمان أم البدلة؟ قالت لا أنها البدلة يا عبد الحكيم، وقال وأم نعمان ماذا كان دورها يا ترى؟ قالت وكأنها لا تريد أن تفسح له مجالاً للحديث: ولكنني كنت خجلانة جداً بشكل لم أتمكن معه أن استشعر الأنس والسرور. فاستعاذ عبد الحكيم

بالله من جديد وحدث نفسه قائلاً: هذه هي البداية والله يستر من النهاية. وسكت فلم يعقب، قالت أراك غير مهتم بأمري يا عبد الحكيم أتراني هنت عليك إلى هذا الحد؟ فها أنت إذا لم تحاول أن تتعرف على أسباب خجلي كأنني غريبة عنك. قالت هذا وكادت أن تستعبر باكية، فحدث نفسه قائلاً: ان أمري لله الواحد القهار لو تأخرت عن سؤالها لحظة لقامت هنا مناحة. ثم أردف يقول: كيف يخيل إليك هذا يا إقبال؟ ألست أنت زوجتي وأم أولادي ولكنني غفلت عن السؤال فسامحيني على ذلك والآن أي شيء بعث الخجل في نفسك يا عزيزتي؟ أرجو أن لا تكون بدلتك الجديدة؟ قالت: لا فهي وإن كانت أقل من بدلة أم نعمان ولكن يمكن التعويض عنها في المستقبل وإنما الموضوع هو موضوع تجديد اليوم الذي استقبل فيه الزائرات لقد مر زمن طويل دون أن أخصص يوماً للاستقبال فماذا عساهن أن يفسرن ذلك إلا العجز المالي والمعنوي نعم أنهن سوف يظنن أن زوجي انسان بخيل غير عارف بقواعد المجتمع وهذا ما يؤلمني جداً، نعم أنه يؤلمني من أجلك يا عبد الحكيم لأنك انسان ممتاز فان من المؤسف أن تؤخذ عنك فكرة خاطئة وأنت كما أعرفك أروع زوج وأحسن رب أسرة فابتسم عبد الحكيم وقال: أنا جد شاكر لك عواطفك يا إقبال والآن؟ قالت والآن أليس اليوم هو الخامس من الشهر؟ قال: نعم. قالت: إذن فان في إمكاني تعيين يوم للاستقبال ما دمت تتمكن من ذلك، ولكن

وكأنك في حديثك عن اليوم الموعود تتحدثين عن فتح جديد يحتاج إلى اعداد مالي هائل، فتضاحكت في دلال وقالت: لا أن الأمر ليس كما تظن يا عزيزي ولكنه قد يكلف، يكلف، وبقيت حائرة تردد كلمة يكلف. ولا تدري بماذا تعقب فقال لها مشجعاً: عشرة دنانير مثلاً؟ فأعادت كلامه بلهجة استغراب قائلة: عشرة دنانير! لا أنها قليلة. قال: خمسة عشر ديناراً؟ أجابت في تردد أو أكثر بقليل. فهز رأسه في ألم وتأفأف قائلاً: ولكن كم هو عجيب طلبك هذا يا إقبال كيف سوف نتمكن أن نقضي البقية من الشهر بعد ذلك وقد أخذت من راتبي قسطاً وافراً من اليوم الأول من الشهر لأجل أجرة الخياط وشراء الحذاء والجنطة. والآن تريدين أن تستهلكي أكثره في يومك الموعود فكيف سوف أتمكن أن أوفر الحاجيات الأخرى حتى نهاية الشهر؟ قالت: يمكنك أن تستقرض لذلك من أحد الأصدقاء. قال: ألا يكفيني ما تحملته من ديون حتى أضيف إليها رقماً جديداً؟ ولأجل أي شيء؟ لأجل أن تحدد زوجتي يوماً لاستقبال الزائرات. قالت: آه ان ظني لم يكذبني إذاً. فها أنت ذا أصبحت تهمل أمري بشكل واضح لم يكن ليخطر لي من قبل، ما أتعسني وما أشقاني إن أصبحت أنا ربيبة الترف والدلال غير قادرة على تعيين موعد للاستقبال، كيف سوف أتمكن أن أواجه أهلي وعشرتي كيف سوف أتمكن أن أنظر إلى المجتمع بعيني؟ إن ذلك يعني انعزالي عن المجتمع بشكل نهائي فان من

المخجل أن أزور ولا أزار قالت هذا واندفعت تبكي بحرقة وحاول أن يمنعها بمنطق الواقع ولكنها أبت أن تستجيب قالت: إن ذلك يعرضني لأقسى الأمراض لأنني إذا لم أخرج من البيت يومين متتابعين أحس بانهيار عصبي وأفقد القدرة على تناول الطعام وبعد طويل نقاش وجدل خضع عبد الحكيم للأمر الواقع على مضض وتنازل مضطراً لما تمليه عليه زوجته.

* * *

واستعداداً لليوم الموعود بدأت إقبال توزع الأعمال بين أخواتها وصديقاتها ولما سألها زوجها عن طبيعة دورها وما تبقى لها من مهام بعد هذه الحملة من توزيع الأشغال على الأخريات، قالت: أن علي أن أهيء البيت وأصف الكراسي!! وحان موعد الاستقبال وإقبال سادرة في تحقيق رغباتها بأي ثمن حتى ولو كان على حساب أعصاب زوجها وعواطفه تجاهها وكانت لا تنظر إلى ما هو أبعد من هذا اليوم ولا تحس بانعكاساته السيئة في حياتها الزوجية. وعند العصر حاولت أن ترتدي بدلة تزيد من تألقها واستعدت لاستقبال الضيوف وأرسلت بأطفالها إلى أمها وأقصت عبد الحكيم عن البيت قائلة له إياك أن تعود قبل الساعة العاشرة يا عزيزي لكي لا تكدر علينا جلستنا وسهرتنا السعيدة. ثم بدأ توافد الزائرات قبل الغروب بنصف ساعة. وكن جميعهن يتبارين

بأحدث أساليب الأناقة والمكياج ولم تكن تدخل واحدة منهن إلا وتستعرضها العيون فاحصة مدققة فتقول هذه: إن لون بدلتها غير مناسب. وتعلق تلك قائلة: كان من المفروض أن تكون أطول من هذا. وتتأفأف ثالثة وكأنها وجدت أمامها حالة شاذة وتهز رأسها في قنوط ثم تتمتم قائلة: لكم يزعجني هذا الانحراف بالذوق! ما أبعد ملاءمة هذه التسريحة لوجهها. أُف، أسفي على الموضة كيف تبدو مشوهة. أنني أتحمل كل شيء ولا أتمكن أن أتحمل منظر تغاير الشكل مع المكياج. وكانت ترتفع من هنا وهناك بعض ضحكات رنانة لم تعرف حتى صاحبتها لماذا أطلقتها على هذا الشكل.

وفي حوالي الساعة الثامنة اكتمل، فنشطت إقبال مع بعض صويحباتها لاعداد ما يستلزمه التقديم، فوزعت الصحون والملاعق والسكاكين بانتظار ما يشغلها من مقليات ومحشيات وفطائر ومعجنات. وفي تلك اللحظة رن جرس التلفون وكانت المطلوبة إحدى الحاضرات ولم يكن في ذلك ما يثير لولا أنها عندما عادت كانت بادية الحيرة والاضطراب وأخذت تسأل عن صاحبة البيت التي كانت لا تزال في المطبخ ثم قالت: يعز عليَّ أن أختصر الجلسة ولكن زوجي استدعاني إلى البيت لأنه سمع باحتمال وجود غارة وهمية تستدعي التعتيم، ولهذا فان من الراجح أن أعود إلى البيت في أسرع وقت. وما كادت تكمل جملتها حتى هاج جمعهن وماج ونسين في لحظة جميع قواعد الأتكيت في التزامه فلم يعد

يسمع منهن إلا: أين عباءتي؟ أين جنطتي؟ أن طريقي بعيد جداً. لا أدري هل أن أولادي في البيت أو خارجه؟ الويل لي لو عارضني التعتيم في الطريق. ينبغي أن نذهب بسرعة. وكأنهن في غمرة اضطرابهن نسين صاحبة البيت التي حضرت مسرعة من المطبخ وقد استفزتها الضجة؛ فقد كن يتسابقن إلى الخروج تاركات ورائهن الصحون الفارغة تنتظر، وصاحبة البيت حائرة لا تدري كيف تتصرف وهي تحاول أن تسكن من روعهن وتهدِّيء من اندفاعهن ولكن دون جدوى. ولم تمض ربع ساعة حتى كان بيت إقبال خالياً إلا منها!! فاستدارت بعينيها وقد صعقتها الصدمة وأربكتها المفاجأة فلم تجد إلا الصحون الخالية والكراسي المبعثرة، وتوجهت إلى المطبخ لتجد المآكل التي كلفتها الكثير من المال والعناء وحملتها المزيد من جميل المساعدات، وجدتها مصفوفة في صحونها دون أن يلقي أحد عليها نظرة، فهالها الأمر واستعرضت في فكرها جميع ما حملها هذا اليوم من مشاق مالية وروحية، حتى أنه فتح بينها وبين زوجها فجوة لم تكن لتوجد لولاه. وكم كانت تعقد على يومها هذا من آمال في البروز وحب الظهور أمام المجتمع بالمظهر اللائق، ولكن آمالها تنهار لمكالمة تلفونية واحدة ولم يسعها عند ذلك إلا أن تجلس فتبكي بمرارة، ثم تذكرت موضوع الغارة الوهمية والتعتيم وتذكرت أن عبد الحكيم سوف لن يعود قبل العاشرة كما أكدت عليه هي من قبل، ولهذا فهي سوف تبقى وحدها في البيت وخلال

العتمة، وشغلتها فكـرة الخوف إلى فتـرة عن فشل يـومها وفكرت، لعل عبد الكريم سوف يسمع خبر الغارة فيعجل العودة إلى البيت، وخرجت إلى الحديقة ولم تتمكن أن تقوم بأي عمل لأن الخوف كان قد استولى على مشاعرها فجلست فوق كرسي هناك تنتظر قدوم عبد الحكيم. وبعد فترة ألقت نظرة على ساعتها فوجدتها تشير إلى التاسعة! إذن أين الغارة، وأين التعتيم؟ وحاولت أن تخلع عنها البدلة ولكن الخوف كان يشلها عن كل عمل فلم تبرح مكانها حتى حانت الساعة العاشرة وليس هناك أي غارة أو تعتيم. وبعد الساعة العاشرة بدقائق رن جرس الباب فعرفت أن القادم هو عبد الحكيم فتوجهت لتفتح له الباب وهي لا تعرف كيف تتصرف من بعد هذا الفشل، وقد ترددت لحظة قبل أن تفتح الباب ثم فتحته ويدها ترتجف فظهر من وراء البـاب عبد الحكيم، فحيته في ابتسامة حزينة فابتدرها قائلاً: هل يمكنني أن أدخل أم أنني جئت مبكراً؟ فأطرقت برأسها إلى الأرض وقالت: ليتك كنت قد جئت من قبل؛ تفضل فأنني وحدي هنا. فدخل إلى الحـديقة وهـو يستغرب من خـلاء الدار بهـذه السرعة، ولكنه عندما شاهد الصحون النظيفة الفارغة وقف باهتاً والتفت نحو إقبال في تساؤل دون أن يقول شيئاً، فما كان منها إلا أن تندفع باكية وهي تقول: لا أدري كيف أفسّر لك الموقف يا عبد الحكيم، لقد خرجن قبل بداية التقديم وذلك من أجل الغارة الوهمية والتعتيم. وكانت إقبال تظن أن

هذا الخبر سوف يثير زوجها ولكنها وجدته على العكس من ذلك، فقد ظهرت عليه بعض علامات الارتياح ثم قال: لطيف! لطيف! ولكن أي غارة وهمية هي هذه وأي تعتيم؟ قالت: لقد اتصل زوج إحدى الزائرات معها تليفونياً وأخبرها بذلك وقد سبب هذا الخبر إثارة الفزع عند الاخريات. ولهذا ترى أنهن خرجن على هذا الشكل، فقهقه عبد الحكيم ضاحكاً وهو يقول: ما هي إلا أكذوبة يا إقبال فهل أن من المعقول أن يكون هناك غارة وتعتيم من دون إخبار سابق؟ والدليل على أنها محض أكذوبة هو عدم حصول أي غارة حتى الآن. فسكتت إقبال لحظة ثم قالت: نعم يبدو أنها كانت أكذوبة ولكن النتيجة كما ترى. قال: أرجو أن تكون النتيجة من صالحك يا إقبال وأتمنى أن يكون هذا اليوم قد أعطاك درساً تستفيدين منه في مستقبل أيامك القادمة. قالت: نعم أنه درس لا ينسى وسوف لن أعود لمثله أبداً ما دمت حية.

* * *

وفي صباح اليوم الثاني اتصلت معها صديقتها صاحبة المكالمة التليفونية التي أثارت المشكلة لتعتذر منها قائلة: يبدو أن ابني كان قد سقط من السلم وانكسرت يده نتيجة لذلك فأراد زوجي أن يستدعيني دون أن يثير في نفسي مشاعر القلق فاختلق موضوع الغارة والتعتيم ولكنني جد آسفة لما سببته لك من إزعاج. فأجابتها إقبال: لعل أن الموضوع في بدايته كان

لا يخلو من إزعاج ولكن نتائجه بالنسبة إليَّ صالحة وقد كشفت عن عيني غشاوة كانت تهددني بالخطر.

وسواء فهمت صاحبتها ما تعنيه إقبال أو لم تفهم ولكنها اعتذرت إليها من جديد وأنهت المكالمة بسلام.



نداء الضمير



جلست رواء أمام جهاز (التلفاز) تنتظر ابتداء البرامج في شيء من اللهفة، ولكن عندما ابتدأت البرامج أنكرت من نفسها أشياء كثيرة، فهي متجهة إلى التلفاز بسمعها وبصرها ولكن فكرها كان شارداً لا يريد أن يتجاوب معها كعادته من قبل، ونفسها كانت تجدها قلقة تفتقد الدعة والاستقرار. وقلبها يأبى أن يخفق لكل نغمة أو يرتجف لكل إثارة. وتململت في جلستها وكأنها تريد أن تقاوم هذا النفار الذي تعانيه من نفسها.

حدثت نفسها قائلة: لقد كانت تلك كلمات قصار ومع هذا فقد كدرت عليَّ صفو سهرتي، ولكن لا، فأي شيء يهمني منها. وبشكل لا اختياري أشارت بيدها إشارة وكأنها تبعد عنها شبحاً غير مرغوب فيه، وحاولت أن تجمع شتات أفكارها من جديد، ولم تمض فترة حتى أحست رواء أنها لم تعد تتمكن من متابعة البرامج التي أمامها. كانت هناك كلمات تنبعث من قرارة نفسها وتنطلق من عقلها الباطن، كلمات سمعتها وظنتها عابرة ولكنها الآن تجد أنها قد تركت وراءها أثراً وقد علق في فكرها من معانيها جذور.

كانت تستمع إلى اللحن الذي أمامها وهناك صوت للضمير يهتف بها من الأعماق قائلاً: أنه الضياع. أنه الضعف. عندما يسلم الانسان أفكاره وعواطفه إلى لحن يتلاعب بروحياته وأفكاره كما يشاء، أن الكلمة ينبغي لها أن تهز الآخرين لا أن يهتز متكلمها ويركع لها ويسجد، أن الكلمة الناجحة هي التي ترتفع بصاحبها لا أن يرفع لها قائلها رجليه أو يهز لروعتها منكبيه.

وخامرها السخط على هذا النداء الذي انبعث ليشوش عليها أفكارها. أنكرت على نفسها هذا الشرود. قالت في سرها أنها كلمات فردوس هذه التي لا تزال ترن في أذني وتلح عليَّ في إصرار، فما لي ولفردوس، وما هي إلا انسانة عابرة في حياتي. ولكن هذه الألحان، وهذه الرقصات هي ما درجت عليه منذ الطفولة.

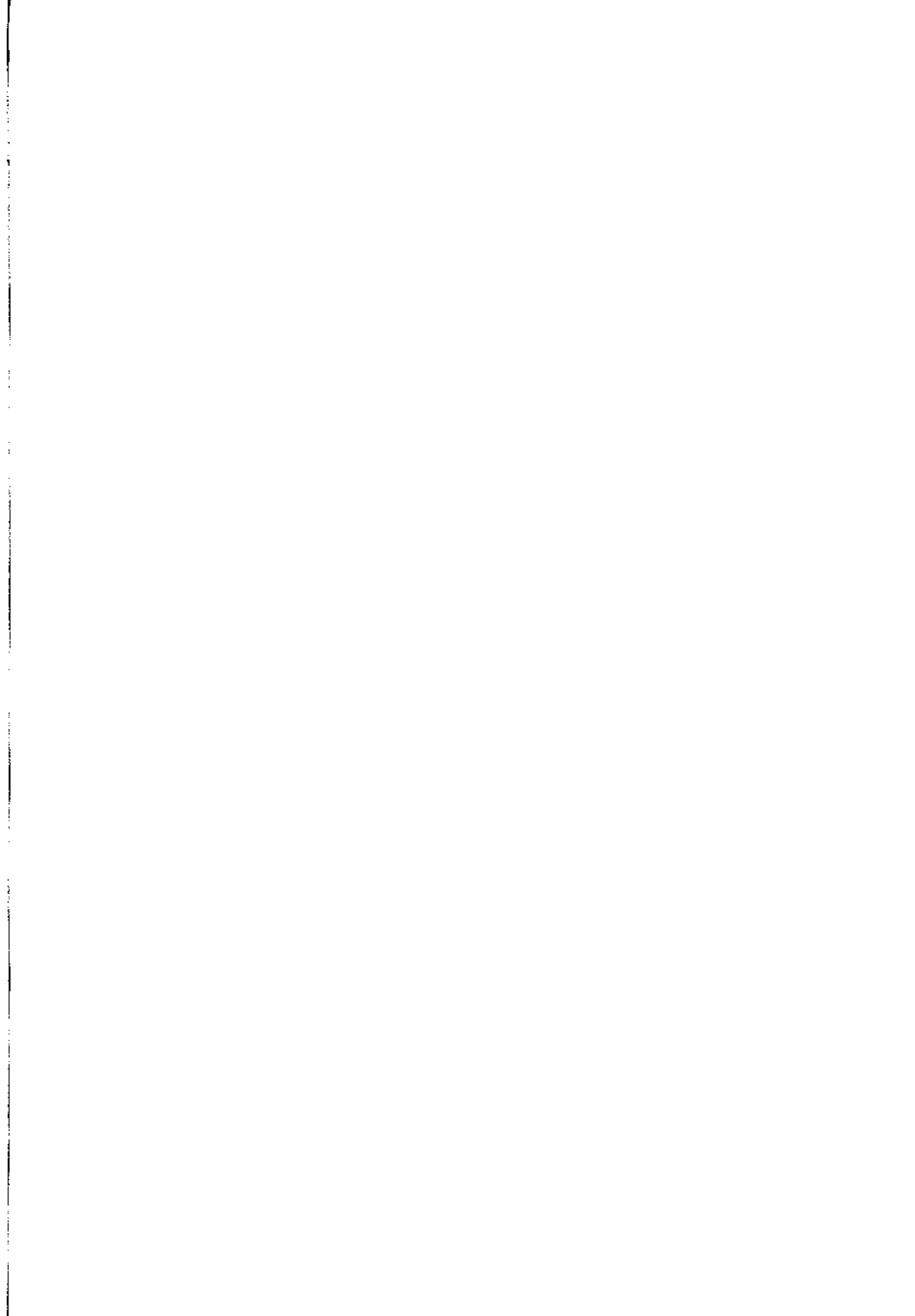
وغيرت مكانها وكأنها تحاول بذلك أن تبدأ نشاطاً جديداً، وتقربت من الجهاز أكثر فأكثر. وحاولت أن تركز، فما راعها إلا دموعها تنهمر لأن المقطع كان حزيناً، فرفعت يدها لتكفكف بها قطرات الدمع وإذا بها تستمع إلى نداء الضمير وهو يقول لها من جديد: يا له من ضعف. يـاله من انقياد كامل. قبل دقائق كنت أضحك لأسباب وهمية. كان الطرب يكاد أن يطير بي على جناحيه، والآن ما الذي تعنيه هذه الدموع؟ أية حقيقة قد أطلقتها ولماذا؟ لا لشيء، لأسباب وهمية أيضاً. فهل تراني أصبحت أعيش في عالم الخيال؟ أو هل أن ما أحسه هو حالة (الماخولية) أنه نوع من المرض يصور لصاحبه أحداثاً لم تقع، فتجده يضحك تارة ويبكي أخرى وهو سادر في عالمه الخاص؟.

وراجعت نفسها من أين انبعث هذا النداء؟ ولم تكن روحها لتطلقه من قبل. آه أنه صدى لكلمات فردوس عندما كانت تتحدث، ولكن أتراها لم تكن قد سمعت حديثاً من قبل هذا الحديث؟ فما الذي جعلها تعيش كلماته دون باقي الكلمات؟ لأنه كان صادقاً مخلصاً هادئاً محبباً. ولكن ها هي الأغنية تكاد تنتهي وهي منصرفة إلى متابعة صراع نفسها الرهيب إذن فلتحاول أن تنفي عن فكرها كلمات فردوس بشكل نهائي قبل أن يفوت الأوان. وتقربت من الجهاز أكثر في تصميم وإصرار، وهنا شعرت أن كلمة واحدة بقيت تلح على فكرها في تأكيد: حرام. حرام. نعم أنه حرام. لقد قالت فردوس أنه حرام والحرام يعني العصيان والعصيان يعني العقاب. والعقاب ماذا يعني يا ترى؟ النار. نعم النار. وتمثلت لها النار بلهيبها وزفيرها، وتذكرت ما قالته فردوس، لقد قالت: أن الانسان يوقد لنفسه النار في حياته (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَة) إذن فهي مع استماعها لكل لحن تشعل لها أواراً جديداً من نار في انتظار ذهابها إلى هناك. وهي لا تعلم متى سوف تذهب، لعلها بعد دقيقة أو بعد سنة أو لعلها بعد عشرات من السنين، ولكنها النار على كل حال من الأحوال. تذكرت يوم احترق أصبعها من لهيب المدفأة. لكم آلمها ذلك مع وجود العديد من وسائل العلاج. ولكن هناك ما هي وسائل العلاج يا ترى؟ لقد قالت فردوس أن الماء عند أهل النار من غسلين. آه أنها النار. وهنا وقفت وهي تتمتم قائلة: النار. النار. النار.

وانسحبت إلى غرفتها في صمت، وسمعت وراءها ضحكات

السخرية والاستهزاء، فرددت تقول: العار ولا النار. ولكنها سمعت نداء ضميرها يرد عليها في رفق قائلاً: ولكن أي عار هو هذا؟ أنه الوعي الحقيقي والتأمين للمستقبل. أن العار هو أن يفرط الانسان بنعيم دائم من أجل لذة وقتية وهمية. إن ذلك يعني النظر القصير والفكر المحدود والضعف أمام الشهوات. نعم أن ذلك هو العار، ؛ هكذا قالت فردوس أمس وهكذا سوف تقول هي بعد اليوم.

رسائل وخواطر



أختي الغالية أسماء، لا عُدِمْتك. سلام الله عليك ورحمته وبركاته، وسلامي مع المزيد من أشواقي ودعواتي.

كيف أنت يا غاليتي؟ أرجو أن تكون أيامك بذكر الله معمورة وبخدمته موصولة. صحتي والله الحمد جيدة وأنا أحس ببعض الزيادة في وزني خلال الأيام الأخيرة، ولعل لطيب الهواء وعذوبة الماء أثراً في ذلك، خرجنا أمس في نزهة قطعنا خلالها مسافة طويلة مشياً على الأقدام ولم نحس بأي تعب أو بتعبير أصح لقد تعبنا ولكنه تعب محبب تتمكن أن تمحو آثاره شربة ماء من تلك المياه العذبة، أو نسمة هواء من نسمات الجو الرطبة، وقد انتهى بنا السير نحو روض يانع عابق بالزهور وهناك امتدت يدي لتقطع زهرة كانت قد تفتحت بشكل رائع وما أن قطفتها حتى قال لي برير: أتراك سمعت حوار زهرتك هذه مع جارتها تلك؟ فاستغربت كلامه وقلت: لا فأنا لم أسمع شيئاً يا برير. قال: ما أن مددت يدك لتقطفي زهرتك هذه حتى تضاحكت في غرور وشمخت بأنفها مع مزيد من الرفعة والاعتزاز وخاطبت رفيقتها قائلة: إبق أنت في تربتك هذه، أما أنا فسوف أذهب لأحتل

مكاناً سامياً وسط آنية من الزجاج وأعتلي منصة عالية من المرمر أو الساج، أو لعلني سوف أصبح زينة فوق صدر غادة تتهافت عليها الأنظار أو أتوج هالة من شعر يخطف بشقرته الأبصار. نعم أبق أنت هنا أما أنا فسوف أنطلق من هذه الجذور التي تشدني إلى التراب وأتحرر من هذه الأغصان التي تحسب أنها هي التي تمدني بالحياة، لن أحتاج بعد اليوم إلى رحمة فلاح يسقيني من العطش أو ستار يحميني من الشمس، سوف استشعر معنى الحرية التي طالما تمنيتها من قبل، ولكن أنت أيتها المسكينة أسفي عليك يا أختاه.

وكان برير يتحدث وأنا مصغية إليه في اعجاب، فاستزدته قائلة: بماذا أجابتها تلك الوردة يا برير؟ قال: آه أنك لم تسمعي جوابها إذن؟ لقد قالت لها في حسرة: لشد ما أنا آسفة من اجلك يا أختاه فما أنت إلا مخدوعة إن هذه الجذور التي تشدك إلى الأرض هي عنوان حياتك، وأن هذه الأغصان التي تربطك بالتربة هي صمام الأمان لحفظ روائك وبها تحيين. أن الحرية التي تنتظرك والتي خدعتك فجعلتك تتغنين لها وتطربين، ان هذه الحرية سوف تؤدي بك إلى الذبول وتبعث في أوراقك الجفاف فتتساقط بعد ذلك وتتطاير مع النسيم؛ هذه هي نتائج حريتك الموعودة، أما أنا فسوف أبقى حية نضرة ما دمت نابتة في مكان نبتت فيه بذرتي مشدودة إلى الجذور التي تهبني معين الحياة مرتبطة بتاريخي. وإلى هنا سكت برير. فهل تعلمين يا أختاه كم كنت أشعر بالسعادة وأنا أستمع منه هذا الحوار؟ وهل علمت ما الذي كان يرمز إليه في تصويره هذا؟ ولهذا فقد عدت من نزهتي تلك وأنا أحس بنشوة

روحية لأنني قد تعرفت خلالها على خاطرة جديدة. وختاماً أبعث اليك بأصدق أشواقي ودعواتي واسلمي لأختك المخلصة.

زهراء

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزتي الأخت الغالية زهراء

حرسك الله يا أختي ورعاك وسدد في طريق الحق خطاك. ما أشوقني إليك يا عزيزتي وما أعمق الفراغ الذي أجده لبعدك، وأنا واثقة بأنه لولا رسائلك التي تسعدني وترويني لضقت ذرعاً بهذا الفراغ. أمس تسلمت رسالتك فما أسعدني بها، وقد قضيت وقتاً جميلاً وأنا أعيش أفكار وردتيك حتى أنني امتنعت منذ الأمس عن قطف زهرة من حديقة الدار فأنا أكاد أسمعها تنطق بأعذب الكلام، والآن هل تريدين أن أشرح لك المعنى الذي كان يرمز إليه برير في حديثه عن الزهرتين؟ طيب، هاك صورة مختصرة عنه لتعرفي أن أسماء ما زالت تفهم ما تقرأ. أنه مَثَّل الزهرة بالفتاة التي تتنكر لدينها وتحاول أن تنفصل عن الجذور التي تشدها إليه فتروح تطالب بالحرية والانطلاق بعد أن تخدعها أبواق الحرية وتغريها زخارف الدعايات، فتروح تتلاقفها الأفكار وتتلاعب بوجودها الأغراض حالها في ذلك حال هذه الزهرة المسكينة التي تنتقل من

يد إلى يد وتتحول من كأس إلى كأس حتى تجف وتذوي، والآن دعيني أحدثك عن نفسي قليلاً، فأنا قلما أجد بعدك من أحدثه يا أختاه، بعد أن أصابتني حصى صغيرة رميت بها من أقرب الأحباء إليَّ وأعزهم عليَّ الشيء الذي جعلني أنطوي على لذعة من الألم قاسية فرضت عليَّ بعض العزلة عن الآخرين. أنني يا عزيزتي دائبة خلال أيامي هذه على مطالعة كتاب يتحدث عن طبائع الأحياء وأني لواجدة فيه متعة ومقتبسة منه فائدة ومستلهمة منه خواطر وأفكار، فما أكثر ما أقف خاشعة أمام عظمة الخالق عز وجل عندما يحدثني هذا الكتاب (كتاب طبائع الأحياء) عن الأحياء المضيئة مثلاً، وذلك كديدان النار التي تقطن في جوف البحار، وذباب النار الذي يقطن بين الأعشاب ويتمتع بقابلية على الاضاءة، وقوة سمع الخفاش وكيف عوضه الله تبارك وتعالى عن حاسة البصر بحاسة سمعية خارقة فهو يسمع الأمواج فوق الصوتية التي تقدر سرعة ذبذبتها بمقدار (٥٠٠٠٠٠) ذبذبة في الثانية، وغير هذا من العبر العلمية. ولهذا فأنا أجد أن هذه العزلة التي فرضتها على نفسي قد فتحت أمامي مجالاً مضاعفاً للمطالعة والكتابة فما رأيك في هذا يا زهراء؟ وأخيراً لك مني دعواتي وأشواقي واسلمي لايمانك وإلى اللقاء إن شاء الله.

أسماء

بسم الله الرحمن الرحيم

أختي الغالية أسماء لا عدمتك. سلام الله ورحمته وسلامي وأشواقي وأصدق دعواتي، وصلتني رسالتك العزيزة أمس فتسلمتها بمزيد من اللهفة وقرأت سطورها وكلماتها بأفكاري قبل أن أتابع حروفها بعيني، فكم أنت عزيزة عليَّ وكم هي كلماتك المحببة هذه أثيرت لدي، ولكن رابني فيها سحابة من ضيق نطقت عنها سطورك وكلماتك في صمت، فما الذي تعنيه هذه العزلة التي أقحمتها على وجودك أو أقحمت وجودك فيها؟ وأنت التي يتحتم عليك أن تعيشي في قلب المجتمع لتنظري إليه في عبرة، ولتنشري حولك بين أجوائه فكرة، أتراها من أجل حصى أصابتك ممن تحبين وتقدرين، ولكن هل رأيت يا أسماء تلك الشجرة الطيبة التي تسمى بشجرة البن تارة وشجرة الجمال أخرى؟ إن جذورها لتمتد في الأرض راسخة ثابتة وفروعها الخضراء ترتفع في هدوء لتهب من لونها المشرق معنى الأمل إلى النفوس ثم ماذا؟ هل يقف عطاؤها عند هذا فقط؟ لا، فان وروداً بيضاء نقية تبدأ تتوج غصونها وكأنها أكاليل غار فتتزاحم تلك الورود وتتقارب في حنو وإشفاق يشد بعضها بعضاً، ومن هنا تبدأ محاولة هذه الشجرة الطيبة لأن تكون

في مجموعها عطاء ورواء للآخرين، نعم أنها عطاء، فهي تنثر لمن يرميها بحجر مجموعة من زهور، فإذا رماها الرامي بحصاة اهتزت شفقة عليه وخفقت أغصانها حنواً لأجله ثم . . . أمطرته بوابل من زهورها البيضاء تكلل رأسه بها وتنثرها أمام قدميه، تفرش بها طريقه وتعطر بأريجها الهواء الذي يهب عليه، فهل رأيت هذه الشجرة الخيرة وهل فكرتِ في مثيل لها؟ أنه الانسان المؤمن، هذا الذي نذر حياته لله وفي سبيل الله، فهو حينما يرمى بحصاة يجيب عن ذلك بعظات ودعوات صالحات، وهو حينما تمتد إليه يد مؤمنة بحجر يود لو يحتضن تلك اليد ليضع بين أصابعها بدلاً من الحجر مشعلاً من نور، وهو يرتجف اشفاقاً وحنواً بدل أن يرتعد غيظاً وحنقاً. أنه يتألم من أجل الرامي ولا يتألم منه. انه يحاول أن يجمع من أمامه الأحجار وينثر بدلاً منها أغصاناً من زيتون ليجنبه مؤونة الرمي بحجر قد يثقل على يديه أو يخدشهما، وذلك لأن الانسان المؤمن بطبيعته عطاء وحب وإشفاق، إذن فما يبعدك أن تردي عن كل حصاة بزهرة، وتعوضي عن كل جرعة علقم بكأس من شهد؟ حاولي يا عزيزتي وسوف ترين كم هي لذيذة ورائعة هذه المحاولة.

نعم حاولي ذلك بدل أن تعتزلي عن مجتمعك يا اختاه فليست هذه العزلة إلا أحد أنواع الهروب. ألا تذكرين هذا البيت من الشعر الذي سبق أن قرأناه وشككنا في إمكان تطبيقه:

واني لمحتاج إلى ظل صاحب
يروق ويصفو إن كدرت عليه

فلماذا لا تكوني أنت تلك الصورة المشعة التي حسب الشاعر أنه رسمها في عالم الخيال؟ كونيها في عالم الحقيقة والواقع يا أختاه.
وأخيراً وليس آخراً أعود لأبعث إليك بأحر أشواقي وأصدق دعواتي واسلمي لايمانك دائماً وأبداً يا أختاه.

زهراء

بسم الله الرحمن الرحيم

أختاه، يا شقيقة روحي المصطفاة يا أيتها الزهراء الغالية.

رعاك الله يا عزيزتي وحرسك لايمانك ابنة داعية ولأخواتك مرشدة هادية، كيف أنت يا أختاه؟ لكم أتمنى أن تكوني بخير وكم أدعو الله لك في مواطن الدعاء ومظان الاستجابة. اليوم صباحاً طالعتني رسالتك الحبيبة، وقد كنت ظمآنة إلى ذلك النبع الطاهر الذي أستقي معينه من خلال كلماتك يا أختاه. وفعلاً فقد كانت رسالتك كعادتك دائماً عندما تكتبين أو تتحدثين مشعل هداية ونبراس نور، فما أحوجنا لأن نكون نحن المؤمنات أساة لبعضنا وهداة فيما بيننا **﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾**.

عزيزتي، لقد دفعتني رسالتك لأن أراجع نفسي من جديد لأناقش معها قرارها في العزلة والابتعاد. ويسعدني أن أعترف لك بأنني توصلت إلى ضرورة الاستغناء عنه عسى أن أصبح بذلك إحدى وسائل الايضاح لتعاليم الاسلام، فإسلامنا يا أخيّتي في حاجة إلى وسيلة إيضاح عملية تحكي عما تهدف إليه وسائل الايضاح النظرية (القرآن والسنة) والآن يا عزيزتي دعيني أسألك سؤالاً واحداً وهو:

هل قرأت كتاباً خلال سفرك هذا؟ فإذا كنت قد قرأت كما أرجو فلماذا لم تذكري لي شيئاً عن ذلك وإذا لم تكوني قد قرأتِ كما أخشى فلماذا يا ترى؟ ان الجو الرائق والهواء العذب والطبيعة الساحرة هي مما يساعد على القراءة والكتابة كما استشعرت ذلك بشكل ملموس قبل أسبوع عندما ذهبتٍ مع بعض الأحباب والأصحاب في نزهة على ضفاف النهر، ولا أُخفي عليك يا عزيزتي بأنها أمليَتْ عليَّ إملاء واستجبت لها بدافع القيام بالواجب فلم تكن نفسي لتميل إليها من قريب أو بعيد، ولكنني هناك وبعد أن استقر بي المقام بين أشجار التوت والزيتون ومياه النهر تنساب أمامي في بعد واستمرار، تحمل معها الزهور تارة والأشواك أخرى ويطفو فوقها الزبد مرة والسمك مرة ثانية، وكأنها في ذلك تحكي مسيرة الحياة وما تحمل معها من آلام وآمال، وأشواك وأزهار، وزبد وما ينفع الناس عند ذلك أحسست بأنني أتوق إلى شيء كنت قد جفوته منذ أيام، فامتدت يدي إلى الجنطة تبحث عن ورقة بعد أن وجدت القلم ينتظرها في صمت واستسلام ووجدت ما أريد فكتبت هناك بعض صفحات جعلتني سعيدة في نزهتي بشكل لم أكن أتوقعه من قبل بعد أن استوحيت مما حولي خواطر لم تكن لتعرض لي لولاها، ولهذا فقد عدت راضية عن نزهتي غير برمة بها ولا قالية لتكرارها .

عزيزتي، ما أراني إلا وقد أطلت عليك، فإليك مني مزيد الحب والوداد وصادق الدعاء والأخاء، واستودعك الله الذي لا يخون الودائع .

أسماء

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزتي الأخت الغالية أسماء. لا عدمتك من حياتي ولا حرمني الله أخوتك الصادقة وعواطفك الخيرة. ما أشوقني إليك يا غاليتي فإنني لأجد أن قوى الطبيعة الخلابة مهما تضافرت على أن تنسي من يطرق بابها متطلبات روحه في أقرب اخوانه وأحبابه فهي لن تتمكن من ذلك على كل حال من الأحوال حتى لو كانت قوية في اغرائها، ساحرة في روعتها وبهائها ولهذا فأنا أحس نحوك ونحو أخواتي الأخريات بحنين جارف يجعلني أعيش معكن في أفكاري وتطلعاتي، ويدعوني لأن أنتظر يوم عودتي بلهفة واشتياق، لعلك تجدين أن رسالتي قد أبطأت عنك هذه المرة يا أسماء وذلك لأننا كنا قد قمنا بسفرة إلى بعض المناطق القريبة وقد صادف وصول رسالتك فترة غيابنا عن مستقرنا هنا يا أختاه. ولقد قمنا برحلتنا هذه على متن سيارة صغيرة استأجرناها لهذا الغرض، وفي الطريق كان السائق يقطع المسافات بسرعة هائلة وكأنه يحاول أن يسابق الريح أو يطارد الغزلان، وعندما طلبنا منه أن يخفف قليلاً من سرعته بدا عليه أنه غير مستعد لاجابة طلبنا. وهنا قال له برير: لنفرض أن أرواحنا رخيصة يا أخي ولكن ألا تخشى على سيارتك

من حوادث الاصطدام؟ فهز رأسه وأجاب بشيء من عدم الاهتمام قائلاً: لا، فهي مؤمَّنٌ عليها منذ اليوم الأول الذي تسلمتها فيه. وهنا استدار برير نحوي وهو يقول: هل سمعت يا زهراء؟ قلت: ماذا؟ قال: أنه غير خائف على سيارته هذه لأنها مؤمَّنة؛ ولأن شركة التأمين سوف تعوضه عن كل ضرر يصيبها، ولهذا نجد أنه يقودها باندفاع وانطلاق لم يكن ليحصل لولا هذا التأمين، فما هو الشيء الذي يوحيه لك هذا يا زهراء؟ قلت: أنه يحكي قصة الانسان والتأمين الرباني والعوض الذي يحصل عليه قبال أية خسارة في الأنفس والأموال: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنَ عَدُوٍّ نَيْلًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إنَّ اللهَ لَا يُضَيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. قال: ولكن شتان بين ذاك التأمين وهذا التأمين وبين ذاك العوض وهذا العوض! ان شركات التأمين لا تدفع العوض إلا بعد الكثير من وسائل الاثبات التي تستهلك من المال والجهد الشيء الكثير، أما التأمين الإلهي والعوض الرباني فهو يأتي تلقائياً ومضاعفاً أيضاً ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحُسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ ولهذا نجد أن الانسان المؤمن لا يمنى بخسارة مهما قدم من تضحيات. . .

واستمر برير يحدثني عن شروط عقد التأمين الإلهي وكيف أن بنوده لا تتكامل إلا إذا توافرت لدى المؤمن النقاط التالية:

الإخلاص في النية.

الاستقامة في العمل.

ثم بدأ يشرح معاني هذه النقاط ومستلزماتها، ولهذا فقد تمكن أن يصرفني كلياً عن التفكير في سرعة السير ووعورة الطريق ولم انتبه إلا ونحن على أبواب البلد المطلوب، وقد قضينا هناك أياماً ثلاثة رجعنا بعدها إلى مكاننا غير آسفين ولا نادمين لأن الإقامة هناك لم تعجبنا ولم تبعث في نفوسنا أي شعور بالراحة والسعادة، وقد وجدت رسالتك تنتظرني هنا فعوضتني بعذوبتها عن مرارة الأيام الثلاث، والآن، فما أحيلاك يا أخيَّتي وأنت تسألين عما أقرأ، وما أغلاك يا عزيزتي وأنت لا تريدين أن تهملي من أمر أختك شيئاً، إذن فاعلمي بأنني قد استصحبت معي دورة من (الميزان في تفسير القرآن) وأنا منهمكة على قراءته في جد، منصرفة إلى معانيه العملاقة في تأمل وتفكير، وقد بدأت أنقل عنه بعض المعاني والأفكار في دفتر خاص سوف أعرضه عليك عند العودة إن شاء الله. وختاماً أرجو من الله عز وجل أن يحرسك لإيمانك ابنة مخلصة ولاخواتك محبة هادية.

وإلى اللقاء إن شاء الله.

زهراء

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزتي زهراء، ألف سلام وألف تحية والمزيد من الشوق والدعاء.

ما أطول أيام الفراق هذه يا أختاه؟ فكأني بها لا تريد أن تنتهي ولا تحاول أن تنذر بالانقضاء، فوعينيك يا عزيزتي لولا ما أغرق به نفسي من المطالعة والكتابة لضعفت أمام لوعة الفراق ووحشة البعاد. أسأل الله عز وجل أن لا يفرق بيننا وأن يحمي بعين جلاله هذه الوحدة الروحية والفكرية التي تشدنا إلى بعض خلال مسيرة الحياة.

لقد كنت أمس في زيارة لبيت صديقتنا دنيا، وقد كان هناك مجموعة من الزائرات ممن لم أكن أعرف عنهن شيئاً، ولا أكذبك يا أختاه إذا قلت أنني كنت ضجرة من جلستي تلك وقد حسبت إلى فترة أنها سوف تكون حسرة عليَّ في يوم القيامة لخلوها من ذكر الله. ثم دار الحديث حول المعنى في اسم دنيا فكنَّ بين محبذات لهذا الاسم ومستهجنات حتى قالت إحداهن: إن اسم الدنيا يوحي لها بتذكر السجن فتساءلت في استغراب: ولماذا هذا الايحاء؟ وهل هناك أوسع

من الدنيا وأرحب؟ قالت في شيء من التحدي: أو ليست الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر! فإما أن نكون مؤمنات فنصبح في سجن وإذا أردنا أن نعيش في جنة أصبحنا كفاراً وخسرنا جنة الخلد! قلت لها: على مهلك عن هذه الثورة يا أختاه، ودعيني أفسر لك أولاً ما يعنيه هذا الحديث، ثم أخذت أشرح لها كيف أن السجن للمؤمن هنا نسبي كما أن الجنة للكافر هي بالنسبة أيضاً، فلو تحققت جميع نعم الدنيا للانسان المؤمن لكانت نسبتها لما ينتظره من نعيم الآخرة كسجن لا أكثر ولا أقل، ولو افتقد الانسان الكافر جميع نعم الدنيا لكان وضعه البائس هذا كجنة وارفة إذا قيس إلى العذاب الذي ينتظره في حياته بعد الموت.

عزيزتي، لعلك رأيت كيف أنني حققت لنفسي غايتها عن طريق ذكر الله خلال تلك الجلسة، وعندما عدت إلى البيت طالعتني رسالتك العزيزة بعد أن كنت أترقب وصولها منذ أيام، فقد أبطأت عن سطورك هذه المرة يا أختاه، وقد حمدت الله على سلامتك وسألته لك دوام الراحة والسعادة. وكم أعجبني حديثك عن التأمين الرباني والتعويض الإلهي، فإن هذا التعويض الذي تحدثتِ عنه هو الذي يمكن الانسان أن يقف باسماً وسط الدموع، وأن يشرق على وجهه شعاع الأمل وهو في معترك من العتمة والوحشة، وأن هذا التعويض الذي تحدثتِ عنه هو الذي يساعد الانسان المؤمن أن يفتح صدره للآلام في رحابة وأن يمهد قلبه لمرامي السهام برضا

واقتناع وليس بيأس واستسلام، وان هذا التأمين الذي تحدّثتِ عنه هو الذي يحيل مرارة الحياة إلى حلاوة وعلقمها إلى بلسم وشدتها إلى لين ودعة وقساوتها إلى رحمة وحنان، وإن هذا التعويض الذي تحدثتِ عنه هو الذي ينبغي أن يكون الهدف الرئيسي والرجاء الواقعي في حياة كل مؤمن، فما أصعب الحياة عند من لم يتطلع إلى هذا الرجاء. وما أوعر مسالكها بالنسبة لمن لم يمهد له هذا الرجاء منعطفاتها، وما أشد عتمة ممراتها أمام من لم ينر له هذا الرجاء جوانبها. (سبحانك ما أضيق الطرق على من لم تكن دليله). زينب وصالحة وإنعام يبعثن إليك بأعطر تسليماتهنّ ودعواتهن، وقد رفضت إنعام أمر تعيينها الذي صدر منذ أيام وذلك من أجل أن تتفرغ لمسؤولياتها الدينية وتربية نفسها وأطفالها الصغار.

أسماء

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزتي أسماء لا عدمتك،

حرسك الله ورعاك يا أُختاه، وسدد في طريق الحق خطاك. سلام الله عليك ورحمته وبركاته، وسلامي وأشواقي، وحبي ودعائي. كيف أنت يا عزيزتي؟ أرجو أن تكوني سعيدة مرتاحة. أما أنا، فلو كنت أديبة أُطعِّم رسائلي بكلمات الوصف والتشبيه لقلت أنني إليك في شوق جارف. وأن حنيني اليك كحنين الزهرة للندى وحاجتي إليك كحاجة الروض للربيع، وظمأي إلى لقياك كظمأ الرضيع إلى صدر أُمه. نعم هكذا كنت سوف أكتب إليك لو أردت أن أصور لك الجانب العاطفي من جوانب نفسي بأسلوب أدبي يا أختاه، ولكنني وكما تعلمين جيداً يا أسماء لست أديبة ولا أريد أن أقحم نفسي على الأدب إقحاماً، ولهذا ولأجل أن أتجنب مغبة الخوض فيما لا أعرف ولا أجيد أدع الحديث عن وصف الشوق جانباً تاركة لك أن تسألي عنه قلبك، فلا شك أنه به خبير ودعيني أحدثك حديث نزهتنا أمس. فقد خرجنا

قاصدين عيناً من عيون الماء ينحدر شلالها من أعلى قمة في الجبل وقد اخترنا أن نمضي نحوها راجلين فان السير هنا ومع هذه الخضرة الزاهية في الأرض والزرقة الصافية في السماء أصبح هوايتنا المفضلة خلال هذه الأيام، وكنا ننحدر نحو الوادي انحداراً بطيئاً حتى وصلنا إلى نهايته. وهناك ومن بين الصخور كانت تنبثق عين ماء باردة تنساب في خرير محبب وجلسنا عندها نشرب من معينها العذب تارة ونغسل وجوهنا منه أخرى، ثم تلفتُّ نحو الصخور الصلداء التي تلتف حولها ثم ترتفع صاعدةإلى قمة الجبل، فوجدت على بعضها خطوطاً محفورة، فانصرفت إلى محاولة فهم شيء عن طبيعة تلك الخطوط ثم تساءلت قائلة: أترى أن هذه المنحوتة قديمة العهد يا برير؟ قال: نعم ولعلها جد عميقة في القدم! قلت: إذن كيف أمكن لها أن تحتفظ ببقائها طيلة هذه المدة يا برير؟ ثم أنها عملية صعبة، عملية نحت هذا الصخر الأصم، قال: لا شك أنها صعبة جداً يا أسماء ولكن لولا تلك الصعوبة لما بقيت هذه الخطوط منقوشة على صفحة الصخور، ان الانسان عندما يحاول أن يفتح ليده مكاناً وسطاً يحدث ذلك بسرعة وسهولة، ولا تكلفه تلك العملية أي مجهود، فها هو النهر ينساب أمامه برفق، وها هي موجاته تتدافع في هدوء وليس عليه إلا أن يمد يده ليفتح لها مكاناً بين ثناياه، نعم أن ذلك سوف يتم بسهولة فائقة ولكن ما هي النتيجة؟ أنه في اللحظة التي يسحب فيها يده من الماء سوف يتلاشى أثرها وينمحي،

فلا يبقى للمكان الذي فتحته لها أي عين أو أثر. أن الماء يسير ويسير ويتبدل ويتغير ويملأ كل فراغ يجده أمامه، فلا تعود تلك العملية (عملية فتح مكان لليد داخل الماء) إلا محاولة فاشلة لا تعني شيئاً سوى عبث ساعة، ولكن هذا الانسان عندما يحاول أن ليـده مكانـاً وسط صخرة صلبـة متحجرة كم سيكلفه ذلك من جهد؟ وكم سوف يتطلبه من وقت؟ وما أكثر ما يملأ عرق يديه تلك الحفرة التي يحفرها بين الصخور، وما أكثر ما تلون تلك الحفرات قطرات من دماء أراقتها أصابعه وهي تشق الصخرة في ثبات وإصرار، وما أكثر ما يسهر الليالي لذلك وهو مجد في العمل حتى يطلع النهار، ثم تتكامل العملية ويتمكن من فتح مكان ليده وسط هذه الصخور الصماء. فأية نتيجة رائعة سوف تبدو أمامـه وتبرز للوجود؟ وأي واقع مريح سوف ينسيه آلام التعب وأيام النصب؟ أية سعادة سوف تشرق على جنبات روحه فتجعله يستهين بما أراق من عرق وبما خسر من دماء؟ ذلك أنه سوف يجد المكان الذي فتحه ليده عن طريق العرق والدماء والسهر والاعياء، سوف يجد هذا المكان كيف يبقى ثابتـاً مفتوحـاً لاستقبال يده في كل حال من الأحوال وكذلك سوف يعلم أن هذه الصخرة لن تتمكن أن تمحو عنها آثار يده بل أنها تحتضنها لتحكي بذلك قصة كفاحه لكل جيل من الأجيال.

إن هذا هو الفارق بين عمل يتكامل بسهولة ثم لا يترك أثراً وعمل لا يتم إلا بالمصاعب والآلام ثم تبقى آثاره خالدة

على مر العصور. وهنا سكت بـريـر وانصـرفت أنا لنفسي أراجع معها تصاعد نسبة العمل مع تصاعد الجهد والتعب الذي يواكبه ويماشيه واستعدت في ذهني الآية الكريمة التي تقول: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾، فما أحوجنـا يا أسماء لأن تكون أعمالنا مما ينفع الناس لكي تحمل معهـا مقومات البقاء والاستمرار.

وأخيراً أتمنّى لك أياماً صـالحة وأفكـاراً خيرة واسلمي لايمانك ولي، وإلى اللقاء إن شاء الله.

زهراء

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزتي زهراء لا عدمتك يا أختاه،

ما أروع التوقيت الزمني الذي أطلت به عليَّ رسالتك! فقد كنت في حاجة ماسة إلى شيء يبعث في نفسي بعض الدعة أو يهبني القليل من الراحة بعد أن كنت قد اجتزت مرحلة قاسية في حساب الأحاسيس والأفكار. وقد مرت عليَّ أيام حملت لي معها الكثير الكثير من صنوف الأسى والعذاب والمرارة واليأس، وقد وقفت حائرة أتساءل مع نفسي بمرارة قائلة: كيف يتمكن الانسان أن يضحك والدنيا من حوله باكية، وأنى له أن يبتسم وهو يعيش دنيا حزينة؟ وعن أي طريق يستطيع أن يحمل روحاً مشرقة ونواقيس اليأس تدق في سمعه ليل نهار؟ أنه سوف ينهار ولا شك، ولكن... قد يوجد من يأبى الانهيار! نعم قد يوجد هذا الانسان، ولكنه في حاجة إلى سلاح يمكنه من مقاومة معاول الهدم التي يتعرض لها خلال تيارات الحياة. أنه يتوق إلى الصمود ويفتقد مقوماته ودوافعه ولهذا يجد نفسه ولا مناص من الاستسلام..

وبينما كنت أتساءل وجدت الجواب! وجدته في كلمات سماوية التقطها سمعي من مقرىء للقرآن الكريم: ﴿وَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ فانجذبت نحو هذه الآية ووجدت من خلالها منافذ من نور كشفت عن غطاء الحيرة والتيه وعرفت أنه الايمان، والايمان هو سلاح الصمود والاطمئنان إلى الرحمة الإلهية العاجل منها والآجل، وهو من أهم مقومات الاعتدال في المشاعر والسلوك، فالإيمان يحيل اليأس إلى رجاء، والعسر إلى رخاء، والخوف إلى أمن ورضاء، ما دام الانسان المؤمن يعلم أن جميعها في عين الله . . .

ثم توصلت إلى نتيجة حتمية لطبيعة الانسان المؤمن وهي أن يكون التفاؤل من صفاته ما دام واثقاً من الله متكلاً عليه قانعاً بما لديه، منصرفاً عن المزيد، راضياً بما يمر به أو يمر عليه. ولهذا فقد أخلدت إلى بعض الهدوء وتفاءلت أن هناك ما ينتظرني ليهبني الراحة مما أعانيه، ولهذا فقد كان لرسالتك أروع الأثر في نفسي لأنها كانت إحدى بوادر تحقيق نظرتي المتفائلة. والآن، يا غاليتي أرجو أن لا يقلقك ما كتبت فهي هموم عابرة استطعت أن أتغلب عليها بقوة الايمان والعقيدة. لك مني اسمى آيات الحب والوفاء.

أسماء

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزتي أسماء، يا غاليتي المصطفاة، وشقيقة روحي المنتقاة، لا عدمتك.

تحية قلب مشوق، وسلام روح لهفى أبعثها إليك مع كل خفقة قلب داعية الله تعالى أن يشملك بعين عنايته دائماً. كيف أنت الآن يا أُختاه؟ أرجو أن تكوني قد تخلصت من آثار المرارة والألم وتغلبت على علقمها بحلاوة الصبر والايمان. فهكذا هو حال الانسان المؤمن الذي يعلم أن جميع آلامه ومتاعبه في عين الله، هذا العلم يهبه مزيداً من الصمود ويفتح أمامه العديد من نوافذ الأمل والرجاء، ويثبِّت أقدامه في مسيرته مهما بعد بها الطريق أو أوعرت أمامها المسالك. لقد أوحى الله تعالى إلى موسى وهارون أن: ﴿إذْهَبَا إلىٰ فِرْعَونَ إنَّهُ طَغىٰ. فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً. لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشىٰ. قَالا رَبَّنا إنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ يَطْغىٰ. قالَ لا تَخافا إنَّني مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾. بمثل هذه الكلمات الإلهية أرسل الله عبدين من عبيده إلى فرعون. ويبدو لنا من سياق الآيات

الكريمة أن الموقف كان رهيباً ومخيفاً، وأن النتائج كانت غير واضحة لدى الرسولين والعواقب غير مطمئنة. فهو قد يطغى فيزداد بذلك عتواً وإلا لما تسرب الخوف إلى قلبين اختارهما الله ليكونا نبيين في الأرض، رجلين مستضعفين يدخلان على أعظم جبابرة الأرض وأكبر طواغيتها، المتردي زوراً برداء الربوبية. المتطاول بهتاناً إلى عرش الألوهية يذهبان إليه ليقولا له قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولهذا فقد كانا بحاجة إلى ضمان أقوى وشد أكبر مع كل ما تنطق به طبيعة الجهاد لديهما كرسولين فقالا: أننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى، فما هو المد الألهي الذي جعلهما يذهبان إلى فرعون لا يليان على خوف أو وجل؛ إنه شعورهما بوجود الله معهما ومواكبته لخطوات جهادهما. ولم يكن أقدامهما بعد إحجامهما بسبب من أن الله وعدهما أن يدفع عنهما الأذى. أو أنه تبارك وتعالى سوف يقيهما ويلات الردى. أبدا. لم يعدهما الحق جل شأنه بشيء من ذلك ولكنه قال عز من قائل: لا تخافا أنني معكما أسمع وأرى. كان هذا يكفي، ما دام الله يسمع ويرى فهما على أستعداد تام لخوض كل مهول واقتحام كل صعب وشديد، نعم. إن هذا يكفي ما دام كله في عين الله، ان يشعر الانسان المؤمن أنه سائر في طريق رسمه له الله عز وجل والراسم أعرف بذلك الطريق، وان يطمئن الفرد أنه عامل من صعيد حدد الله له أبعاده والمحدد يعلم باختلاف طبيعة الأرض وما فيها من صخور وأشواك ووديان ووهاد،

إذن، فأن يكون الله مع الانسان المؤمن لا يعني أن يفرش له طريقه بالزهور أو يؤرجها بنسمات العطور فان سعادة الانسان المشمول بعين عناية الله تنحصر في لذة إحساسه بـذلك الشمول وهل هناك أصدق من هـذه وأسمى؟ إذن فنحن نستشعر معنى السعادة حتى ولـو كنا نعيش الألم أو نحي العذاب أليس كذلك يا أختاه؟ فالانسان المؤمن يا عزيزتي عندما ينطلق في مسيرته نحو الله قد تصادف انطلاقته تلك بعض العقبات فتعكر سيره وتحول بينـه وبين المضي تـارة وتشمل وجوده العام أخرى، ولعله يقف حائراً ليتساءل لماذا؟ لماذا كل هذا يا رب؟ ألست سـائراً في طـريق رسمته لي وحددت أمامي معالمه فانطلقت نحوه في مزيد من العزيمـة والاصرار ولكن. . . ! هذا الانسان عندما يسير في طريق الله عليه أن يعرف أن الوصول إلى النهاية ليس بالشيء الهين لأن النهاية كبيرة وكبيرة جداً وأنها لسعيدة وسعيدة إلى حد بعيد ولهذا فأن الوصول إليها يتطلب المزيد من البلورة الروحية ويحتاج إلى العديد من مراحل الاعداد. . . أن المعالم التي يراها خلال مسيرته نحو الغاية ليست سوى اليقين، الجهاد، الصمود، الاخلاص. فكيف سوف يتمكن أن يؤكد شمول كل هذه العناوين له قبل أن يتعرض لدواعيها وأسبابها أو دون أن يمر بما يستوجب بروز حقائقها في حيـاته وإثبـات جدارته لاستقبال تلك الحقائق في رحابة صدر ومزيـد من الرضا، نعم كيف يـأمل أن يصـل إلى النهايـة حيث قمة

السعادة التي لا تعب فيها ولا نصب لا سأم فيها ولا ملل دون أن يتعرض لقليل من متاعب الصمود؟ نعم أنها قليلة مع كثرتها ضئيلة مع عظمتها إذا قيست إلى سمو النتيجة المطلوب يالله... كم هي عظيمة وكم هي كبيرة! وكم هي رائعة! وهكذا تقرر لنا هذه الحقيقة أن صعوبة المقدمات تتناسب دائماً مع عظمة النتيجة... وأخيراً وليس آخرا يسرني أن أخبرك يا عزيزتي أن أيام سفرنا قد أوشكت على الانتهاء وسوف نكون عندكم خلال أيام الأسبوع القادم إن شاء الله فإلى اللقاء استودعك الله الذي لا يخون الودائع واسلمي لايمانك ولي وإلى الأبد.

زهراء

بسم الله الرحمن الرحيم

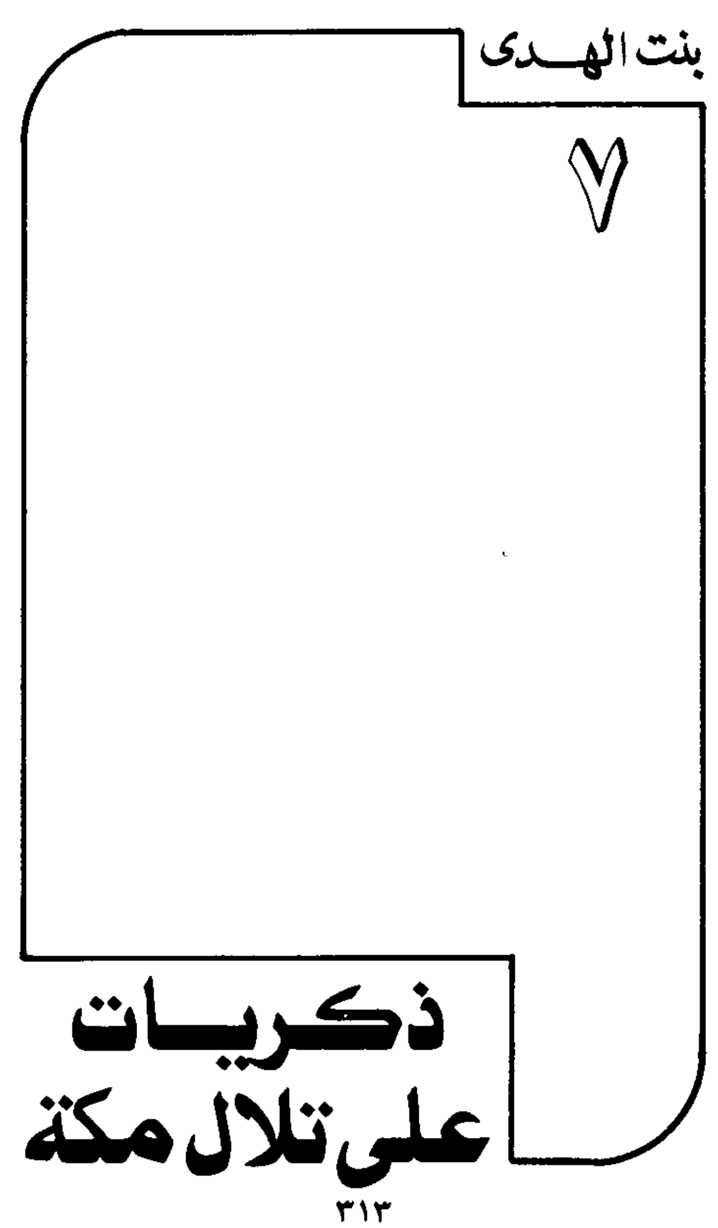
عملية جراحية

حدث ان افتقدت اخلاص. صديقتها وفاء الى فترة وما كانت قد عودتها على الغياب من قبل، فهي بالنسبة اليها احدى دعائم الحياة لأنها لم تكن تفهم من حياتها غير ان تستحيل الى بناء صالح ثم تغدو عطاء اخيرا، وصديقتها وفاء. كانت بالنسبة اليها عاملا مهما يدفع بها نحو الكمال، فهي تسندها ان تهادت وتعاتبها ان أساءت وتنبهها ان غفلت او تباعدت كانت لها كمرآة تعكس لها عيوبها برفق وتنبهها الى نقاط الضعف التي لديها في مزيد من النصيحة والاخلاص ولهذا فقد كان من حقها ان تستشعر الوحشة لغيابها وان تحس بالضيعة الروحية وهي تفتقد المنار الذي كان يهديها كلما تعرضت للتيه، ومهما حاولت ان تنتظر وجدت ان الانتظار سوف يكلفها من الخسارة الروحية الشيء الكثير، فتوجهت لتتساءل في لهفة صادقة ممن لعله يتمكن ان يحمل اليها من اخبار وفاء ما يروي لديها هذا الظمأ الصادي الى ذلك النبع الرقراق، فاذا بها لا تجد من يعلم اولا تجد من تظن انه يعلم

او يفهم فاندفعت بنفسها تبحث عن ضالتها التي افتقدتها وافتقدت معها صمام الامان لروحها السائرة في طريق الله، ودخلت عليها لتجدها قائمة باسمة وان كان الشحوب قد لوَّن وجهها بصبغة باهتة فاندفعت نحوها لتطبع على جبينها قبلة ايمان صادقة وهي تقول، اي غيبة هي هذه يا اختاه؟ واي انقطاع أبعدك عنّا كل هذه الفترة القاسية من الزمان؟ ما اراك إلا بخير فما الذي حال بينك وبيننا يا اختاه؟ وهنا سمعت الجواب هادئاً رصيناً. هينا رحيما وهو يقول انها عملية بسيطة يا عزيزتي؛ قالت اخلاص: آه عملية! عملية جراحية، ولكن اين ومتى ولاجل اي شيء؟ قالت وفاء: ما اراك إلا وقد حشرت مجموعة من الأسئلة يصعب الجواب عليها معا، فلنأخذ السؤال الاول الذي هو عبارة عن (أين) لأقول لك: في البيت! فاستفزها الجواب ورددت في استغراب. في البيت؟ ولكن من هو الجراح الذي تمكن من ذلك واين هو موضع الألم يا ترى؟ وما اراك إلا سليمة والحمد لله؟ قالت وفاء: ها انت قد عدت الى مزج الأسئلة من جديد فلأجيبك على طريقتك في السؤال، اما الجراح فهو أنا يا عزيزتي واما موضع المرض فهو غير ظاهر للعيان.. قالت وقد خيل اليها ان صاحبتها يلذ لها ان تمزح معها الى فترة. قالت: ومتى اصبحت جرّاحة وما عهدناك إلا الامر شدة عند ذلك سمعت تلك النبرة الرصينة تتكلم بجد لا يخامره الهزل وهي تقول: ان كل انسان يجب عليه ان يكون جرّاحا

لنفسه يا اختاه، ألم تسمعي بذلك الانسان الذي يستلم لمبضع الجراح ليخلص من غدة صغيرة او يبعد عنه قطعة من لحم او عظم فاسدة؟ فلماذا يصنع ذلك يا ترى؟ لماذا يسلم حياته الى انسان آخر يعمل فيها بمبضعه كما يشاء؛ انه يريد ان يتخلص من آفة تنهك جسمه. وهو يريد ايضا ان يحصن ذلك الجسم ضد سيطرتها عليه، هذا بالنسبة لآفات الروح. عند ما شعر الانسان ان يحمل بين ثنايا روحه وفكره زوائد غير مرغوب فيها وهي قد تحول بينه وبين طريق السعادة الذي يسير نحوه، عند ذلك يتحتم عليه ان يسارع في العمل على التخلص من تلك الآفات ولكن عن اي طريق؟ انها العملية الجراحية، باختلاف ان يقوم عقله في تلك العملية مقام الطبيب الجراح. ويعمل ايمانه عمل ادوات الجراحة والتخدير. ويؤدي البيت وبعض العزلة مهمة المستشفى وردهات التمريض. ولهذا فانا لم أكن مازحة ولا مغالية قلت لك ان انقطاعي عنك كان بسبب من عملية جراحية وكأن خبر هذه العملية الجراحية قد اثار اهتمام اخلاص. ولهذا قد كانت تستمع الى صديقتها وفؤادها يخفق اشفاقا ودموعها تستهل خشية وحذرا: ثم انطلقت منها كلمات تعبر عن اللهفة والترقب وهي تقول: والآن كيف انت يا اختاه؟ اتراني اتمكن ان اهنئك على السلامة المتوخاة وانتظرت لحظات دون ان تسمع الجواب وكانت لحظات قاسية بالنسبة اليها. فلم يكن من السهل عليها ان تجد اعز صديقة لديها وهي

تعاني اخطر الأمراض! ولكن فترة الانتظار لم تطل جدا في حساب الزمن وإن طالت في حساب الروح فقد جاء الجواب هادئاً وهو يقول: نعم أرجو ان أكون أهلاً لذلك، وهنا حمدت اخلاص الله في سرها ولكن أترها كانت تكتفي بذلك الحمد فقط؟ لقد شعرت أنها أمام درس عليها ان تستثمر معارفه قبل أن يفوت ولهذا تساءلت قائلة ولكن كيف تمكنت أن تتعرفي على سلامتك يا أختاه؟ قالت : أنها الحوادث يـا عزيزتي هي التي عرفتني عـلى مواطن الداء . وهي التي طمـأنتني على فائـدة الدواء . أو ليست الأحـداث هي اعظم مبضع لشخصية الإنسـان؟ قالت اخلاص : نعم ولكن لا تنسي مبضع الجراح أيضـاً يا وفاء .


بنت الهدى
٧
ذكريات
على تلال مكة



بسم الله الرحمن الرحيم

وأخيرا . . .

بدت خيوط الفجر المضيئة لتنـذر بميلاد يـوم جديـد، واليوم يختلف تأثيره في حياة الانسان مع اختلاف ما يضم بين ساعاته من عطاء وما يحمل لمن يمد بهم أو يمد عليهم من فائدة ورواء، ولهذا . . فقد يطول اليوم ويطول تبعا لامتداد آثاره التي يتركها في حياة الانسان وقد يكون قصيرا جـدا ينتهي مع انتهاء ساعاته المعدودة.

ويومنا ذاك . . كان حريا ان يكون طويلا بآثاره خالدا بعطاءاته.

ثم . . انطلقت بشائر الصبح لتعلن النهاية لساعات الليل التي كانت طويلة بدقائقها اذا قيست بما ضمت من افكار وما حملت من آمال وآلام، وقصيرة بالنسبة لساعات النوم التي تقلص عددها خلالها الى النزر القليل . . وكان الصباح نديا بقطرات المطر مظللاً بقطع السحاب الشيء الذي جعله غير

مشرق في مظهره الخارجي وان كان في واقعه يحمل معاني اشراقة الرحمة وهو ينفتح عن فترة زمنية تنطلق بها ارواح المؤمنين في مسيرتها نحو الله ملبية في ترجيعها ذلك النداء الخالد الذي أمر الله عز وجل به نبي الله ابراهيم اذ قال عز من قائل:

(واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق..)

وكان علينا ان نغادر البيت متوجهين نحو المطار، فوقفت لالقي نظرة اخيرة على ما اعددته من متاع للسفرة الطويلة البعيدة الاغوار خشية ان يكون هناك ما أهمل أو أغفل ولم تكن مجموع الامتعة لتتعدى.. حقيبة واحدة فماذا عسى ان يصحب معه ذلك الانسان الراحل الى بيت الله؟ أوليس هو منطلق للحج نحو بيت كان خلال نشأته الاولى بواد غير ذي زرع؟ نعم اوليس وهو منطلق نحو تلك الرحاب يعيش مفهوم دعاء نبي الله ابراهيم حينما يقول:

(رب اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة).

وهكذا كان..

فقد بقي هذا البيت كعبة للمسلمين في مشارق الارض ومغاربها تندثر الحضارات وتتلاشى مع كل ما تحمل معها من جلال وشموخ ويبقى هو خالدا مع خلود الدهر شامخا مع

شموخ الحق، اذن.. فماذا عسى ان يحمل معه هذا الذي طمح باماله الى المثول في تلك الرحاب؟ بعض متطلبات الحياة الضرورية مع قرآن كريم. وكتاب دعاء، ومنسك لاعمال الحج. ومصباح صغير لجمع الحصى من المشعر. ثم دفتر للخواطر وقلم للكتابة. وجواز سفر اخضر وجواز صحي اصفر!!!

ووقفت اتاكد من وجود هذه الاشياء وأضع الجواز في مكان قريب لانه هو الذي يفتح امامي مغاليق الحدود ومن تلك الوقفة انطلقت بافكاري الى.. ما أعددته من متاع لسفري الطويل فسفرتي هذه كان من المفروض لها ان لاتتجاوز السبعة عشر يوما، أما تلك السفرة فهي طويلة وطويلة جدا عميقة وعميقة الى حد بعيد.. انها بدون عودة. وبدون خط رجعة انها نقلة من هذه الحياة الفانية الى حياة أبدية باقية، فما احوجها الى متاع وما احوجني خلالها الى زاد؟.. لنفرض مثلا انني نسيت حاجة او اهملتها فان من السهل اليسير علي ان اعوض عنها بما أجده هناك ولكن خلال سفرتي تلك حيث لاعودة بعدها ولا رجعة فماذا عساي ان اصنع ان وجدت نفسي قد اهملت حمل الزاد او تجاهلت اهمية المتاع؟؟..

عندما اعلن لنا(متعهد القافلة)ان علينا ان نصحب معنا غطاء بادرنا الى حمل ذلك بدون ابطاء فلماذا؟ لانه خبير

بطبيعة الجو. . ولانه هو الذي سوف يقوم باحضار جوائجنا فيعلم ما سوف يهيؤه لنا وما علينا ان نعده لانفسنا ولكن. . عندما نسمع الى الرسول الاعظم وهو يتلو علينا آي الكتاب قائلا« وتزودوا فان خير الزاد التقوى »نسمع بدون استماع. . ونقرأ بدون اقتناع. . ونطمع بالمغفرة بدون زاد. . عجيب!! فهل ترانا كنا نأمل بالدفء في سفرتنا تلك بدون غطاء؟ هل كان من الممكن ان نقول ان المتعهد رجل كريم فلنذهب معه بدون غطاء وهو لاشك سوف يهيىء لنا ما يدفع عنا غوائل البرد؟! أبدا ان هذا غير معقول لانه غير مسؤول عن ذلك ما دام قد أنذرنا واعلمنا بما لنا وما علينا. .

أما ما أمرنا الله به من زاد وما أوصانا بحمله من متاع فنحن نتجاهله ونتناساه ثم نعيش على امل ان يغفر لنا الله برحمته ويشملنا برضاه!!!

* * *

وارتفعت بنا الطائرة. . بعد ان عقدنا نية الاحرام ونحن لانزال على ارض مطار بغداد ورددنا كلمات التلبية قائلات« لبيك اللهم لبيك، لبيك لاشريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك، لاشريك لك لبيك ». .

ورأينا الشمس تشرق علينا صافية نقية تهبنا الدفء وتغمرنا بالضياء فاستغربنا ذلك وقد كانت الغيوم تظللنا قبل

دقائق وترشنا بقطرات متلاحقة من المطر! فهل ان في الامكان ان يتغير الجو في مثل هذه السرعة؟ وما أبعد البون بين هذه الشمس الدافئة التي تشرق تحت سماء نقية صافية. . وبين ذلك الضباب الذي كان يشمل جوانب انظارنا قبل قليل؟ حقا انه لأمر عجيب! هذا التحول الطارىء على صفحات السماء وهذا التبدل الحادث في أعالي الافق! أولم نكن نتطلع الى السماء نبحث فيها وبين طبقات السحب التي تحجبها عن اثر الشمس؟ اولم تختلط قطرات المطر مع دموع المودعين ويتجاوب انين الريح مع زفرات المفارقين؟ فكيف حدث هذا يا ترى؟ أهو استجابة لدعاء داع ابتهل الى الله قائلا: يا محول الاحوال حول حالنا الى أحسن حال. . أم ماذا؟؟ واخيرا اكتشفنا الحقيقة فعرفنا ان الطائرة قد ارتفعت بنا فوق السحاب اذن فنحن الذين ارتفعنا عن السحاب وأمطاره وليس السحاب هو ذلك الذي انكشف عنا بتحول سريع، فما أحلى ذلك وما أروع ان نكون محلقين باجسامنا في فضاء نقي وتحت شمس صافية الضياء تاركين وراءنا متاعب المطر ومصاعبه وقد كشف لنا ذلك الموقف حقيقة ما اكثر من يجهلها منا. . وهي. . ان الانسان يتمكن من الارتفاع بروحه وفكره عن سحب الريب وغيوم الجهل والانحراف، نعم يرتفع بروحه عنها ليستنقذها نقية طاهرة دون ان تعلق بها شائبة او يلوثها درن من الادران. . فهو يستطيع ذلك لو اراد حتى ولو عاش في أجواء مظللة بالغيوم ثم توصلنا الى حقيقة

ثانية ايضا.. وهي.. ان على الانسان ان يسعى نحو مطلع النور بأي ثمن وان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ولا يحول الانسان من الظلمات الى النور الا اذا شاء هو ذلك وعمل من أجل ان يكون مؤهلا لذلك التحويل، فما أحلى ان نحلق بانفسنا في سماء نقية كما حلقنا بأجسامنا خلال رحلتنا بأجسامنا خلال رحلتنا تلك، وما أروع ان نلتفت فنجد ذاتنا وقد تنزهت عن الرذائل وحلقت في سماء الكمال تاركة وراءها ويلات الانحراف وآفات السقوط كما تركنا وراءنا ونحن في الطائرة الارض المغطاة بالوحول والآفاق الملبدة بالغيوم.

وبعد مضي مائة دقيقة أعلن لنا عن قرب هبوطنا الى مطار جدة، وذلك يعني اننا سوف نكون بعد يوم أو يومين في مكة.. فما أعظم هذه الحقيقة وأضخم ما تعنيه وترددت في ذهني وعلى فمي هذه الابيات..

قالوا غدا نأتي ديار الحمى
وينزل الركب بمغناهم
فكل من كان مطيعا لهم
اصبح مسرورا بلقياهم
قلت فلي ذنب فما حيلتي
بأي وجه أتلقاهم
قالوا أليس العفو من شأنهم
لاسيما عمن ترجاهم

فجئتهم أسعى الى بابهم
أرجوهم طورا واخشاهم

* * *

واستقرت بنا الطائرة على ارض مطار جدة بعد ان دارت فوق مدارجه دورات طويلة، فحمدنا الله على سلامة الوصول وحسن التوفيق.. ثم تطلعت انظارنا نحو الباب تترقب الاذن بالنزول. ومضت دقائق طوال لانها كانت مشوبة بالانتظار.. ومن خصائص الانتظار مهما كانت انواعه وبواعثه واسبابه من خصائصه ان يضفي على الوقت مطاطية هائلة فيضاعف ادراكنا بأهميته الى اضعاف كثيرة ومضت فترة ثم طلب منا ان نبرز جوازاتنا الصحية! فأمسك كل منا بجوازه(الاصفر)بين أنامله وكأني انسان خرج لتوه من احدى المصحات وبقينا نتطلع نحو الباب في مزيج من اللهفة والضجر وبنظرات تنطلق بالاحتجاج.. واخيرا انفتح باب الطائرة عن رجلين صعدا ليطمئنا على سلامة القادمين من الامراض (الوبائية)فتفحصا معظم الجوازات ومن العجيب اننا كنا ممن لم تصل اليهم عملية التفتيش، وكأن سلامتنا بدت واضحة جلية دون معاينة ومزيد تدقيق.. فكيف حصل هذا؟ ولماذا ألسنا مثل باقي المسافرين؟ انه عدم الاخلاص في العمل والاهمال لااكثر ولا اقل! والجواز الصحي عن أي شيء كان يحكي يا ترى؟ انه كان يحمل شهادة التطعيم ضد

الهيضة وضد الجدري، ولم يكن هناك اي احتمال ان احد المسافرين مصاب فعلا بمرض الجدري او مرض الهيضة، لا.. ولكن المطلوب التطعيم الوقائي وهو التأكد من أن هذا المسافر الوافد قد حصن نفسه عن التعرض لهذه الامراض أخذ المسافرون بالهبوط.. وبقيت جالسة انتظر خلو السلم من الزحام فبدأت أفكر.. تذكرت نزولي في مقري الاخير والجواز الصحي الذي أسال عنه من منكر ونكير وأهمية كل تطعيم وقائي يشير اليه ذلك الجواز، انهم يطالبونني بشهادة التلقيح ضد أمراض عديدة، هذه الامراض التي يعاني المجتمع من ويلاتها الشيء الكثير نعم هذه الامراض التي لا تتولد لدى الانسان نتيجة ضعف جسم او قرب من المصابين وانما هي وليدة ضعف الايمان وتحلل الشخصية، انها وليدة الذوبان في شخصيات الآخرين مهما كان هؤلاء الآخرين منحرفين اومبتذلين او متذبذبين.. انه مصل وقائي يهب للانسان حصانة تقية ويلات السقوط.. نعم. ان الانسان ليسأل في مقره الاخير عن روحه لماذا اطلقها وراء رغباتها بغير رقيب وعن فكره لماذا جعله يتجه حيث شاء دون تهذيب؟ وعن قلبه كيف أهمله فجعل آماله وأمانيه تنمو اوراقها وتمتد فروعها كالشجرة التي تفتقر الى التشذيب؟ انه ليطالب بجواز صحي ومن أين له ذلك الجواز؟ الا اذا كان خلال حياته قد عمل على الوقاية وباشر عملية التطعيم ان الموظف السعودي قد يهمل او يغفل كما اهملنا او غفل عنا.. أما هناك.. حيث يتلقانا ملائكة

الله الموكلين بفحص (جوازاتنا الصحية)فليس فيهم من يغفل عن صغيرة كانت او كبيرة لانهم« ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » . .

* * *

وهبطنا الى مطار جدة . .

فكان هناك مجموعة من المسافرين قد اصطفوا على شكل نصف دائرة منفتحة استعدادا لالتقاط صور تلفزيونية فانتحينا عنهم جانبا . . فقال لنا قائل: هلا تفضلتم بالاشتراك؟ انه فلم تلفزيوني يعرض على الشاشة كأثر مرئي لهذه الرحلات!! وودت لو أرد عليه قائلة: نحن ايضا في حالة التقاط صور . . ولكن اتراه كان يفهم ما الذي اعنيه وبهذه العجالة؟ فاكتفيت ان اقول له كلا ووقفت جانبا أشاهد الجماعة التي كانت تستعد للتصوير كان البعض منهم يصلح من مظهره والبعض الاخر يحاول ان يتقدم ليحتل مكانا احسن وهذا أمر طبيعي بالنسبة لانسان يشعر انه في معرض تصوير فهو ولا شك يحاول ان يتجنب كل ما يشين من مظهره الخارجي او يؤثر عليه لكي يبدو على شاشة العرض بهيا متكاملا في وقفته تلك وارتسمت في فكري صورة للعرض الاكبر خلال يوم القيامة« يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية »فها هي اجهزة الالتقاط تتوجه نحونا كما كانت تتوجه منذ اصبحنا مشمولين بالتكليف الالهي في مسؤولية حمل الامانة التي عرضت على

السماوات والارض فأبين ان يحملنها وحملها الانسان، نعم ولكنها أجهزة التقاط تختلف عن هذه الاجهزة المادية المصطنعة.. ان هذه لاتتمكن ان تسجل سوى الغشاء الخارجي لجسم الانسان، وحتى هذا فهي لايسعها ان تصوره اذا حال بينها وبينه شيء ولو كان غطاء رقيقا، أما تلك فهي تسجل حتى نظرات العيون وخواطر القلوب..

يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور.. «ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا»اذن.. فلو عاش الانسان هذه الحقيقة ولو احس بها خلال حركاته وسكناته ولمحاته ونظراته لحرص دائما وبدا ان يبرز بالشكل المرضي وان يحتل مكانا احسن يوم يعرض فلم حياته امام البشرية بدون غطاء. ثم.. عرض علينا ان نتحدث امام شريط للتسجيل لنبشر اهلنا بسلامة الوصول.. عجيب! ولكن أترانا كنا قد وصلنا؟ ان المسافر لايسجل لنفسه الوصول الا اذا وصل الى النقطة التي انطلق نحوها منذ البداية ـ ونحن كنا في انطلاقتنا تلك متوجهين نحو هدف معين لم يحققه لنا الوصول الى مطار جده.. الم نكن سائرين في ركاب هذه الآية الكريمة«ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا».. اذن فأين نحن من الحج وأين نحن من السلامة؟ سلامة الجسد لاتعني شيئا في حساب الراحل الى الله..

ولكن هي سلامة العمل وصحة الاداء، فما اكثر سلامة الاجساد وما اقل سلامة الاعمال. .

وصعدنا الى مدينة الحاج

وهي عمارة كبيرة تتألف من طوابق عديدة تحيطها عمارات وغرف واسعة وتشرف من احدى جوانبها على ساحة المطار ومن خصائصها انها ومع جميع ما قد تسبب الاقامة فيها من مضايقات. . انها تبعث في نفس الانسان نوعا من الانشراح والانطلاق، وكأنها مرحلة انتقال شيقة ثم انها المنزل الاخير الذي ننطلق منه نحو بيت الله الحرام، وكانت الغرفة التي توجهنا نحوها جانبية تطل على بعض شوارع مدينة جدة ومدخل مدينة الحاج، واجتمعنا لاول مرة نحن النساء المسافرات ضمن القافلة في غرفة واحدة، وبدأنا نتصفح الوجوه في تطلع لهفان ووددنا لو وجدنا اثرا لطابع مميز يشمل الجميع طابع الشعور بالوحدة المنطلقة من وحدة الغاية واتحاد الهدف في الحج. . ولكن. .

وقمنا ببعض المحاولات للتعرف على رفيقات السفر فكان فيهن من تستجيب بتحفظ وفيهن من تلوي جيدها في شيء من اللامبالاة(عدى من كانت معرفتنا بهن تسبق حدود هذه السفرة طبعا)وقد كان الشعور الغالب على بعضهن هو التطلع الى ما في أسواق جدة من جديد!! وبما اننا كنا قد

أحرمنا من مطار بغداد فقد عرضنا ذلك لبعض الاسئلة عن الاسباب التي دعتنا الى تقديم الاحرام فأخذنا نشرح طبيعة الحكم الشرعي في ذلك وكيف ان الاحرام يجب ان يكون من احد المواقيت الخمسة: الجحفة. يلملم قرن المنازل. مسجد الشجرة. وادي العقيق. ولا يصح الاحرام من غيرها الا بنذر شرعي، والنذر الشرعي لا ينعقد الا اذا كان المكان الذي ينذر الاحرام منه أبعد عن مكة من الميقات أو بمحاذاته ومن أجل نفس هذا الحكم كنا نشاهد في مدينة الحاج مجاميع من الحجاج وهم في طريقهم الى الجحفة من اجل عقد نية الاحرام،، والجحفة تبعد عن جدة بمقدار(١٨٠)كيلو متر تقريبا، وبتنا ليلتنا في مدينة الحاج وكنا نحرص بعد أداء كل فريضة ان نراجع أحكام الحج في المنسك الذي صحبناه معنا فنعيد قراءة ما عرفناه ونتأكد من معرفة ما جهلناه ونتبادل نحن الستة شرح اعمال الحج ونؤكد على أعمال العمرة لانها اول فريضة تنتظرنا في مكة ولم يكن هذا من أجل اهمال في التحضير من قبل او غفلة عن سير احكام الحج واعماله، ولكنه كان على سبيل التأكيد والتجديد ثم انه من اجل فتح المجال امام الاخريات للسؤال اذا كن في ريب من عمل او شك في حكم من الاحكام وكانت اهم نقطتين واجهتنا في اصلاح احرام المحرمات من حولنا هي اولا: انهن كن يتجردن عن الجوارب فور عقدهن لنية الاحرام ويستعضن عنها بلبس السروال الطويل وذلك في اعتبارهن لسببين: احدهما وجوب

اظهار ظهر القدم حال الاحرام وثانيهما جواز ابداء القدم امام الرجال ظنا منهن ان جواز كشف ظهر القدم حال الاحرام ليس الا احتياط استغنى عنه التشريع لعدم تأكده. هذا مع تأكد حرمة كشف القدمين امام الرجال الاجانب وعدم وجود مجال لمقايستها مع الكفين، فالاسلام حينما شرع الستر للمرأة كصيانة لكيانها ووقاية لوجودها الخاص ووجودها العام ضمن المجتمع وتجنيب لها وللمجتمع مغبة تكشفها امام الرجال حينما شرع ذلك لم يرد من وراء ذلك التشريع عزل المرأة عن الحياة او حبسها عن مجالات التعايش السليم الطاهر مع المجتمع. ولهذا فقد اجاز لها كشف الوجه والكفين لانهما كل ما يحتاجه الانسان، وأي انسان رجل كان أو امرأة حينما يتفاعل مع الحياة في مختلف المجالات ان اي عمل او علم لايحتاج الى ابراز الكتفين او ابراز جدائل الشعر مثلا ولكنه قد يكون في حاجة الى كشف الوجه والكفين وهذان هما ما أجاز التشريع للمرأة أظهارهما عند الحاجة، اما القدمان فما هو الشيء الذي يتوقف على كشفهما يا ترى؟ وما هو الاثر غير المرضي الذي يتركه سترهما في مجالات الحياة؟ لاشيء ابدا ولهذا وجب علينا ستر القدمين وابيح لنا كشف الكفين هذه هي النقطة الاولى.. اما النقطة الثانية.. فهي عدم اتقان مقدار ما ينبغي كشفه من الوجه حال الاحرام!! فنحن اذ نعرف ان احرام المرأة بوجهها ينبغي ان تلتزم بكشف الوجه من قصاص الشعر وحتى الذقن لاأكثر ولا اقل، ولعل هذا

يفتقر الى شيء من الدقة ولكن أهمية فريضة الحج عميقة وكبيرة جدا أفلا تستحق قليلا من الدقة والالتزام؟؟!

وركبنا السيارة في طريقنا الى مكة.. وهي سيارة كبيرة حمراء غير مكشوفة كتب عليها بالخط الابيض العريض كلمة(التوفيق)وكان هناك سيارة حمراء اخرى تساير سيارتنا وقد ركبها رجال القافلة ولم تكن تلك لتختلف عن هذه الا بكونها مكشوفة السقف تمشيا مع الحكم الشرعي الذي لايجيز للرجل المحرم الاستظلال بالظل المتنقل، وما ان تحركت بنا السيارة حتى وجدت نفسي غارقة في دوامة من الانفعالات المختلفة التي هي مزيج بين الرضا والخوف والرهبة والرغبة والفرحة والحسرة.. وانطلقت أردد على لساني كلمات التلبية « لبيك اللهم لبيك » انها استجابة للنداء الخالد الذي امر الله نبيه ابراهيم (ع)ان يطلقه في اذان البشرية ولكن اتراها استجابة كاملة؟ ان التلبية تكون مخلصة صادقة اذا نطق بها اللسان واوحاها الفكر وصدقها القلب وأكدها العمل. ان حركة اللسان وحدها لاتكفي باعطاء مفهوم التلبية الا اذا تظافرت معها جميع الجوارح لدى الانسان، « لبيك لاشريك لك لبيك »انه اقرار بالوحدانية وتأكيد على العبودية المطلقة « ان الحمد والنعمة لك والملك »نعم ان الحمد لله وحده لانه وحده صاحب كل نعمة ومصدر كل رحمة فهو المحمود الاول في كل ما يحمد عليه، وهنا تذكرت كلمة للامام: ان شكري اياك يحتاج الى شكر، ان يكون الانسان مقرا بالحمد والشكر

لله لهي السعادة ما فوقها سعادة لما يتضمن ذلك الاقرار من مصادر رحمة وينابيع رضوان، ـ ان الحمد والنعمة لك والملك، لاشريك لك لبيك »ومرة ثانية يتكرر في كلمات التلبية الاقرار بالوحدانية، هذه الوحدانية التي تنطلق عنها وحدة الهدف ووحدة الغاية لكي يكون القصد في العبادة متوجها بمجموعه نحو الله نزيها عن الرياء بعيدا عن الخيلاء نقيا من شوائب الغرور وحب البروز أو الظهور خاليا مما يوجب الشرك المنافي لخلوص الاعمال لله ومن اجل طاعة الله.. واندمجنا مع كلمات التلبية حتى شارفنا (الحديبية)وهي أول حدود الحرم للقادم من جدة، وهناك وجدنا السيارة الحمراء المكشوفة (سيارة الرجال)تنتظر! واعلن لنا عن ضرورة تجديد نية الاحرام لمن احرم من جدة!!! واستغربت الامر! لان الحديبية ليست ميقاتا للقادمين من العراق! وعلى كل حال فقد وقع الكثير من الهرج والمرج بين المحرمات المسكينات فتارة يطلب منهن النزول واخرى يطلب منهن العودة الى مقاعدهن، ثم تتلى عليهن نية الاحرام من خارج السيارة وعن طريق مكبر للصوت فتأتي الكلمات ضعيفة غير واضحة فتتصاعد كلمات احتجاجهن « لم نسمع لم نعرف ماذا قال، ومضت فترة صخب بين قيل وقال ثم انتهت بسلام والحمد لله. وكنا نحن المحرمات من بغداد نحمد الله ما وفقنا اليه من صحة الاحرام وعدم احتياجه الى تجديد او اتمام ثم سارت بنا السيارة من جديد وكنا نشعر ان

كل ميل تطويه عجلاتها (الكليلة)تقربنا نحو الهدف فتخفق لذلك قلوبنا وكأنها تحاول ان تبعث من طاقاتها الحرارية قليلا من الحرارة في السائق الذي كان يبدو وهو لايريد ان يكلف نفسه عناء الضغط على البنزين كانت أرواحنا تهتز مع طي الطريق في نشوة روحية خالصة فتود لو سابقت هذه العجلات الثقيلة التي لاتكاد تستجيب للمحرك بسهولة وهي لاتعلم ولا تشعر بما تحمل من شحنات آمال تتمنى لو سابقت الريح في الوصول الى رحاب الله واخيرا وبعد مضي ما يقرب من ساعتين بدت لنا من بعيد معالم مكة.. فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله..

* * *

ووصلنا الى مكة..

وكانت الساعات الاولى من الليل قد انقضت ونحن في الطريق وتوجهنا نحو البيت الذي خصص لنزولنا وهو غير بعيد عن الحرم والحمد لله فألقينا أمتعتنا وجددنا الطهارة ثم تهيأنا للذهاب الى الكعبة، من أجل الاتيان بطواف العمرة، وهناك طلب منا ان ننتظر لكي نتناول العشاء وبعد ذلك نذهب مع مجموع الحاجات وبحراسة من بعض مساعدي المتعهد، ولكن أترانا نتمكن من الانتظار؟ وكل جارحة من جوارحنا قد استحالت الى لهفة وجميع مشاعرنا أخذت تنطق بالحنين فلقد كنا على موعد مع جبار السماء لنطوف حول

الكعبة طالبين الغفران ولنسعى بين الصفا والمروة مبتغين الرضوان، عندمايعيش الانسان في إنتظار لقاء محبب اليه لايعود يهنأ بشيء قبل أن يتحقق له ذلك اللقاء فهو يستحيل بجميع وجوده الى لهفة وانتظار وهل هناك ما هو احب الى الانسان من ساعة رحمة واونة غفران؟ ولهذا فقد عز علينا الانتظار، ولماذا ننتظر يا ترى أمن أجل غذاء؟!.

ولكن ما أهمية الغذاء المادي بالنسبة للغذاء الروحي الذي ينتظرنا هناك، أم من أجل الحصول على حراسة الحارسين؟ أولم يقل امامنا جعفر الصادق (ع)في وصيته لمن يريد الحج الى بيت الله الحرام: (ولا تعتمد على زادك وراحلتك واصحابك وقوتك وشبابك ومالك مخافة ان يصير ذلك عدوا ووبالا فان من ادعى رضا الله واعتمد على شيء سواه صيره عليه عدوا ووبالا ليعلم انه ليس له قوة ولا حيلة ولا لاحد الا بعصمة الله تعالى وتوفيقه) اذن فليس هناك ما يدعونا الى الانتظار..

وانطلقنا نحن بمجموعتنا الصغيرة نحو بيت الله الحرام وكان الطريق الذي يفصل بيننا وبينه عبارة عن سوق يسمى بسوق الليل وهو ملىء بزخارف الحياة التي عرضت للابصار بشكل يساعد على الاغراء.. ولكن.. أترانا كنا نبصر من هذه الزخارف شيئا؟ ام ترانا كنا نتحسس آثار وجودها ونحن مندفعات نحو بيت الله الحرام تسبقنا الآمال بالغفران وتحدو بنا الاماني لنيل الرضوان؟..

انها رحلة.. تلك الخطوات.. رحلة الانسان الذي هرب الى الله عز وجل من ذنوبه تائبا وعلى اخطائه نادما رحلة الانسان الذي يستشفع الى الله قائلا(الى من يذهب العبد الا الى مولاه والى من يلتجيء المخلوق الا الى خالقه)وقاربنا البيت المبارك وكنا نهبط في طريقنا اليه لانه في واد بين الجبال والمرتفعات. ولكنه هبوط جسمي يبعث الى الارتفاع الروحي ويبلغ اسماعنا دوي السعادة وهم في مسيرتهم المباركة بين الصفا والمروة وكان لذلك الدوي المبهم الكلمات اعظم الاثر في الترهيب والترغيب فهل حقا اننا على بضع خطوات من بيت الله الحرام؟ وهل حقا ان هذه النوافذ الحديدية المرتفعة تطل على اقدس بقعة خلقها الله وتشرف على أول بيت وضع للناس؟ وهل حقا ان هذا الوجود الضعيف قد انطلق بآثامه واخطائه هاربا من الله الى الله وها هو قد اوشك ان يحظى بالمثول امام كعبة المسلمين في مشارق الارض ومغاربها؟ انها نعمة لايكاد يصدقها الانسان لنفسه، وهذا الدوي الذي كلما دنونا نحوه اكثر تكشف عن كلمات تقول(الله اكبر لااله الا الله. الحمد لله. لااله الا الله وحده وحده. انجز وعده ونصر عبده. وغلب الاحزاب وحده)هذه الكلمات هي التعبير الواضح عن كل ما يشتمل عليه الحج من شعارات ومفاهيم، الوحدانية لله والخضوع لعبوديته والتوكل عليه، والثقة بنصره لعباده الصالحين.

* * *

ووقفنا امام الكعبة وكانت وقفتنا من الجهة المقابلة للحجر الاسود حيث يجب ان يبدأ الطواف من هناك وكان المطاف محتشدا جدا لاتبدو منه سوى رؤوس رفعت وجوهها نحو السماء ترتجي الرحمة من العلي الاعلى وتهتف في قنوط المساكين قائلة(اللهم اني اليك فقير، واني خائف مستجير، فلا تغير جسمي ولا تبدل اسمي).. ولاحظت صعوبة الطواف وهو في قمة ازدحامه وتلفت حولي اتطلع الى الوجوه التي تقف الى جانبي وادرس مدى تمكنهن من خوض هذا البحر البشري الزاخر، فاسعدني واراحني ان أجد اللهفة لديهن قد طغت على كل شيء فأمدتهن بطاقات من الارادة والتحمل والثبات والاصرار على بلوغ الهدف باي ثمن فسمينا بسم الله الرحمن الرحيم وتراجعنا قليلا عن مواجهة الحجر الاسود لنطمئن من مرور جميع جسمنا امامه ثم.. اندمجنا مع مجموع الطائفين..

ويدأنا نفقد الاحساس بصعوبة السير وسط الحشد الهائل ولم نعد نبالي بما نتعرض اليه من ضيق بعد أن اندمجت جميع مشاعرنا في ترديد هذه الكلمات(اللهم ادخلني الجنة برحمتك، واجرني برحمتك، يا ذا المن والطول والجود والكرم، ان عملي ضعيف فضاعفه لي، وتقبله مني، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار، اللهم البيت بيتك والعبد عبدك وهذا مكان العائذ بك من النار).. وكنا كلما اكملنا دورة واحدة عددناها مع بعضنا بصوت مسموع لكي نتجنب الشك والنسيان فليس بغريب ان يندمج الانسان

الطائف مع أهدافه وعطاءاته فينسى العدد والحساب ويبقى يدور ويدور وكانه لايريد الله يترك دورته حتى يستوثق من الغفران، ولهذا كنا نهتم بحفظ العدد واتقانه فان الطواف هو رمز لدوران الانسان حول غاية يؤمن بها أو هدف يسعى اليه، فهو يلف حولها لكي يبدأ من حيث ينتهي، وهو يشعر الانسان انه انطلق من الله وسوف يعود الى الله وانه دار ضمن حدود وابعاد رسمها الله عز وجل فليس له ان يتعداها فينقص منها او يزيد، ان دورته حول هذا الرمز الالهي ترسم له حدود تحركاته في الحياة فهو اذ يتحتم عليه هنا ان يدور بأقدام ثابته ينقلها من فوق الارض باختياره يتحتم عليه ايضا خلال دورته الكبرى في دوامة الحياة ان لاتزل به قدم أو يندفع وراء غاية دون رؤ ية أو استبصار وهو في دورته المقدسة هذه اذا اندفع الى الامام بدون خطوات ثابته عليه ان يعود من النقطة التي ارتفعت فيها قدماه عن الارض، يعود ليبدأ سيره من جديد وكذلك الحال في مسيرة الحياة فانه متى ما تعدى حدودها باندفاع او انحراف له ان يعود ليباشر سيره من جديد وفقا للحدود التي حددها له الله عز وجل ـ وذلك مايسمى بالتوبة »انه رمز يطبع بطابعه جميع تحركات الانسان في حياته القادمة خلال جميع مجالاتها وابعادها، واكملنا دوراتنا السبع وقد كانت النهاية من حيث البداية وهي مواجهة الحجر الاسود وكما احتطنا فتأخرنا عن الحجر في البداية فقد احتطنا وتعدينا موضعه المبارك قليلا في النهاية. . ثم انسحبنا من بين

الجموع ونحن نحاول ان يكون انسحابنا هادئا لايعيق طواف الطائفين وخرجنا وكل جارحة من جوارحنا تنطق بالحمد لله رب العالمين.

* * *

وتوجهنا الى مقام ابراهيم لنصلي الى جواره او خلفه صلاة الطواف، وهي ركعتان كصلاة الصبح لاتختلف عنها الا بالنية فقط، وكانت تلك البقعة المباركة مليئة بالمصلين ولولا شمولنا بعين عناية الله ورحمته لتعذر علينا ان نجد لنا مصلى هناك وبدأنا نصلي على التعاقب لكي تحرس كل أربع منا المصلية الواحدة مخافة ان تتعرض لما يفسد صلاتها من اثار الزحام... ومن هنا تبرز حقيقة جديدة لعميق اهمية الصلاة في حياة الانسان، فهي تواكب حياته في اليوم خمس مرات وهي ترافقه حتى في عبادة الحج لكي لايبتعد عن هذه الصلة الوثيقة التي تشده بالخالق دائما وابدا، انها ركعتان لاغير ولهذا فهي صغيرة اذا قيست مع حجم عبادة الحج الكبير وضخامة أعماله وواجباته، ولكنها مع ركعاتها القليلة كانت ركنا من أهم أر كان الحج يجب الاتيان بها مع اتقان الكلمات والتأكد من الحركات وخلوص النية في الاداء، «واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى..» انها سلاح هذه الصلاة سلاح يجند الانسان المصلي ليقف في خط الدفاع يدافع بها عن روحه ليحتفظ بها قوية عزيزة لاتعرف

الخضوع لغير الله ولا تلتمس الرجاء الا من عند الله« اياك نعبد واياك نستعين »ويدافع بها عن فكره لكي لايشمله الخمول أو يرهقه الشذوذ أو تتبعه الحيرة والضيعان والتذبذب والتيهان « اهدنا الصراط المستقيم » ويدافع بها عن وجوده كله عن اعصابه لكي لايشدها اليأس وهو يتمكن ان يدعو من خلالها قائلا« ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »وعن اعضاء جسمه لكي لايضعفها الخمول او يوهنها الجمود فيبعث فيها الحركة باتباعه لرياضة الصلاة وتفاعلها الصالح مع كل عضو من اعضائه وله ان يعبر عن ذلك خلال تحركاته فيها قائلا« بحول الله وقوته أقوم وأقعد ».. نعم انها سلاح قوي لاغنى للانسان عنه ولهذا نجده يواكب حياة الانسان ليجعله دائما وابدا قويا في دينه ثابتا في عقيدته صلبا في ارادته وابعاد وجوده وانتهينا من الصلاة وكانت صلاتنا خلف المقام المبارك بمكان قريب والحمد لله وكان علينا ان نتوجه بعد ذلك للسعي وقد كنا نشعر بالتعب ولكن ومن جديد عرفنا.. كيف يتبلور التعب عن راحة، وكيف يتفتح العناء عن طاقات سعادة، عرفنا كيف يستحيل العذاب الى عذوبة وكيف تهب المرارة معنى الحلاوة، كانت قلوبنا تخفق بشدة ولكننا لم نكن نعرف من تتابع خفقانها انها مرهفة ولم نكن نجد في تلاحق ضرباتها انها مجهدة. كلا. ولكننا كنا نحس بالشوق يستغذها ونستشعر الفرحة وهى تداعبها فنجدها وكأنها ضائعة بهذا الكيان الذي

يحبسها ويفرض عليها قيوده والتزاماته تواقة لان تنطلق في رحاب هذا البيت لائذة بالحرم كالحمام الوديع او محلقة في اجوائه كالملاك الطاهر او مرفرفة حول قواعده كـالنسمات العذاب، ولهذا لم نكن نريد ان نجلس لنستريح وانما ذهبنا تحت خطى الشوق واللهفة الى المسعى المبارك..

ووقفنا بين الصفا والمروة...

وهورواق بنيت سقوفه وجدرانه من المرمر الخالص وامتد في وسطه صفان الدارابزون لايتعدى الفاصـل بينهما المتـرين تتخللهما بين كل مسافة قصيرة فتحة متوسطة الاتساع من أجل مرور المستطرفين وكان اعداد هذين الصفين من أجل حصر السعاة الراكبين بينهما حفاظا على راحة السعاة المشاة، والسعي يختلف عن الطواف بحرية السير فيه أو الركـوب فللانسان الساعي ان يختار الركوب اذا اراد حتى ومع تمكنه من السير وذلك ما لايصح خلال الطواف الا عند العجز الكامل او الضرورة القصوى وكان هذا الرواق الطاهر يقع بين ربوتين او جبلين مجدبين احدهما وهو الصفا تعتليه قبة منبسطة العمق والثاني الذي هو المروة يكون سقفه مستويا الا من تعاريج البناء ويبلغ طولـه حوالي الميـل والنصف ومن الصفا كان يجب علينا ان نبدأ السعي فارتقينا هضبته المباركة وأدينا نية السعي قائلات« أسعى بـين الصفا والمـروة سبعة أشواط لعمرة التمتع الى حج الاسـلام لوجوبـه امتثالا

لأمـر الله سبحانه وتعالى » ثم بدأنا نسير سيرا رتيبا يتخلله الدعاء والابتهال وكانت الاصوات من حولنا تتصاعد قائلة: « ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم ».

فما اروع ان تصبح الخطوات وهي مسيرة مؤدية لشعائر الله وما اضخم الحقيقة التي يشترك في الانصياع اليها وجود الانسان بجميع ابعـاده وجوارحـه واحاسيسـه. انها حقيقة العبادة بشمولها الواسع لشخصية الانسان منها هـو السعي لايتطلب من الحاج سوى نقل اقدامه فـوق ارض منبسطة ملساء ولكن ومع كل خطوة ترتسم صورة للعبادة وخلال كل شوط يسجل رقما لاداء الواجب. وبعد ان انهينا اشـواطا اربعة جلسنا على مرتفعات الصفا لنسترد شيئا من الراحة لاجسامنا وأقدامنا التي ارهقهـا المسير ومن هنـاك انطلقنـا نفكر.. فعدنا بافكارنا الى حيث سعت السيدة هاجـر ام اسماعيل وهي تفتش عن ماء تروي به ظمأ وليدها الغالي فهي تنطلق تبحث لتعود.. وتعود لتنطلق من جديد وهي في كل هذا موزعة القلب بين طفل ضامىء وأمل في وجود ماء. نعم.. لقد لاقت هاجر الكثير من التعب والنصب وتعرضت لشديد محنة واذى ولكن وبما ان ما لاقته وما تعرضت اليه كان في سبيل الله ومن أجل الانصياع الى اوامر الله فلا زالت كل

هذه الملايين من الاقدام السائرة في كل موسم في كل عام ما زالت تتقصى آثار تلك الاقدام الطاهرة في مسيرتها المباركة، ثم ألم تكن هاجر امرأة؟ اذن أفلا يمكن لنا ان نعد هذا الجانب من الحج هو تخليد لجهود المرأة في عالم العبادة والفداء ثم الا يمكن لنا ان نعرف من هذا ايضا ان المرأة قادرة على رسم خطوط بارزة في ميدان العمل والجهاد؟ وعدنا الى اكمال اشواطنا السبعة بعد فترة استراحة وتفكير. وانهينا الاشواط السبعة على هضبة المروة وكنا قد صحبنا معنا مقراضا صغيرا من أجل التقصير اذ يجب علينا عند الانتهاء من السعي ان نقصر قليلا من شعر رأسنا أو نقلم قليلا من أضفر يدنا. وقد احتطنا فجئنا بالتقصيرين وبذلك انتهينا من عمرة التمتع للحج.. فالحمد لله على ما هدانا والشكر له على ما وفقنا اليه..

* * *

وقضينا ثلاثة ايام في مكة بين زيارة وطواف حتى عصر اليوم الثامن من شهر ذي الحجة الحرام حيث كان علينا ان نذهب الى عرفات.. ومع ان وجوب الوقوف في عرفات يبدأ مع زوال اليوم التاسع وينتهي عند الغروب ولكن عادة الحجيج هي الخروج الى عرفات عصر اليوم الثامن اي يوم التروية. وذهبنا بعد الظهر الى الحرم المبارك وجلسنا امام الكعبة الشريفة ننتظر الغروب وسرح بي الفكر الى الواقع

الرائع الذي نعيشه أفتراها كانت حقيقة واقعية جلستنا تلك؟ وراق لي ان اكتب بضع كلمات على ورقة صغيرة حاولت ان اصور بها ما اعيشه من افكار انها اعز كلمات كتبتها خلال سفرتي تلك لانها كتبت عن كثب من الكعبة وانطلقت من اشرف بقعة في أقدس مكان وارتفع صوت اذان المغرب هاتفا بكلمة العزة الخالدة. الله أكبر. لاشيء اكبر من الله هذا الكبر الذي يقره الانسان لجبار السماء يشعره بالصغار امامه تبارك وتعالى ولكنه صغار تجاه الخالق وتواضع تجاه المخلوقين اذ انه عندما يعترف ان الله اكبر لا يعود يحس بكبر أحد سواه وهذا ما عناه الشاعر محمد اقبال في قوله« سجدة للاله تنجيك يا انسان من الف سجدة للعبيد »أية متعة هذه التي تسمو بروح الانسان فوق كل شيء لانه لايعود يحتاج لشيء سوى الله؟ واية صفة هي عنده التي ترتفع بمعنويات الفرد المؤمن حتى لايعود يخضع لاحد او يتنازل لاحد لان الله وحده اكبر.. ومن هنا نعرف مدلول الحديث النبوي الشريف الذي يقول« من اعطى الذل من نفسه فليس منا »واستحبنا للنداء الخالد فتوجهنا للصلاة على مقربة من الكعبة وذلك لان البيت كان غير مزدحم لكثرة من خرج الى عرفات من الحجاج وبعد ان انتهينا من الصلاة عقدنا نية الاحرام للحج قائلات« نحرم لحج الاسلام اداءا قربة الى الله تعالى ».. وخرجنا من الكعبة متوجهات نحو البيت الذي ننزل فيه.. وهناك والى جوار المنزل كانت تقف سيارات النقل حيث سارت بنا نحو عرفات..

كان الطريق الذي يفصل بين مكة وعرفة ليس بالطويل او البعيد ولعله لو أجتيز في الحالات الطبيعية لما استغرق اكثر من نصف ساعة مع اكثر التقادير ولكنه وفي تلك الليلة المزدحمة بالحجاج كان لايكاد يقطع الا بعد جهد جهيد وزمن طويل. ولهذا سلك السائق بنا طريقا ملتويا عله يكون أقل زحاما واكثر انفتاحا ولكن يبدو ان سائقنا لم يكن الوحيد الذي قصد هذا الطريق اذ وجدناه والحمد لله غاصا بالسيارات زاخرا بالحجاج. فدعونا الله ان يعظم شعائره ويزيد من هداية القلوب التي تهفو اليه. ووصلنا اخيرا الى عرفات.

وكان ظلام الليل يضاعف من هيبة تلك الصحراء التي لايرى فيها سوى خيام بيضاء امتدت بينها شوارع رملية تتطلب الهداية اليها الى خبير ممن مارس طبيعة التربة ونشأ على بساطها الطاهر. وتوقفت بنا السيارات الى جانب احد الشوارع ونزلنا منها نحمل في يد حقيبة ضمت ملابس الاحرام الاحتياطية والسجادة والمصحف وكتاب الدعاء ونحمل في اليد الثانية ابريقا فارغا لتهيئة الماء وسرنا وراء دليلنا نلف حول بعض الخيام وننعطف مع انعطاف الممرات التي بينها حتى وصلنا الى حيث الخيمة التي اعدت لنا...

دخلنا الخيمة لنجدها مضاءة بالكهرباء ولكنها غير مفروشة.. فتصاعدت من حولنا اصوات احتجاج قائلة ما

هذا؟ كيف نجلس؟ كيف سوف ننام؟ هذا وضع عجيب!
فآلمنا ان نسمع كلمات الاحتجاج هذه بالنسبة لافتقاد مواد
ترف لاتأثير لها على طهارة تلك البقعة او قدسية تلك الليلة.
ولكننا تمكنا والحمد لله وبشكل غير مباشر ان نشيع في الخيمة
جوا من الدعاء والابتهال ولم تمض مدة طويلة حتى فرشت لنا
الخيمة بالسجاد والرياش ومع ما كان لهذا الفراش من راحة
جسمية فقد شعرت بانه شيء مرغوب فيه لواقع الحياة فهو
يذكرنا من جديد بالحرص على نعومة العيش والتسابق على ما
هو احسن من وسائل المادة ولكن « قل من حرم زينة الله
التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق »..

وأصبح علينا الصباح ونحن في عرفات وهو الموقف
الوحيد الذي يتحتم ان يؤمه الحجاج في وقت واحد وخلال
ساعات معينة منذ الزوال وحتى الغروب.. فيا لها من حكمة
في التشريع تهيء للمسلمين فرصة اجبارية للاجتماع
والتعرف على بعض فيتمكن الانسان المسلم خلال تلك
الساعات ان يدرس عن كثب اخلاق اخوته المسلمين
وعاداتهم وافكارهم ويتطلع على ما لديهم من جديد في
مجالات العلم والعمل ثم ان المسلمين خلال ذلك
ليتمكنوا وبسهولة ان يبحثوا مع بعضهم اهم مشاكلهم العامة
ويضعوا لها حلولا مستقاة من حكمة الآخرين وتجاربهم..
هذا لو أديت شعائر العبادة في الحج بمضمونها المطلوب طبعا،
وقد جاءت عدة تفاسير للسبب الذي من أجله سميت هذه

البقعة بعرفات ومن بينها تعارف المسلمين على أرضها المقدسة، ومنها انها البقعة التي تعارف عليها آدم وحواء بعد هبوطهما من الجنة، ومنها انها البقعة التي نزل فيها جبرئيل على نبي الله ابراهيم وقال له اعترف لله بما لديك. وبما ان التفسير الاول هو اكثر الثلاثة صحة واقربه الى الواقع الذي تدل عليه سائر اعمال الحج. فنحن نأخذ به ولكن ومع كل الاسف.. مع وقف التنفيذ فلماذا؟

.. لان هذا المفهوم غير واضح في اذهان الحاج منهم لايعرفون من عرفات سوى جانب الصلاة والدعاء من العبادة، ولهذا فان اي اقدام على ذلك يعد تطفلا غير مستساغ اللهم الا في مجالات خاصة جدا.. وانقضت ساعات النهار الاولى والجميع بين دعاء او صلاة او قراءة قرآن.. والحقيقة ان ساعات الحج في عرفات لاتكاد توازى بثمن لانها بجميع دقائقها عطاء حيث يحلق الانسان بروحه بعيدا عن عوالم المادة وخدعها وغرورها فيروح يعترف بآثامه تارة ويستغفر منها اخرى وهو يتضرع الى الله تعالى قائلا« اللهم اجعلني أخشاك كأني أراك واسعدني بتقواك ولا تشقني بمعصيتك »

وكيف يمكن لانسان ان يعبد ربا لم يره؟ انه يراه بالدلائل فأن قصرت الباصرة عن رؤيته فيجب ان لاتقصر البصيرة عن ذلك، وهل تعرف السعادة الا بتقوى الله.. ان تقوى الله هي التي ترسم للمتقي طريق الخير في الحياة وتحدد

له خطوط مسيرته الفاضلة حيث توجد منه فردا صالحا جديرا ان يكون نواة للمجتمع الصالح ثم ينطق بحقيقة الشد الذي يشده نحو مولاه ويعترف بانقطاعه التام لرحمة الله الواحد القهار اذ يبسط يده بالدعاء قائلا: « انت كهفي حين تعييني المذاهب في سعتها وتضيق بي الارض برحبها ولولا رحمتك لكنت من الهالكين ».. وهكذا هو الانسان ـ هذا الانسان التائه في عالم الغرور الراكض في حياته وراء السراب الذي خيل اليه انه سوف يخرق الجبال طولا.. هذا الانسان لايشعر حماية الله له وحاجته الى الله الا عندما تعييه المذاهب وتضيق به الارض. عند ذلك يتوجه الى القوة الوحيدة القادره بعد ان يستشعر عجز ما عداها عن حمايته. وقديما قال الامام امير المؤمنين عليه السلام.

أدع الله في الرغبة كما تدعوه في الرهبة »ومن خلال هذه الدعوات يستشعر الحاج انقطاعه الى الله فيروح يدعوه بلسان أوبقه ذنبه واخرسه جرمه قائلا« فها أناذا يا الهي بين يديك يا سيدي خاضع ذليل حقير »شعور مطلق بالانقطاع الكامل التام لله تبارك وتعالى حيث لامناص من الاعتراف بالذنب ولافكاك من الشعور بالتقصير وحيث لايعرف بهذا الشعور او بذاك الاعتراف سوى الله وحده.. ولهذا نجد ان ساعات الحاج في عرفات هي ساعات بناء للروح وصهر للافكار وتعقيم للقلوب وهي بالنسبة لمن هو في مستوى الحفاظ على مكاسبها الثرة واستند لها بالشكل الصحيح مرحلة انتقال من

الظلمات الى النور وطريق ارتقاء من الحسن الى الاحسن فيا لها من ساعات ومن العجيب ان نجد هناك من يحمل هما لطعام او شراب او فراش او مهاد، الشيء المادي الوحيد الذي يحرص عليه الانسان هناك ويتمنى لو حصل على مزيد منه هو الماء نعم الماء. لانه الوسيلة الوحيدة الى الطهارة والطهارة هي من شروط صحة العبادة. والماء لم يكن وافرا بالشكل المطلوب لان المنطقة هناك لم يكن قد امتدت نحوها انابيب الاسالة.. وكان على متعهد القافلة ان يهيىء الماء للحجاج.. كان موضوع الماء مشكلة تثير الخوف لدينا من نفاذه.. والمشكلة الثانية كانت المرافق الصحية!! حيث يتعذر على الانسان الدخول اليها والخروج منها سالما من النجاسات وحيث كان حجاج ثلاثة أو أربعة من المتعهدين يقفون في انتظار اخذ أدوارهم والمرافق لاتتعدى المرفقين او الثلاثة..

وانقضى النهار وفي اخر ساعة منه باشر العمال في جمع الخيام مقدمة لنقلها الى منى وجلسنا كل الى جوار امتعتها تحت السماء وفوق الرمال وكنا خلال تلك الساعة نشعر بحسرة الوداع لهذه البقعة الطاهرة وتلفتنا حوالينا علنا نتمكن ان نحتفظ بأكثر مقدار ممكن من الذكرى وحان وقت الغروب فأدينا الصلاة وتناولنا شيئا من الاكل ثم نادى المنادي بنا قائلا ـ هيا نحو السيارات ـ فقد كان علينا ان نتجه من هناك الى « المشعر الحرام »

* * *

وسرنا نحمل امتعتنا يحدونا مساعد متعهدنا وهو يحمل بيده مكبرة للصوت يدنيها من فيه اكثر مما يجب فينبعث الصوت أجشا غير واضح الحروف. ولهذا فقد كنا نسير باتجاه مشرجة مكبرة الصوت غير فاهمات ما تعنيه تلك الحشرجة.. كانت كل واحدة منا تحمل بالاضافة الى امتعتها الخاصة ابريقا مملوءا بالماء لاننا كنا في طريقنا الى مزدلفة وأصل تحصيل الماء هناك يكاد ان يصبح معدوما ولهذا فقد اخطرنا من قبل المتعهد ان نحمل اباريقنا ملأى بدل ان نحملها فارغة! ومضينا نلف وندور بين الخيم والسيارات نبحث عن السيارات التي اعدت لنا فلا نتمكن ان نهتدي اليها لتشابه المواقف والمعالم وكانت ظلمة الليل تزحف نحو تلك البقاع بسرعة فتبعث في نفوسنا الرهبة والهيبة وتشعرنا بالخوف من الضلال في ذلك الليل الرهيب فنروح نحث الخط وراء مكبر الصوت لانلتفت يمنةولا يسرة لكي لاننحرف عن الطريق، وقد تجمعنا مع بعضنا وحرصنا ان لانكون بعيدات كان صوت أحد مساعدي المتعهد يرتفع من ورائنا بين فينة وفينة وهو يقول ـ مزيدا من الانتباه الى الطريق ان الانحراف عن الخط يعني الضلال ـ سيروا وراء الصوت الذى يحدوكم ـ.. نعم كان علينا ان نسير وراء الصوت الذي يحدونا وكان علينا ان نلم شملنا فلا نتفرق لكي لانتعرض للضياع ولكن ألسنا دائما وابدا مدعوين لان نسير وراء صوت الحق الذي يدعونا «والرسول يدعوكم لما يحييكم به»..

نجتمع ونتقارب ونسير متكاتفين وراء صوت غير واضح الكلمات يخرج عن مثلنا لايزيد عنا الا لقديم معرفته في الطريق ثم نصم آذاننا عن نداء الرسول.. هذا النداء الخالد الدائم في دعوته لنا للسير ورائه نحو الجنان.. مالنا نخشى الضلال لتحذير من انسان ولا نخشى التيه الذي يحدونا الى النار وقد حذرنا عن ذلك كل نبي أو وصي نبي؟ وما لنا لانلتفت يمنة ولا يسرة خشية ان تفتقد آثار الدليل ونروح خلال حياتنا العامة نتقلب يمينا وشمالا متجاهلين الامل الالهي الذي يقول «فاستقم كما امرت».. وضلالنا هنا.. ماهي نتائجه ياترى؟ نحن مهما ضللنا او انحرفنا سوف نجد امامنا اناسا مثلنا لاتفرقهم عنا سوى الالوان او الجنسيات او الاخلاق والعادات.. اما ضلالنا عن مسيرة الحق فسوف يسلمنا الى ايدي ملائكة غلاظ شداد وسوف يعرضنا الى نار نورها ظلمة وشرابها الصديد وطعامها الزقوم.. فما أبعد الفرق بين الضلالين.. وما اجهلنا عندما نقتفي هذه الاثار ونتجاهل تلك الحقائق.

ووصلنا اخيرا الى موقف السيارات حيث سارت بنا نحو مزدلفة المشعر الحرام.

ووصلنا الى مزدلفة والليل يكاد ينتصف لالبعد في الطريق بل لازدحام في حركة المرور ومزدلفة ليست سوى ارض منبسطة قاحلة لاشجر فيها ولا ماء ولا شيء يعلو ارضها سوى الجبال حتى المخيمات التي تنتصب في منى وعرفات لم يكن في مزدلفة منها اثر والمزدلفة هي المشعر الحرام

الذي نزل فيه قول الله تعالى (فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام)وافترشنا البطانيات التي كنا نحملها بالاضافة الى ما حمله المتعهد من فراش معنا وجلسنا لكي نستريح قبل المباشرة بجمع الحصى. وكنا حينما نتجه بأبصارنا لانجد الا اشباح الناس وهم بين منحني لجمع الحصى على ضوء مصباح صغير في يده.. وبين سائل يتحسس الطريق نحو جماعته.. وكانت ملابس الاحرام البيضاء هي الوحيدة التي ترى في تلك الصحراء الواسعة ومن خلال سواد العتمة.. وهنا ينبغي لي ان اعترف بالعجز عن تصور ساعات مزدلفة وارضها وسمائها وروعتها وعطائها وهيبتها وجلالها فهي وكما عشتها في تجربتي الخاصة فوق التصوير والتمثيل.. ولا يمكن لانسان ان يفهمها الا اذا عاشها عن فهم وادراك.. وبعد ان أرحنا اجسامنا من تعب الطريق باشرنا بجمع الحصى لاجل رمي الجمرات وكان علينا ان نجمع تسعة واربعين حصاة والمستحب ان نضيف اليها احدى وعشرين واحدة اخرى من اجل احتمال عدم اصابة الرمي ومضينا ننحني نحو الارض نطلب الحصى. كانت الحصاة الواحدة اثمن لدينا من حبة اللؤلؤ لانها من مكملات حجنا وشروط صحته.. اما حبات اللؤلؤ فلم تكن لتجدينا شيئا في ذلك المجال. ان هذه الحصيات التي نلتقطها من المشعر الحرام لكي نرمي بها الجمرات في منى ليست سوى رمز لسلاح من الايمان لنرمي به الشر والعصيان

والخروج عن طاعة الخالق هذه المعاني التي ترمز اليها الجمارات.. ولهذا اراد التشريع الاسلامي ان يعلمنا باننا عن طريق الايمان وحده نتمكن ان نحارب الشر ونقابل الجور.. فالايمان هو الذي يتكفل بتسليحنا للمجابهة وتحصيننا ضد الانهيار ومن هذا نعرف الحكمة التي فرضت ان يكون الحصى من المشعر الحرام الداخل ضمن الارض المقدسة وكانت كل واحدة منا تحمل معها كيسا صغيرا من الخام اعد خصيصا لحفظ هذه الحصيات الثمينة فجمعنا المقدار المطلوب وحرصنا ان نغلق عليها الكيس بدقة واتقان. ثم اضطجعنا لننام قليلا فان تواصل التعب من حقه ان يؤثر على التفاعل الكامل مع العبادة وكانت جنطتنا الصغيرة هي وسائدنا خلال النوم بعد ان افترشت كل واحدة منا نصف بطانيتها وتغطت بالنصف الثاني وأباريقنا الثمينة جدا الى جوار رؤوسنا واستيقظنا قبل الفجر بساعتين فجددنا الطهارة وتوجهنا للدعاء وكان أروع ما قرأناه خلال تلك الساعات هي المناجاة السفرية المنسوبة الى الامام امير المؤمنين (ع) ففي هدوة ذلك الليل الرهيب وفي فضاء ذلك الافق الرحيب ومع الظلمة التي لا يلون سوادها سوى مصباح يدوي صغير كان من الرائع جدا جدا ان يرتفع صوت خاشع ليقول:

الهي لئن جلت وجمت خطيئتي
فعفوك عن ذنبي أجل وأوسع
الهي ترى حالي وفقري وفاقتي
وانت مناجاتي الخفية تسمع

الهي لئن خيبتني وطردتني
فمن ذا الذي أرجو ومن ذا يشفع
الهي فآنسني بتلقين حجتي
اذا كان لي في القبر مثوى ومضجع
الهي اقلني عثرتي وامح حوبتي
فاني مقر خائف متضرع
الهي لان أقصيتني وأهنتني
فما حيلتي يارب ام كيف اصنع
الهي وهذا الخلق مابين نائم
ومنتبه في ليله يتضرع
وكلهم يرجو نوالك راجيا
لرحمتك العظمى وفي الخلد يطمع

. . . وحان وقت الصلاة فأديناها ودعونا لاخواننا من المؤمنين والمؤمنات. . ثم ارتفع اذان الصبح وكنا نلاحظ بوضوح الخيط الابيض وهو ينبلج من الخيط الاسود وهنا تبدو بوضوح الحقيقة العلمية التي ترمز اليها الآية المباركة« نولج الليل في النهار ونولج النهار في الليل »فان الايلاج يعني التدخل التدريجي وهكذا هو الامر بانبثاق النهار عن الليل ودخول الليل على النهار ولهذا نجد الخط الابيض يلوح رويدا من وراء الافق الممتد. وكنا قد استصحبنا معنا بوصلة لتعيين القبلة ولهذا فقد اتجهنا نحو القبلة في ادعيتنا وصلواتنا وعلى هداها ايضا أدينا صلاة الصبح وبقينا ننتظر طلوع الشمس

لان التشريع لايجيز للرجال مغادرة مزدلفة قبل ذلك. وهذا التشريع مما تختص به الشيعة دون الفرق الاخرى من المسلمين ولهذا كانت السيارات تمتلىء بالحجاج وتغادر المشعر عند منتصف الليل حرصا على سهولة السير وتلافي حرارة الشمس والتمكن من الوصول الى رمي الجمرات بسهولة.. وهنا أحب ان اقف امام هذه النقطة التي اجدها مهمة جدا بالنسبة لاعمال الحج وتنظيمها وتوفير الراحة لكل فرد مؤمن فالمرأة غير مجبرة شرعا على المكوث حتى الصباح كما حدثنا الرواة عن الامام جعفر الصادق(ع): انه ارسل العلويات منذ الليل الى منى لكي يجتنبن مشقة الزحام ويوفر لهن المجال للرمي بسهولة. اذن فلماذا يفرض على كل امرأة ان تتحمل المصاعب التي تتولد عن التأخير من أجل الرجال وفي امكانها شرعا ان تؤدي واجبها وتأوي الى خيمتها في منى والشمس لم تشرق بعد! نعم الا يجدر بالرجال ان يحرصوا على ذلك فيهيأ للنساء ركب خاص ينقلهن في الساعات الاخيرة من الليل الى منى؟

وعلى كل حال فقد ركبنا السيارات وسارت بنا لانقطع من الطريق نصف فرسخ الا وتقف نصف ساعة لانقطاع خط السير وكانت الشمس قد ارتفعت بحرارتها الكاوية والماء الذي معنا قد استنفذته الليلة الماضية وليس من السهولة بمكان ان يجتمع العطش والحر والتعب لولا احساس الانسان بانه في طريقه الى عبادة وكان ذلك الصباح هو اليوم العاشر

من ذي الحجة الحرام. اي يوم العيد. عيد للروح التي بلغت مطلوبها من الحج، وعيد للقلوب التي تعيش مفاهيم الحج، وعيد للانسان الذي يشعر بالسعادة لانه وصل الى هذه البقاع وتمكن من العمل على ما يريده الله والا فان اجسام الحجاج خلال ذلك اليوم تكون في قمة تعبها وجهدها وهي بعيدة عن العيد بالمفهوم السطحي الذي يتعارف عليه. ومن نظافة الجسم او جديد اللبس انه عيد بمفهوم العيد الصحيح عيد التكامل الروحي للانسان... وارتفع النهار اكثر فاكثر والسيارة لاتتمكن ان تسير وكنا نجد الحجاج وهم يتركون ما يركبون لكي يقطعوا الطريق راجلين فوددنا لو تمكنا من السير ولكن ذلك كان يتطلب وجود دليل معنا ولم يكن في سيارتنا اي دليل اللهم عدى رجل واحد وكله المتعهد بمداراتنا ولكنه كان اعجز من ذلك بكثير وبعد لاي سمعنا صوت متعهدنا وهو يسألنا عن راحتنا في الطريق وكان قد وصل مع مجموعة الرجال فاقترحنا عليه ان يرسل معنا من يتكفل بايصالنا الى منى مشيا على الاقدام فهيأ لنا اثابه الله اثنين احدهما حاج من الحجاج والثاني احد المساعدين فنزلنا من السيارة وعرض على الباقيات النزول فامتنعن عن ذلك ولم تلتحق بنا سوى سيدتين منهن فأصبحنا بمجموعنا سبعة ورجلين. وسرنا وسط زحام الطريق يحدونا الامل في سرعة الوصول وقطعنا مسافة طويلة تخللتها الكثير من الصعوبات حتى وصلنا الى منى.. ومنى بلدة فيها البيوت

الصغيرة والعمارات الكبيرة ومنها المحلات المتنوعة والمساجد المتعددة ولكنها بلدة صغيرة لايمكن لها ان تستقبل عشرا من معشار هذا الحجيج ولهذا فقد انتشرت على شوارعها الخيم واتسع نطاق الخيمات من يمين البلد ومن شمالها الى حيث يرمي البصر وكان الدخول الى منى من خلال شارع يسمى بشارع العرب وهو طويل وعريض يمتد من بداية منى حتى نهايتها . .

وتتشعب منها جميع الشوارع الفرعية الاخرى، وسرنا في هذا الشارع نفتش عن موقع خيمتنا الذي قيل انه بالقرب من البريد وغير بعيد ايضا عن الجمرات. وبعد ان ارهقنا السير طلب الرجلان منا ان نقف ليذهبا هما لاستطلاع الطريق فوقفنا الى جانب بائع مرطبات وكنا قد بلغنا القمة من العطش والظمأ والتعب فطلبنا منه ماء. فلم يلتفت نحونا وبعد ان كررنا الطلب مرات عديدة قال: لايوجد عندنا ماء اشربوا بارد. مع ان الماء موجودا والثلج كان وافرا لديه. ولكن البارد كان من حقه ان يعرضه لربح اكثر. ومع اننا كنا نشكو من اعراض الزكام والسعال ولكننا اضطررنا الى شراء البارد لنروي به بعض ظمئنا بعد ان تعذر علينا شرب الماء. وامرنا لله الواحد القهار.

ووصلنا اخيرا الى الخيمة وكانت قد هيئت وفرشت منذ الليل فارتخينا قليلا وتناولنا وجبة صغيرة من الاكل ثم جددنا الطهارة وتوجهنا نحو رمي الجمرات ووقفنا امام جمرة العقبة

يتعدى الامتار الخمسة والستة »ويرتفع بمقدار مترين تقريباً وقد قام هذا النصب فوق هضبة ترتفع عن الأرض بما يقارب الثلاث امتار يحيطها سياج منخفض وعلى مقربة منه كان يبدو شامخا راسخا جبل العقبة حيث تمت بيعتا العقبة عندما كان النبي (ص) يجتمع في شعاب الجبل مع الانصار من الأوس والخزرج اثناء موسم الحج وكان الواجب على كل حاج ان يرمي في حصياته السبعة متعاقبة نحو هذا النصب المرتفع فوق الهضبة ولهذا كانت الآلاف من الأيدي تمتد لرمي حصاها الواحدة تلو الأخرى.. ومن العجيب ان لا تشتبه الحصوات على الرماة ولا يجهل الرامي مكان حصاته حتى يجدها تستقر في المكان المقصود أو يجدها قد هوت قبل ان تصل اليه فيعود ليرمي بدلا عنها واحدة. ولم يكن الرمي مزدحماً جداً لعدم وصول الكثير من الحجاج ولهذا تمكنا ان نصل الى مقربة السياج المحيط ورمينا حصياتنا بشكل هادىء ومطمئن والحمد لله.

وبعد ان انتهينا من الرمي كان علينا ان نعود.. والعودة تعرضنا لان نكون في مواجهة الرماة وذلك يعني ان نصبح معرضات للاصابة بالحصى التي ترمى من بعيد فتصيب تارة وتخطىء اخرى ومن الطريف أن بعض الحجاج كانوا يعقبون حصاهم بما لديهم من أحذية مخرقة او نفايات متفسخة ولهذا فقد كان علينا ان نشق طريقنا بين الصفوف ونحن منحنيات تجنبا ان نكون مرمى لما يرمي به (الشيطان)وما ان تخلصنا

من منطقة الزحام حتى وجدنا عددنا قد نقص واحدة. فكدر ذلك علينا فرحتنا باتمام مهمة الرمي وتلفتنا يمنة ويسرة نبحث عنها بعيون حائرةوسط هذه الجموع الغفيرة العدد المتباينة اللون واللغة ثم حاولنا ان نفتش فمنعنا الدليل الذي كان معنا عن ذلك وذهب هو يفتش عنها وسط المجاميع وكنا نحن نساء قافلة اليعقوبي لدينا ما يميزنا عن الآخرين وهو قطعة قماش خضراء كتب عليها اسم المتعهد واسم المطوف. ومع ان صاحبنا المساعد لم يكن يعرف القراءة والكتابة ولكنه كان يشخصنا من طبيعة لون القطعة وصورة كتابتها فذهب لكي يجدها تقف في جانب من الجوانب وعاد يصحبها وهو يشعر بالانتصار لعثوره عليها بسهولة والحقيقة وحفاظا على الواقع نسجل شكرنا لهذا الانسان الذي استشعر مسؤولية حمايتنا لبضع ساعات هي من الصعوبة بمكان مع انه اجير لدى المتعهد لااكثر ولا اقل أثابه الله على ذلك ووفقه للهداية في طريق الخير. ولم نتمكن ان نعرف عنه سوى انه سائق سيارة استصحبه المتعهد مع سيارته الى مكة وانه ينادى بأبي حيدر. وعلى كل حال فقد عدنا نحو الخيمة لنجد ان الركب لم يصل بعد وكان الظهر قد حان فأدينا صلاتنا ثم وكلنا من يذبح الهدي بدلا عنا لتعذر ذلك بالنسبة لنا واوصيناه ان يحتسب ثلثها نيابة عن صديق كان قد وكلنا باحتسابه وثلثها الثاني نيابة عن فقير كنا قد طلبنا اذنه في ذلك قبال مقدار من المال والثلث الثالث نيابة عنا ثم توجهنا للنوم لان اعراضا للحمى والزكام

كانت قد بدأت تتفشى بيننا شديدة عند بعضنا وخفيفة عند الآخريات، وبعد الظهر بقليل وصلت بعض طلائع الركب وعصرا وصلت وجبة منه. وبعد أن عرفنا باكتمال الهدي كان علينا ان نقصر ونحل احرامنا. وفعلا فقد قصرنا وبذلك تحللنا من شروط الاحرام عدى الطيب والنساء فان ذلك لايصح الا بعد طواف الحج.

ونمنا ليلتنا تلك في منى وذهب مجموعة من الحاج بعد منتصف تلك الليلة نحو مكة المكرمة لاداء طواف الحج ولكن انحراف صحتنا خلال تلك الليلة منعنا عن الالتحاق بهم.. وفي صبيحة اليوم الثاني كان علينا ان نرمي الجمرات الثلاث الصغرى ثم الوسطى ثم الكبرى... وموقع الجمرات ليس ببعيد عن مخيمنا والطريق الذي يفصل بيننا وبينه واضح المعالم مستقيم الشوارع.

وهذه من اكبر النعم التي من الله بها علينا.. ولهذا فقد توجهنا صباح اليوم الحادي عشر للرمي وحدنا وكان الرمي مزدحما جدا والناظر اليه عن بعد لايجد سوى رؤوس مرفوعة وأيد ممتدة وحصى تنهال كالمطر على الجمرات، منظر رهيب يومي بالكثير. ووصلنا الى مقربة من الجمرة الصغرى فوقفنا ننتظر لحظة مناسبة نتمكن خلالها ان نلج هذه الجموع نعم هذه الجموع التي جاءت تؤكد على الجانب السلبي من العبادة. فهي عندما طافت حول البيت وسعت بين الصفا

والمروة اكدت على طبيعة مسيرتها في الحياة وانها تنطلق من الله لتعود اليه وذلك هو الجانب الايجابي جانب الطاعة الكاملة والانصياع التام للخالق جل وعلى.. وهنا. هنا، عليها ان تؤكد على الجانب السلبي من العبادة فهناك رسمت عبادتها كلمات الاطاعة.. الانقياد.. وهنا ترسم عبادتها كلمات رفض المعصية ورمي ما يعكر مسيرة الانقياد.. انه الجانب السلبي، فلا يكفي في مفهوم التوحيد الخالص ان يعبد الانسان ربه ويعبد معه سواه وليس من علامات العبادة الصادقة ان يطيع الانسان خالقه ثم لايرفض ما يتعارض مع أمر الخالق ولهذا اشتملت اعمال الحج على الجانبين السلبي والايجابي.. ثم هذا الاصرار على الرمي لايام ثلاثة وبحصوات سبع لكل مرة من المرات. ان هذا الاصرار هو بمثابة التأكيد والتشديد على رفض ما هو باطل ومحاربة كل ما يرمز الى الشر من قريب او بعيد. انها عهود ومواثيق تعبر عنها هذه الحصيات. وترمز اليها هذه الجمرات ولا يفوتنا ملاحظة الانسجام بين عدد اشواط الطواف والسعي وبين عدد الحصى لكل رمية وعدد ادوار الرمي. فالعدد في جميع ذلك لايتعدى السبعة وهذه حكمة نتمكن ان نفهم بها الموازنة التي ينبغي ان يحتفظ بها الانسان في نفسه. نعم الموازنة بين مستوى تقبل المعروف ومستوى رفض المنكر: انه تشريع كامل متجانس النواحي والاطراف ولكن مما يدمي القلب ان نجد اكثر متلقي هذا التشريع غير واعين لحكمته وشموله الواسع.

لو كانت هذه الايدي التي تمتد لترمي هذا النصب الحجري.. لو كانت تمتد دائما وابدا لترمي كل ما يرمز الى معصية الخالق اذن لما كان للشر مقر على الارض. ولكن..

ووجدنا اخيرا منفذا تغلغلنا خلاله مقتربات نحو الجمرة ومن رحمة الله وعنايته بنا ان تمكنا من الوصول الى أقرب نقطة حيث أدينا واجبنا بسهولة وعدنا بسهولة ايضا. وكذلك كان الحال في رمي الجمرتين فالحمد لله رب العالمين..

وبقينا ننتظر لكي نعود الى مكة لاداء طواف الحج وبما ان المبيت واجب في منى فكان علينا أحد أمرين.. اما ان نذهب عصرا ونعود قبل منتصف الليل واما ان ننتظر حلول منتصف الليل ثم نخرج بعد ذلك وقد اخترنا الشق الثاني فنمنا في بداية الليل ساعة او ساعتين ثم استيقظنابعد منتصف الليل بقليل فجددنا الطهارة وخرجنا بصحبة شقيق المتعهد وخمس من نساء القافلة ورجلين من رجالهن.. واستأجر لنا صاحبنا سيارة اوصلتنا الى باب الحرم المكي (باب سعود)كان الطريق خاليا هادئا تنساب السيارة فيه انسيابا مريحا وكنا نشعر بالغبطة كلما اقتربنا من مكة.. فقد كنا على موعد مع ساعات عبادة وعطاء.. ودخلنا الحرم وكان لهيبته اكبر الاثر في نفوسنا وكأننا ندخله للمرة الاولى.. وهذا من خصائص ذلك الحرم الطاهر فهو لايفقد في نفوس داخلية هيبته وروعته مهما تكررت الزيارات وتلاحقت المشاهدات.

وبدأنا نطوف.. وكان طوافنا هذا اسهل من طوافنا الاول بكثير وذلك لقلة الزحام وهدوء الطواف ولهذا فقد ادينا طوافنا بسهولة لم نكن نتوقعها مطلقا وخرجنا من الطواف لنتجه نحو الصلاة. ووقفنا نصلي في أقرب نقطة من مقام نبي الله ابراهيم وبعد ذلك كان علينا ان نذهب نحو المسعى فاسترحنا قليلا ثم سمينا باسم الله وتوجهنا نحو الصفا والمروة وبدأنا نقطع الاشواط هناك جيئة وذهابا.. وكان صاحبنا يحمل بيده علما اخضرا وهو يسير امامنا لكي لانضل عنه.. ولكن المجال لم يكن يدعو الى ذلك ولم يكن هناك اي خطر للضلال او لم يكن للضلال اي خطر. وعلى كل حال. فقد سرنا داعيات مرة وساكنات اخرى حتى انهينا اشواطنا السبعة والحمدلله فهل انتهت اعمال الحج بهذا ياترى. كلا فقد كان علينا ان نطوف طواف النساء. ولولا طواف النساء هو طواف حول الكعبة الشريفة فيه من القرب والخشوع الشيء الكثير لولا هذا لكان غير مرغوب فيه لان وجوبه يأتي بعد ان يكون الحاج قد صرف من الطاقات اكثرها. ولكن الشعور بالقرب من تلك البقعة المباركة لابد وان يتغلب في نفس الحاج على كل تعب ونصب وطفنا طواف النساء.. وكان الطواف قد ازدحم عن طوافنا الاول نسبيا ولكن وعلى كل حال لم يكن بالشكل المتعب جدا ثم ادينا صلاة الطواف الواجبة وبذلك انهينا جميع اعمال الحج.. عدى رمي الجمرات لليوم الثالث..

اي شعور من الشكر والامتنان لله الواحد القهار يشعره الحاج عندما ينتهي من نطق آخر كلمة في تشهده من الصلاة؟ لقد أحسست بالضعة والعجز الكامل عن التمكن من شكر الله على هذه النعمة فسجدنا سجدة الشكر.. ولكن شكرنا لله يحتاج الى شكر.. وذهب صاحبنا بعد الصلاة ليأتي لنا بكوز من ماء زمزم فيا لعذوبة ذلك الماء المالح!! عذوبة معنوية تنسي الشارب مرارته الحسية.

وكنا نحس بمزيد الحاجة الى الماء فشربنا حتى ارتوينا وغسلنا وجوهنا ثم حمدنا الله من جديد.. ولا يسعني هنا الا ان اسجل كلمة شكر لصاحبنا شقيق المتعهد ذاك فقد عاملنا معاملة جيدة ووفر لنا في تلك الساعات جميع ما تمكن عليه من أسباب الراحة فأسأل الله تعالى ان يجزيه عنا خير الجزاء.. وللقارىء ان يتصور مدى حاجتنا في ذلك الوقت الى الراحة وهي لاتتم الا بالعودة نحو منى والطريق كان مهددا بالازدحام كلما قرب انتهاء الليل ولكن كان علينا ان ننتظر فان احد الحجاج الذي صحبنا في منى كان قد انفصل عنا بالطواف والسعي هو وزوجته وكان علينا ان ننتظره لكي نعود معا.. هكذا قال صاحبنا المتعهد.. وحفاظا على آداب المصاحبة فقد خضعنا للامر الواقع وجلسنا ننتظر. وطالت المدة دون ان يتفضل صاحبنا فيمر علينا مرور الكرام حتى يئس متعهدنا من عودته واعتقد انه قد عاد بزوجته الى منى فخرجنا نسحب اقدامنا في الارض سحبا لشدة التعب والسهر

وهيأ لنا صاحبنا سيارة نقلتنا الى مدخل منى حيث تعذر عليها ان تستمر لكثرة الزحام فنزلنا لنمشي ذلك الطريق الطويل ونحن متعبات مرهقات نعسانات مريضات.. ولكن.. واخيرا وصلنا الى الخيمة والشمس لم تشرق بعد فحمدنا الله على السلامة.. ووجدنا حاجتنا (زوجة الحاج الفاضل)تغط في نومة عميقة ثم استيقظت لكي تقول(لماذا تأخرتم؟)!!

وكنا في حاجة ماسة الى النوم فنمنا قريرات العين لتمكننا من اداء الواجب بالشكل الصحيح.. واستيقظنا بعد ساعتين لتناول افطارنا وكنا قد استعدنا بعض قوانا والحمد لله.

* * *

كان علينا ان نرمي الجمرات لليوم الثالث وبينما كنا نتحدث عن احسن وقت نتمكن فيه من الذهاب اذ بمجموعة من السيدات يدخلن الخيمة عائدات من الجمرات وكل واحدة منهن تنادي بالويل والثبور للازدحام المرير وصعوبة الوصول اليه، فهذه تقول كدت اختنق ـ وتلك تقول ـ انه موت محقق ـ واخرى تقول ـ انه الهلاك بعينه.. تهويل ومبالغة غير مستحبة أبدا.. وتلفت حولي فوجدت الوجوه وقد علتها مسحة من القلق.. وكأن اخواتي خيل اليهن ان هناك تطورا جديدا قد حدث في نطاق رمي الجمرات.. وان صعوبة المرمى قد تصاعدت الى مستوى الموت والهلاك فاردت ان احسم فترة الانتظار المشوبة بالقلق

ولهذا اقترحت عليهن الذهاب نحو الجمرات.. فجددنا الطهارة لان من مستحبات الرمي هو أن يكون الرامي حافظا للطهارة ثم توجهنا نحن الخمسة نحو المرمى.. كانت مهمتنا في ذلك اليوم هي أسهل منها في اليومين الماضيين فلم نلحظ من قريب أو بعيد أثر من آثار الهلاك أو الموت او الاختناق وخرجنا من محوطة الجمرة الكبرى صخبات ضاحكات لاننا بذلك كنا قد أنهينا جميع اعمال الحج.. نعم انهيناها بالاصالة ولم نضطر الى وكالة وانهيناها باطمئنان ولم نتعرض فيها لشك او نسيان.. انتهينا منها واعيات ولم ننصرف عنها جاهلات.. وأخيرا انتهينا منها راغبات في العودة غير برمات لشيء أو ساخطات على أمر من الامور.. ولهذا كنا نضحك.. ولهذا أيضا كنا نحس بالغبطة والسعادة.. فالحمد لله على ما انعم واسدى. وعدنا الى الخيمة وهناك كانت الخيمة اشبه ما تكون بسوق خيري.

اذ ان مشتريات الايام الثلاث كانت قد انتشرت بين جوانبها ومشتريات تلك الساعات الاخيرة كانت مكدسة تنتظر الشد.. وعلى كل حال فما ان انتهينا من الصلاة والغداء حتى نادى المنادي بنا ان هيا نحو السيارات للعودة الى مكة.. وسارت بنا السيارة ونحن نودع في ابصارنا وافكارنا هذه المعالم الحبيبة.. فكم هو من الصعوبة بمكان ان ينظر الانسان الى ما يحب نظرة وداع قد لايكون من ورائه لقاء.. هذا الشعور هو اقسى ما يحسه المفارق فيود لو تزود معه

باكثر مقدار ممكن من الذكريات. . وطلبنا من الله تبارك وتعالى ان يرزقنا العودة ثانيا. . ثم وصلنا الى مكة حيث آوينا الى غرفتنا في العمارة التي كنا ننزل فيها قبل الخروج الى عرفات. . وغرفتنا تلك صغيرة. . ونحن كنا بمجموعتنا سبعة، وقد عرض علينا المتعهد منذ البداية ان نتنازل عن اثنتين منا أو ثلاث يلتحقن في غرفة ثانية ولكنني وقد عز علي التفريق والتميز وصعب علي ان افترق مع من صحبتهن منذ بداية الرحلة رفضت ذلك وآثرت ضيق المكان مع الجماعة على سعته مع الفرقة. . ولهذا فقد كنت قد اخرجت امتعتي الى الفسحة التي تجمع باقي الغرف لكي أوفر شيئا من المكان. . وكنت قد صادفت منذ ساعة ورودنا مكة قبل سفرنا الى عرفات صادفت بعض المتاعب من قبل اهمال بعض رجال القافلة. اذ كان الواحد منهم يصعد في طلب زوجته او امه او اخته ويدخل الشقة بدون استئذان ولا يهمه ان تكون هناك امرأة مارة او ان يكون هناك بابا من أبواب الغرف مفتوحا ولكنني وجدت ان هذا أمر لايستحب السكوت عليه فطلبت من المتعهد ان يمنع ذلك وخولته ان يوجه الطلب باسمنا اذا كان يخشى من التأثرات. . ولكنه استجاب للامر برحابة صدر ونادى في طابق الرجال قائلا: لا يصح لرجل ان يجتاز باب شقة النساء في الطابق الثاني. . واستجاب الرجال لذلك والحمد لله فكان واحدهم يقف وراء باب الشقة ثم يطرقها مناديا على من يريد من السيدات كان

هذا هو وضع غرفتنا في مكة.. وكانت الشقة تحتوي على حمام واحد ودورتين للمياه.. وليت هذا الحمام لم يكن موجودا لانه اصبح مصدر متاعب للجميع وطالما نجمت بسببه الكثير من الخلافات والنزاعات.. أما ماء الشرب فقد كان مالحا جدا وظني ان المتعهد كان قد عجز عن توفير ماء للشرب لكثرة ما تستهلك النساء منه لغسيل الملابس والاجسام ولهذا كنا نتجرع مرارة الماء وملوحته بصمت.. ما دامت تلك المرارة بسبب من حلاوة العبادة... واصبح علينا صباح اليوم الثالث عشر ونحن في مكة ومكة بلدة تضفي على من يؤمها جوا من الانطلاق الروحي والانشراح النفسي فهي بجميع معالمها محببة الى النفس قريبة الى الروح وعلى القرب منها غار حراء.. وهو على قمة جبل عظيم هائل الارتفاع واذا اردنا ان نعين موقعه في ذلك الجبل وجدناه ينحدر عن القمة من الجانب الثاني نازلا من الناحية الثانية لكي نجد فتحة الغار الصغير. هذا الغار الذي انطلقت من بين جدرانه اقدس رسالة عرفها التاريخ فان احجاره هي تلك الاحجار التي استقبلت ميلاد شريعتنا الخالدة.. حيث دخل اليها محمد بن عبد الله (ص) لكي يعتزل الناس وينصرف الى عبادة الله الواحد القهار ثم خرج عنها وهو حامل لرسالة السماء... هذه الساعات التي احتضنت محمدا داخل الغار كانت هي الحد الفاصل بين الظلمات والنور بين الحياة والدمار فما اعظمها من ساعات كانت الارض خلالها قد

تفتحت لتستقبل رسالة السماء ويالها من خطوات تلك التي خطاها محمد بن عبد الله (ص)وهو خارج من هذا الغار ليطل على العالم برسالته مضيئا في معانيها مشاعل نور وواضعا من مفاهيمها سفن نجاة.. نعم انه غار حراء حيث شقت في الجبل المؤدي اليه بعض خطوط ملتوية بين صخور واحجار يتمكن الصاعد ان يجد آثارها كلما صعد وحيث يطل الصاعد اليه على مكة بجميع مبانيها ومعالمها فيقف خاشعاً امام تصوره لحقيقته الشامخة.. حقيقة ان يكون الاسلام قد انطلق من بين هذه الاحجار الصلبة الجرداء ليهدد كسرى في ايوانه وهرقل في عزته وسلطانه كما وان الزائر في مكة يمكن ان يزور مقابر قريش حيث رقدت ام المؤمنين خديجة وفاطمة بنت اسد ام الامام امير المؤمنين واجداد النبي واعمامه.. ووقفنا عند قبر خديجة الذي لايكاد يعرف لولا بعض احجار صغيرة فوقه.. وسرح بنا الفكر الى حيث كانت السيدة خديجة تحتضن الرسالة وتتبناها كما احتضنت صاحب الرسالة وتبنته من قبل.. نعم السيدة خديجة هذه التي يعلمنا تاريخها ان للمرأة لو ارادت ان تكون ركيزة في وجود الامم وبانية من بناتها.

.. ووقفنا على قبرها نتساءل: أين نحن من خديجة ثم لنتساءل أيضا وبعد ان نعرف مدى البون الشاسع الذي يفصلنا عنها نتساءل أترانا مسلمات حقا؟ وما هي علامات اسلامنا ياترى؟ ان الجانب الايجابي وحده لا يكفي لأن يوجد من

الانسان انسانا مسلما حقا لان جميع العبادات المفروضة هي مما ينفع الناس ويحقق لهم المصالح الخاصة والعامة. اما الجانب الذي يحقق للفرد اسلامه ويخوله ان ينتسب الى الاسلام مانحا اياه احقية ذلك الانتساب هو الجانب السلبي من جوانب العبادة.. والجانب السلبي هو ترك ما نهانا الله عنه واجتناب ما أمرنا الله باجتنابه.. فهل نحن مسلمات حقا وكان علينا ان نبقى في مكة مدة ثلاثة ايام ثم نسافر بعدها متوجهين نحو المدينة المنورة... وفي اليوم المقرر للسفر ذهبنا الى الحرم الشريف لنطوف طواف الوداع.

وكان المطر ينهمر بغزارة فيغسل جدران الكعبة ويضفي على الموقف بشكل عام هيبة جديدة من نوع فريد وكان الوداع قاسيا جدا لولا بصيص الامل في عودة اللقاء وقديما قيل:

« ما أضيق العيش لولا فسحة الامل »

* * *

وعدنا من البيت الحرام ونحن نلتفت وراءنا لنلقي آخر نظرة على ما نحب وكأننا مع كل لفتة كنا نجدد عهدا جديدا في الولاء ونؤكد وعدا مسبقا في وحدانية العبودية وخلوص الطاعة.. كانت نظراتنا تلك حكاية عن قلوب عاشت سعادة الروح في القرب وها هي تسير نحو مرارة

الشـوق في البعـد . . حكـايـة ارواح وجـدت راحتـها حيث تسير منطلقة نحو مناها السحيق. . نعم لقد كانت تلك النظرات حكاية عسى ان يحققها الله لقلوب املتها في صدق وارواح اوحتها في اخلاص. . وعدنا الى النزل حيث وجدناه صاخبا ثائرا يشوبه جو من التوتر وتنطلق من احدى زواياه ثورة عارمة ونقمة مدمرة فراعنا الموقف وتساءلنا عن السبب؟ ثم عرفنا ان بعض الحجاج كانوا قد اقترحوا على المتعهد ان يؤخر لهم نقلا خاصا بهم نحو المدينة وذلك عن طريق سيارة صغيرة مستقلة لكي يتجنبوا مضايقات المطار ويبدو ان هناك بعض المعاكسات الغير مقصودة قد حالت بينهم وبين مواصلة السـير وتسبب ذلـك في ضيـاع جـوازات السفـر العـائـدة اليهم! . وجلسنا ننتظر إنتهاء هذا الموقف المسرحي ولكن اين جلسنا ياترى؟ كان الفراش قد تجمع في ساحة الشقة مقدمة لنقله والامتعة قد رميت فوق بعضها استعدادا لتحميلها في السيارة. . فجلسنا على اطراف سجاجيد!! وأمرنا لله الواحد القهار. . بعد ان عرفنا اننا لايمكن ان نخرج من مكة الا بعد الحصول على الجوازات الضائعة!! وكان لهذا الصخب واللغط أسوأ الاثر في تلوين انطلاقتنا الروحية التي عشناها في عيون مودعة دامعة وقلوب مشفقة خائفة. . فقد بـدأ الماء يسري الينا ونحن نجلس وسط ساحة حرب نبالها الكلمات وقذائفها الدعوات. . وكلما حاولنا رد الغيبة او تلطيف الموقف زاد الطين بلة حتى كاد ان يصيبنا شيء من ذلك الرشاش!!

فسكتنا وأمرنا لله ولكن وضعنا النفسي كان قد تدهور جدا وبدأت اعصابنا تنذر بالارهاق. واخيرا وبعد ساعات طوال سمعنا بنبأ الحصول على الجوازات المفقودة فألف الحمد لله رب العالمين.. وانطلقنا من الشقة خفافا كأننا طيور طال بها السجن في قفص من حديد وذهبنا الى حيث كانت السيارات.. فصعدنا الى اماكننا فيها.. وسارت بنا على اسم الله وبركاته.. وبذلك غادرنا مكة تلك البقعة الحبيبة.. ولكن شتان بين دخولنا اليها ملبيات وبين خروجنا عنها مرهقات متعبات..

* * *

وقبل أذان الفجر بساعة دعينا الى المضي نحو الطائرة فحمدنا الله على نهاية الانتظار واستقل كل منا مقعده في الطائرة النفاثة (ترايدنت) وبقينا ننتظر التحليق وكنا نأمل ان نصلي صلاة الفجر في المدينة لان المدة بين جدة والمدينة لاتستغرق اكثر من ثلاثة ارباع الساعة وطال بنا الانتظار والطائرة تأبى ان تقلع عن الارض وعرفنا ان هناك خلل يتطلب الاصلاح.. وبدأ السأم يدب الى نفوسنا ونحن نتابع الساعة خشية ان يتعارض وقت السفر مع وقت الصلاة وكدنا أن نقترح النزول الى أرض المطار لتأدية الصلاة لولا ان مضيف الطائرة أعلن عن عدم التمكن من اصلاح الطائرة وليس علينا الا الهبوط!!!

فنزلنا وعدنا من جديد نفترش امتعتنا وسط آلاف الحجاج وقضينا النهار بطوله هناك وبعد الغروب بقليل دعينا الى ركوب الطائرة فركبناها وقلوبنا وجلة خشية ان لاتكون قد برأت من عارضها بشكل كامل ولكنها وبعد دقائق اقلعت عن ارض مطار جدة.. وبهذا كنا قد توجهنا نحو المدينة المنورة.

ووصلنا الى المدينة المنورة وهي تبعد عن جدة حوالي ال(٤٢٠)كيلو متر ووقفت امام قبر الرسول (ص)ان من ابرز المشاعر التي يعيشها الانسان وهو مائل امام القبر الشريف هو شعور الخجل والتقصير! حينما يجد ان عليه ان يقدم حسابا لقائده الذي يقف امامه.. نعم ان عليه ان يقدم حسابا عن الوديعة التي خلفها لديه وهو القائل(اني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي ابدا)فكيف كان احتضانه لهذه الوديعة وما هو مدى تمسكه بهما؟ وهل تراه وعى مضمون التمسك وعرف انه التمثل والطاعة والاستجابة كما يدعو ان اليه؟ سعيد ذلك الذي يجد نفسه وقد وفى لرسوله باحتضان مخلفاته والتمسك بهما، نعم سعيد ذلك الانسان ويالها من سعادة وهو يقف في بقعة طاهرة قال عنها الرسول(ص)(بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة)ولكن لمن تتفق هذه السعادة ياترى؟؟ سؤال حبذا لو طرحه على نفسه كل زائر لتلك الرحاب وفي المدينة المنورة ايضا زرنا مراقد الائمة الاطهار الحسن المجتبى والامام

زين العابدين وابي جعفر الباقر والامام جعفر الصادق عليهم افضل الصلاة والسلام وكانت زيارتنا لمراقدهم الشريفة من وراء جدار البقيع حيث ان السلطة هناك لاتسمح للمرأة بالدخول الى تلك البقعة الطاهرة!!

وقد خصصت ساعات محدودة من كل يوم تفتح فيه الابواب لزيارة الرجال فقط.. وفي القرب من المدينة المنورة زرنا مقابر شهداء احد الابرار ومسجد قبا وهو أول مسجد بني في الاسلام ومسجد القبلتين حيث نزل الوحي فيه بتغير القبلة من بيت المقدس نحو الكعبة الشريفة. وغيرها من الاماكن الشريفة وفي صبيحة اليوم الخامس فارقنا المدينة متوجهين نحو العراق وكلنا لسان شكر لله عز وجل على ما وفقنا اليه.

أنغام الرحيل

فرصة العمر واغلى مطلب
تهب الانسان احلى الارب

* * *

ايها الراحل عن اوطانه
لاهيا عنها وعن اخوانه
لايبالي بجوى تحنانه
قاده الشوق الى ايمانه

سـائـرا نـحـو الـنـعـيـم المـرتجى
في رحـاب الـله او قـبـر الـنـبـي
* * *

فـرصـة الـعـمـر واغـلى مـطلب
تهـب الانـسـان احـلى الارب
* * *
ايها الراحـل سر نحو النعيم
نحو وادي زمزم نحو الحطيم

نحـو بيت الله والـركن الـعـظيم
في رحـاب الـله ذي الـعـفـو الـكـريـم
نـحـو سـعـي الحق أو نـحـو الـصـفـا
واذكـر الـله بـقـلب وجـب
* * *

فـرصـة الـعـمـر واغـلى مـطلب
تهـب الانـسـان احـلى الارب
* * *

ايهـا الـراحـل قـف جنـب المـقـام
حـيـث ابـراهـيـم قـد صـلى وصـام

ثم صل في خشوع واحترام .
واتجه فيها الى رب الانام

واطلب العفو من الرب الذي
جعل التوبة عتق المذنب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب
تهب الانسان احلى الارب

* * *

ايها الراحل ان جئت الصفا
فاسع للمروة تبغي شرفا
وابتهل فيها بقلب قد هفا
نحو عفو الله اسمى من عفا
ثم قصر بعد سبع وانثنى
شاكرا لله نيل الطلب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب
تهب الانسان احلى الارب

* * *

ايها الراحل يهنيك المسير
نحو وادي خيبر نحو الغدير
نحو بدر احد نحو البشير
نحو غار في حراء مستنير
بضياء المرسل الهادي الذي
شع نورا في بلاد العرب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب
تهب الانسان احلى الارب

* * *

أيها الراحل خذها فرصة
لك واغنم في ذراها عبرة
ودع الروح لتمضي حرة
في سماء الحق تبغي جنة
عرضها طولا كارض وسما
وهي تحيا بشعور عذب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب
تهب الانسان احلى الارب

* * *

ايها الراحل هذي عرفات
فاغتنمها فرصة قبل الفوات
واشغلن ساعتها بالدعوات
واغسل الذنب بسيل العبرات
جبل الرحمة فيها فأته
رحمة الله بقلب وجب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب
تهب الانسان احلى الارب

* * *

ثم عند الظهر قفها وقفة
تائبا لله فيها توبة
واسكب الروح عليها عبرة
تغسل الذنب وتعطي جنة
لايلقاها سوى قلب نقي
واستقم فيها لوقت المغرب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب
تهب الانسان احلى الارب

* * *

ايها الراحل ذي مزدلفة
نحوها فاطر الدجى في عرفه
يذكر الله بها من عرفة
تائبا عن كل ما اقترفه
ليس فيها ارض وسما
وظلام وخشوع مرهب

* * *

فرصة العمر وأغلى مطلب
تهب الانسان احلى الأدب

* * *

انها ليلة سعد وخشوع
وابتهال ودعاء ودموع
ومناجاة الى وقت الطلوع
ما احيلاها اراض وربوع
يستميل القلب فيها راحة
تزدهي من كل زهر طيب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب
تهب الانسان احلى الارب

* * *

ايها الراحل قد نلت المنى
اذ توجهت الى ارض منى
مسجد للخيف يعطيك الهنا
فيه تنسى كل جهد وعنا
ايها الراحل وارم الجمرات
في حصا معدودة للطلب

* * *

فرصة العمرواغلى مطلب
تهب الانسان احلى الارب

* * *

وتوجه بعدها للكعبة
طف وصل وابتهل للتوبة
ثم فأت للصفا والمروة
واشكر الله لهذي النعمة
ثم طف فيها طوافا ثانيا
ليس من جهد بها أو نصب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب
تهب الانسان احلى الارب

ايها الراحل يهنيك الوصول
في رحاب القدس في قبر الرسول
فيه تسمو نحو باريها العقول
تنمحي الآلام والهم يزول
يهب الارواح امنا ورضا
وهو يروي كل قلب مجدب

* * *

فرصة العمر وأغلى مطلب
تهب الانسان اعلى الارب

* * *

ايها الراحل زر تلك الرحاب
وبقيعا ما به غير التراب
فغدت جدرانه تحكي الخراب
وانمحت آثاره فهي يباب
وبه أربعة يرجى بهم
نيل عفو الله يوم التعب

* * *

فرصة العمر واغلى مطلب
تهب الانسان احلى الارب

* * *

لن انثني

قسما وان ملء الطريــق
بمـا يعيق السـير قدمـا
قسمـا وان جـهد الزمـان
لكي يثبط في عزمـا
أو حـاول الدهـر الخـؤون
بـأن يريش الـي سهمـا
وتفاعـلت شـتى الظـروف
تكيل آلامـا وهمـا
فتراكمت سحب الهمـوم
بـأفق فـكري فـإدلهمـا
لـن انثـني عمـا أروم
وان غـدت قـدماي تدمـى
كـلا ولـن أدع الجهـاد
فغـايتي أعـلى وأسـمى

* * *

انـا كـنـت أعـلم ان درب
الحـق بـالاشـواك حـافـل

خال من الريحان ينشر
عطره بين الجداول
لكنني اقدمت أقفو السير
في خطو الاوائل
فلطالما كان المجاهد
مفردا بين الجحافل
ولطالما نصر الاله
جنوده وهم القلائل
فالحق يخلد في الوجود
وكل ما يعدوه زائل
سأظل أشدو باسم اسلامي
وأنكر كل باطل

* * *

اسلامنا أنت الحبيب
وكل صعب فيك سهل
ولاجل دعوتك العزيزة
علقم الايام يحلو
لم يعل شيء فوق اسمك
في الدنا، فالحق يعلو
وتطبق الدنيا مبادئك
العزيزة وهي عدل

وسينصر الرحمن جند
الحق ما ساروا وحلوا

المسلمين الاله
وكل ما يعدوه يبلو

وأظل باسمك دائما
أشدوا فلا ألهو وأسلو

الفهـرس

الموضوع	الصفحة